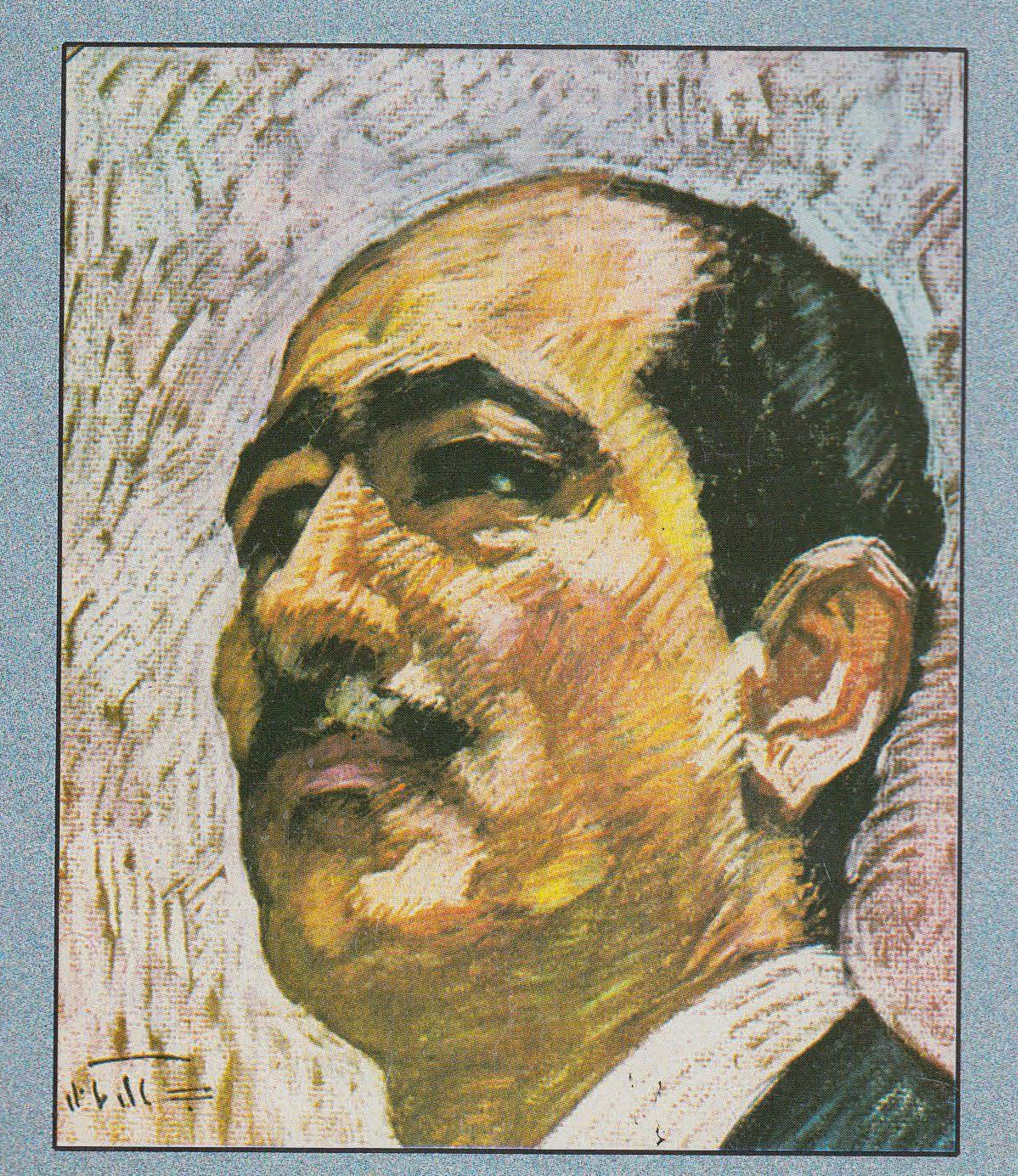


رشـــاد كامل

زيارة جديدة للسادات

الاعمال الخاصة





الهيئة المصرية
العامة للكتاب

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: **بورتريه السادات**

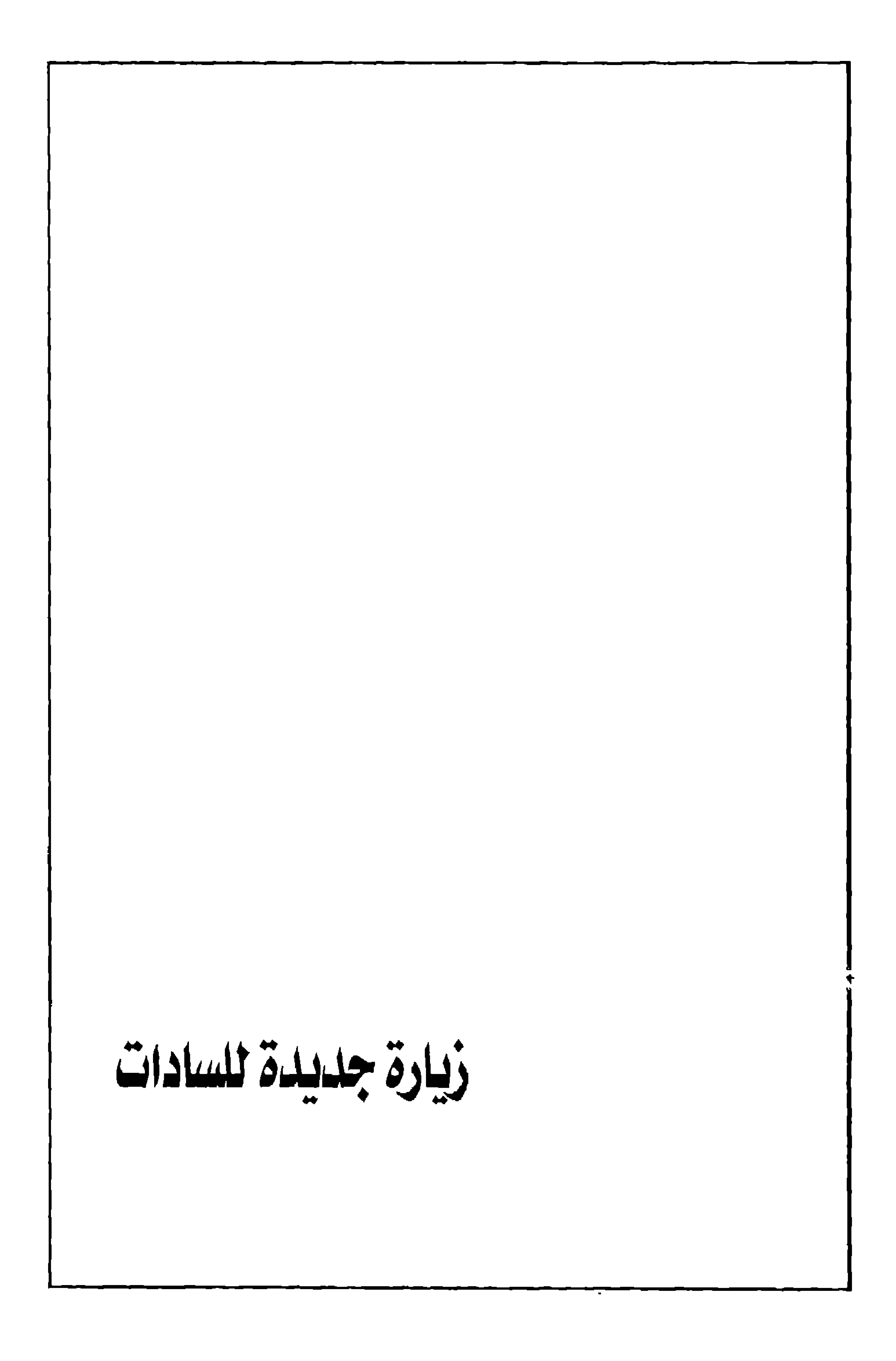
التقنية: **ألوان باستيل على ورق**

المقاس: **٤٠ × ٧٥سم**

جمال كامل (١٩٢٦ ـ ١٩٨٦)

فنان مصرى، تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة، ودرس فن التصوير على يد الفنان أحمد صبرى ١٩٤٨، عمل بعد تخرجه رساماً صحفياً بدار الهلال، ثم انتقل إلى دار روزاليوسف، حتى صار المستشار الفنى للدار. كان أحد نجوم الحركة الفنية المصرية والعربية، وقد عرف جماهيرياً من خلال رسوم مجلات صباح الخير وروزاليوسف، وله دور إيجابى واضح فى نشر الفن التشكيلى، بين الجماهير، حيث قدم القيم الفنية الراقية إلى جوار الكلمة المقروءة، وهو يجيد استخدام الألوان الزيتية وألوان الباستيل والألوان المائية بمهارة فائقة.

محمود الهندى



زيارة جديدة للسادات

زيارة جديدة للسادات

رشـــاد كـامـــل



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

زيـارة جـديـدة للســادات

رشـــــاد كـامــــل

الغـلاف

والإشراف الفنى:

الفنـان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سـمير سرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «منصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الاسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

بدلاً من المقدمة

لا «أنا» ولا «أنت» عرفنا السادات أو قابلناه أو جلسنا معه!

لا «أنا» ولا «أنت» اقتربنا من السادات، وقلنا له وقال لنا!

لا «أنا» ولا «أنت» نصحنا السادات بأن يفعل كذا ولا يفعل كذا كما يروى العشرات!

لا «أنا» ولا «أنت» رفضنا العمل مع السادات احتجاجاً على فرديته وديكتاتوريته كما يردد بعض الذين عملوا معه!

كان السادات بالنسبة «لى» و«لك» رئيساً لمصر وزعيماً لها اتخذ أخطر وأجرأ القرارات.

لكن لم يتدخل أحد - أنا أو أنت - فى هذه القرارات سواء بالنصح أو الاقتراح.

لا - أنا ولا أنت - أصدر مذكراته أو ذكرياته التى يروى ويحكى فيها بعض ما جرى مع السادات الذى لم يقابله أو يشاهده أو يجلس معه!

لكن الآخرين فعلوها بجرأة نادرة وأصدروا مذكرات وذكريات.

أما الذين اقتربوا من السادات بالفعل وعملوا معه لفترات طالت أو قصرت ثم سجلوا تجربتهم فى مذكراتهم فهى تستحق القراءة وإعادة القراءة من تانى.

لقد كان «السادات» فى كل مذكرات يختلف تماماً عن «سادات» المذكرات الاخرى!

وعلى ما يبدو فقد كان هناك أكثر من «سادات» يحكم مصر!

كان هناك «السادات» الذى نراه عبر شاشة التليفزيون يتحدث ويخطب، وتتغير نبرات صوته، حسب الموضوع الذى يتحدث فيه!.
وكان هناك «السادات» الذى نراه وهو يقوم بزيارات ميدانية للمصانع والمزارع والتجمعات المختلفة، مرة يرتدى بدلة سفارى، ومرة يرتدى الجلباب، ومرة يرتدى البدلة الكاملة، وفى كل الحالات والأحوال كان حريصاً على الأناقة والشياكة، ولم يكن يخفى سعادته عندما اختارته إحدى المجلات العالمية واحداً ضمن أشيك عشرة زعماء فى العالم!.
وكان هناك «السادات» الذى يلتقى بمختلف طوائف الأمة فى مناسبات عديدة، ويحرص على سرد حكايات وقصص ونوادر وطرائف، تختلف باختلاف المناسبة!.
لقد دخل أنور السادات التاريخ بأخطر وأجرأ قرارين على وجه الإطلاق: حرب أكتوبر ١٩٧٣، ومبادرة السلام ١٩٧٧.
القرار الأول أصبح بعده بطلاً للحرب.. والقرار الثانى أصبح بعده بطلاً للسلام!!.
وفى السادس من أكتوبر ١٩٨١ دفع السادات حياته ثمناً غالياً فى سبيل هذا الوطن!.

■■

وفى كل الحالات كان «حضور السادات» طاغياً ومؤثراً ولافتاً للانتباه بقوة وحدة سواء على المستوى المحلى والعربى أو العالمى.
وفى كلمات بالغة الدلالة يصف الكاتب الكبير «محمد حسنين هيكل» هذا الحضور المدهش للسادات فيقول:
«كان الرئيس «السادات» شخصية مثيرة بكل المعايير، وكانت شخصيته متعددة الجوانب بحكم تكوينه الإنسانى، وتجربته الحافلة، والثقافة التى ترسبت عنده من عنصر التكوين، وعنصر التجربة، وقد علمته الأيام أن يقابل الصعاب بصدر رحب، وفى السنة الأولى من رئاسته فإن أحلى ما كان فى شخصيته تجلى وتألق.

كان رجلاً تحت الاختبار وكان يدرك ذلك بعمق، وكان رجلاً يواجه تحديات خطيرة ولم يقلل من شأنها .

وكان رجلا يريد أن ينجح في مهمته الرئيسية، وهي مأزق الحل والحرب ، وقد راح يجرب ويتعلم بقلب مفتوح وعقل متفتح، وكان مستعداً لسماع كل الناس وجاهزاً للتفكير حتى فيما كان التفكير فيه ضرباً من المستحيل» .

وفق ذلك فإنه راح يمارس هذا كله ببساطة ، وأحياناً بمرح إذا سمحت له الظروف وكان هناك معياراً لحالته النفسية يعكس نفسه في الطريقة التي يلقى بها تحية الصباح أو يردها .

وحينما كان راضياً وسعيداً فإن تحية الصباح عنده كانت تتراوح ما بين «صباح الفل» أو «صباح الورد» أو «صباح القشطة» .

وحينما تستبد به المشاكل والهواجس فإن تحية الصباح عنده كانت تتراوح ما بين «صباح الخير» ، «صباح النور» ، وأحياناً يبلغ السوء مداه فإذا هو يرد تحية «صباح الخير» قائلاً : «ومن أين يأتي الخير؟ هذا صباح الزفت والقطران» ! .

هكذا كانت شخصية «السادات» - إنساناً وزعيماً - حضوراً دائماً مليئاً بالحيوية والذكاء . سواء اتفقت معه أو اختلفت ! .

وطوال عشرين عاماً - ومنذ رحيله - لم تبهت شخصية وزعامة الرئيس السادات ، ولم يتوقف الجدل والنقاش حوله : إنساناً وزعيماً ورئيساً .

ولم تكن صدفة أن تختاره وسائل الإعلام العالمية كأحد أبرز رجال القرن العشرين .

أن شخصية في مكان ومكانة «السادات» كان لابد أن تكون مثار جدل وخلاف لا حدود له .

وربما كانت عشرون سنة كافية تماماً وأكثر للقيام بزيارة جديدة للسادات ، زيارة إنسانية قبل أن تكون سياسية !

زيارة قمت بها من خلال معظم ذكريات ومذكرات الذين اقتربوا من السادات وشاهدوه عن قرب، وكانت لهم معه حوارات وذكريات ومواقف وطرائف أيضاً.

إنني أدين بالفضل لصفحات هذه الزيارة بمقال نادر وممتع للكاتب السياسي اللامع ما يسترو الصحافة المصرية «صلاح حافظ» وكان عنوانه «سادات هيكل وسادات موسى» كتبه في منتصف الثمانينيات على صفحات مجلة صباح الخير!

كان المقال دراسة سياسية ممتازة وممتعة وبالغة الذكاء عبر قراءة الكاتب المقتدر صلاح حافظ (اليساري) لكتابين من أهم الكتب التي تناولت شخصية السادات الأول كتبه هيكل (خريف الغضب) والثاني كتبه.. موسى صبري.. (السادات الحقيقة والأسطورة).

من هذا المقال على وجه التحديد جاءت فكرة هذه الزيارة الجديدة للسادات، والكتابة عنه!.

واعترف أن عنوان هذا الكتاب أدين له بالفضل للأستاذ هيكل وكتابه المهم «زيارة جديدة للتاريخ»، وأيضاً سلسلة المقالات المهمة للكاتب الكبير الأستاذ «أحمد حمروش» تحت عنوان «زيارة جديدة إلى هيكل»!.

■■

والآن تأتي هذه الزيارة الجديدة إلى السادات حيث الدنيا لا تزال مشغولة به: إنساناً وزعيماً دخل التاريخ بقراراته واستقر بوجدان الناس بواحد من أعظم إنجازات القرن العشرين: حرب أكتوبر ١٩٧٣ أكبر وأشمل وأعظم انتصار مصري وعربي.

ويبقى الشكر بلا حدود للقارئ الكريم، وأترك له هذه الصفحات شاكراً وممتناً أما التقدير والاحترام فلا حدود له.

رشاد كامل
شتاء ٢٠٠١

الفصل الأول

السادات:
سنوات الشباب !!

لم يخجل «السادات» من أصله وفصله!!

وعندما روى «السادات» مشوار حياته - طفولته وشبابه بالذات - فى مذكراته «البحث عن الذات» لم يحجب عن القارئ معاناته مع الفقر والألم والشقاء!!

ولم يتنكر السادات لطفولته البائسة أو سنوات شبابه التى اتسمت بالشدة والقسوة والكثير من الحرمان أيضاً!

ولم يخجل السادات وهو يصف نفسه فى مذكراته «البحث عن الذات» بقوله:

«أسير خلف جدتى صبياً أسمر ضئيل الجسم حافى القدمين، يرتدى جلباباً تحته قميص من البفتة».

ولم يخجل رئيس الجمهورية أو يجد عيباً أن يكتب كيف كان يأخذ البهائم إلى الترعة لتشرب، أو يشترك مع الصبية فى جمع القطن أو عندما كان يخبئ فى جيب جلابيته الفضفاض الجبن الناشف المخلوط بكسر الخبز ويلتهمه حفنة بعد حفنة أثناء الدروس وما بينها.

ولم يخجل السادات «من القول» زملائى فى الفصل كانت ملابسهم أفضل من ملابسى بكثير، ولكن هذا لم يصبنى بأى عقدة وفى مرحلة الثانوى كنت أعيش تحت خط الفقر. فقد كان والدى بدخله المحدود يعول أسرة مكونة من ١٣ ولداً وبنتاً.

ثم يعترف الرئيس السادات بصراحة مذهلة تدعو للإعجاب قائلا:

«كان مصروف يدى مليمين فى اليوم، وبهذا المبلغ الضئيل كنت أشترى كوباً من الشاى باللبن وأشربه وانا أحس أنى أسعد إنسان في العالم، فى حين أرى زملائى من حولى يشترون أفخر أنوا ع الشيكولاتة والحلوى من «كانتين» المدرسة، وكان لدى الواحد منهم أكثر من حلة فاخرة يختار من بينها ما يروق له. فهو دائماً أنيق متجدد أما أنا فكانت عندى حلة واحدة أكل عليها الدهر وشرب ولكنى لا أملك تغييرها أو حتى تجديدها».

بهذه البساطة والصراحة سجل السادات وروى دون خجل أو كسوف جوانب من طفولته وشببه، وشاءت الظروف والصدفة أن يكون شاهداً على هذه الحكايات بعض الذين اقتربوا منه وعرفوه عن قرب فى تلك السنوات.

إن قراءة ما كتبه وسجله زملاء السادات عن تلك السنوات مهمة لأنها تضىء جوانب خافية فى حياة السادات وقبل أن يصبح ملء السمع والبصر فى مصر والعالم كله!!

■■

كان الأستاذ «فكرى مكرم عبيد»، شقيق الزعيم «مكرم عبيد»، أحد الذين اقتربوا من السادات فى سنوات شبابه وقبل سنوات طويلة من سطوع اسمه كرئيس وزعيم لمصر!

كانت بداية المعرفة فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية، وكان «فكرى مكرم عبيد» يتصور أن الطالب أنور السادات صعيدى مثله لكن السادات قال له إنه ليس صعيدياً وإنما من بلد فى المنوفية اسمها «ميت أبو الكوم» ومن يومها رسخ فى ذهنه اسم بلدة ميت أبو الكوم!

وعن ذكريات تلك المرحلة مع «السادات» يقول:

«لقد تزاملنا فى فريق الكشافة بالمدرسة وكنت رئيساً للفريق، وكان يبدو شديد الاعتزاز بنفسه ويحترم ذاته جداً، وإن كان من عائلة فقيرة إلا أن ذلك كان من دواعى فخره فليس هناك عيب فى الفقر.

يعتز بكرامته، يرتدى بدلة واحدة كل يوم ولا يغيرها إنما كانت مهندمة ونظيفة وكنت أندهش لذلك، ورغم أنه كان صبياً صغيراً إنما حريص على هندامه ونظافة ملابسه بصورة تلفت الأنظار.

وكان وطنياً متحمساً جاداً لا يميل إلى التهريج واللعب كما يهوى أقرانه فى هذه السن المبكرة.

كان يزاملنا أيضاً المهندس سيد مرعى وإن كنت أكبر من السادات بعامين وبذلك فإننى أسبقه فى الدراسة كذلك عامين، ولديه الأنفة والاعتزاز بالنفس والكبرياء، حتى لاحظت أنه يعرض ولا يأخذ قطعة شيكولاته من أى زميل له، وكانت الشيكولاته فرايز الإنجليزية ممتازة وثمنها قرش فقط فسألته: لماذا لا تأخذ منها عندما يدعوك أحد الزملاء لذلك؛ فهل لا تحبها؟!

فأجاب: بالعكس فإننى أحبها!!

فاندهشت وسألته: إذن لماذا لا تحصل على قطعة وتعرض عنها؟!

فأجابنى بأنه لا يستطيع ذلك لأنه لا يملك ردها أو رد ما يقابلها من حلوى أخرى!!

ولهذه الدرجة كان لديه حساسية شديدة لكرامته، وتركت المدرسة عام ١٩٣٢ لكن بعد مرور ١٠ سنوات التقيت به داخل قفص الاتهام وأنا خارجه بقاعة المحكمة فى عام ١٩٤٦ وكان لقاؤنا حاراً لشوق هذه السنوات، وكان أخى «وليم مكرم عبيد» موكل عن زميله المتهم «سعيد توفيق» أخو «حسين توفيق»... و... و

وكان ذلك فى قضية اغتيال أمين عثمان، والعنصر المخطط والمدبر هو أنور السادات، وكنت فى أغلب الأحوال أحضر الجلسات نيابة عن أخى فى استجواب الشهود والأقوال التى أدليت للنيابة العامة، وأما فى المرافعة فقد حرص أخى على حضورها والتحدث فيها.

وعندما استجوبناه أثناء المحاكمة تحدث عن نفسه بطريقة رائعة، فلم ينكر التهمة بطريقة مباشرة، إنما كان يناقش أقوال الشهود دونما التطرق لإنكار الواقعة ذاتها، وكانت هذه من علامات اعتزازه بكرامته وبنفسه.

كانت محاكمة قوية ومحترمة جداً، وحازت إعجاب وتعاطف الرأى العام، ويمكن الجزم بأن شعبية أنور السادات بدأت منذ هذه القضية!

وبعد انتهاء هذه القضية تقطعت وسائل الاتصال ومضى كل فى طريقه»!

■■

ولن تكتمل ملامح البورتريه الإنسانى «للسادات» أيام شبابه إلا بالاقتراب من شهادة رجل مهم هو «صلاح الشاهد» كبير الأمناء بالقصر الملكى ثم كبير الأمناء أيام جمال عبد الناصر ثم السادات!

إن علاقة صلاح الشاهد بالسادات تعود إلى عام ١٩٣٢ عندما كانا زميلين فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالقاهرة، وفى عام ١٩٣٥ كانا فى مرحلة الكفاءة – الثانوية الآن – وقاد السادات مظاهرة وخطب ضد تصريح وزير الخارجية البريطانية وقتها «مستر هور». وكانت المظاهرات تهتف «يسقط هور ابن التور»!!

وحسب ما يقول «صلاح الشاهد» فقد تم فصل الشاهد والسادات فصلاً نهائياً وكان «علي باشا عدلى» صديقاً لوالدى ولأسرتى فذهبنا إليه أنا والسادات لأوضح له الموقف فما كان منه إلا أن أخذنا إلى مدرسة أخرى هى الأهرام الثانوية وألحقنا بها وهى مدرسة خاصة بمصروفات تبلغ ٨ جنيهات ولكن أنور السادات قال لى:

– ماذا أقول أنا لوالدى الآن وهو لا يستطيع أن يدفع هذا المبلغ؟

فذهبت إلى والدتى أبلغها ما حدث فانفعلت وانهالت علىّ بالتوبيخ وقالت لى:

– مادمت تصاحب هذا الولد أنور السادات فسوف يقودك إلى الانحراف!!

لكن والدة صلاح الشاهد أعطته ١٦ جنيهاً لكى يدفع مصروفات المدرسة له وللسادات!!

يضيف صلاح الشاهد: واستمرت علاقتى بأنور السادات منذ ذلك اليوم، وعندما كان السادات معتقلاً – بمعتقل الزيتون – كنت أذهب إليه بسيارتى وكانت لى علاقة بالحراس فكنت أتمكن من إخراج السادات من المعتقل لبضع ساعات وأخفيه – فى الجانب الخلفى من السيارة – وكان يرافقنا أحد الضباط الأصدقاء وأذهب به إلى بيته ليجلس بعض الساعات مع زوجته (الأولى) فى حى المنيل ثم أعود به إلى المعتقل مرة أخرى.

وينتقل الشاهد إلى جانب مثير فى حياة السادات فيروى – وحسب ما جاء فى ذكرياته التى سجلها له الأستاذ «سامى السمكورى» – فإن السادات طول حياته

يميل إلى الأناقة منذ طفولته، وفى شبابه رأيت السادات يرتدى أول حذاء من نوع «البوت» ذى الرقبة الطويلة فقلت له:

● هل أنت سرقت هذا الحذاء من الطيارين الإنجليز؟!

فضحك السادات وقال:

■ لا إننى اشتريته!!

وكان - السادات - سعيداً وهو يتحدث عن البوت الذى يرتديه!!

وكان السادات يبتدع من الملابس ما يلفت النظر إليه منذ كان شاباً، وكان يحاول أن يظهر أناقته برغم الفقر! وكان يبدو دائماً معتزاً بثباته ومظهره، وكانت له طموحات ويرتدى ملابس الطبقات الراقية، يضاف إلى ذلك أن السادات كان يميل إلى حب الظهور والتمثيل!!

وبعد قيام الثورة كان أنور السادات هو القائمقام الوحيد بين ضباط الثورة فاخترع بدلة برقبة مخالفة للزى العسكرى، ولو كان قائد الجيش موجوداً لقام بمحاكمته على هذه المخالفة التى ابتدعها فى الزى العسكرى قبل الرجوع إلى قائد الجيش(!!)

وكان «السادات» يحب التغيير فى ارتداء الملابس ويحب أن يظهر بشىء مخالف، فكان مثلاً لا يشرب الشاى الذى نشربه نحن وإنما يشرب الشاى الأخضر ويلبس الساعة فى يده اليمنى على خلاف كل الناس!! وهذه الأمور ليست بجديدة عنده بل بدأت معه منذ الصغر!!

كانت هذه بعض ملامح الصورة لا كل الصورة!!

■■

وقبل سنوات قليلة كان السادات قد وجد نفسه مفصولاً من الجيش!!

فى تلك الأيام أيضاً كانت قد تكونت أول خلية للعمل السرى، وكان من بين أعضائها «عبد اللطيف البغدادى ووجيه أباظة والسادات وحسن عزت، وظل السادات هارباً لفترة طويلة».

ظل «حسن عزت» يبحث عن السادات حتى علم أنه مريض بمستشفى قصر العينى وأن إدارة المعتقل أساءت معاملته وقام أحد الضباط بالاعتداء عليه وعلى المعتقلين بألفاظ نابية!

وصمم حسن عزت على الانتقام من هذا الضابط الذى علم أنه يسكن بالجيزة فانتظره بأحد المطاعم واستدرجه للسير معه ثم ضربه علقة ساخنة!

وتنكر «حسن عزت» على شكل أحد المعلمين وأطلق على نفسه اسم «المعلم إبراهيم بهجت» وتمكن من مقابلة السادات فى المستشفى خلسة واتفقا على خطة الهرب ويقول حسن عزت فى مذكراته:

«لم نضيع الوقت هذه المرة وتنكر «أنور» فى زى أحد الشيالين ولبس «أفرولاً» قذراً وصندلاً وسمى نفسه «محمد نور الدين الشيال». وهكذا وتحت هاتين الشخصيتين: المعلم إبراهيم بهجت المقاول، ومحمد نور الدين الشيال انطلقنا للحياة والحرية وأنقذنا ما يمكن إنقاذه من تجارتنا التى أوشكت على الضياع.

افتتحنا مكتباً للمقاولات بشارع سكة المناخ يتألف من حجرتين الخارجية لأنور، والداخلية لى، وأحضر فراشاً مفتول الساعدين على الباب الخارجى كان عليه ألا يدخل أحداً قبل إخطارنا!

وذات يوم حضر «إمام ابراهيم» رئيس القلم السياسى لزيارتنا بناء على وشاية أحد المعارف وتحايل على الفراش وقال له إنه قريب «أنور» وأنه حضر لزيارته!!

وفوجئت بأنور يدخل غرفتى ومعه إمام إبراهيم وقال لى أنور:

● يا أخى إمام إبراهيم بيحلف بشرفه أن كلها شهر والمعتقلات تتلغى وعاوزنا نرجع المعتقل!!

واندهشت لكلام أنور فقد كان طيب القلب ولهذا يصدق الناس بسرعة!!

ثم يروى حسن عزت كيف هدد «إبراهيم إمام » بالمسدس وتمكن من الهرب هو والسادات وكما يقول «كانت الأمطار فى تلك الليلة شديدة واستمرت ثلاثة أيام فقطعنا الطريق من إمبابة إلى البراجيل الذى لا يزيد عن عشرة كيلو مترات فى عشر ساعات، ولم تسر العربة بقوة الموتور ولكن بقوة دفع أرجل «أنور» وأذرعته فقد كانت تغرس فى الأرض طوال الطريق ويتوقف محركها فينزل «أنور» يدفعها حتى تدور.

وابتداء من هذه اللحظة سيشهد أنور السادات أياماً «سودة» لكن إرادته الحديدية قهرت الفقر والجوع واليأس والذل والمهانة، وأترك «حسن عزت» يروى بعض ملامح رحلة الشقاء والعذاب فيقول:

«عملنا على خط مصر بورسعيد فى نقل الطرود لحساب الجيش البريطانى والصليب الأحمر، أنا كسواق على العربة وصاحبها وأنور كشيال».

وذات يوم فى بورسعيد انشغل أنور بتحميل السيارة بالطرود الثقيلة فكان يحمل الطرد على ظهره فى ذلك اليوم الحار وهو يلهث من الألم ثم يعتدل قليلاً صاعداً إلى ظهر السيارة فوق أحد السقايل، وكنت أجلس فى الظل أشرب شاياً وأنظر إليه أراقبه بابتسامة خبيثة وهو يصر على أسنانه وإمعاناً فى إثارته قلت له:

- ياواد يامحمد.. اجرى هات شيشة لحسن الواحد دماغه فاضية!!

ونظر السادات نظرة عتاب وخشونة وقال: حاضر يامعلمى!!

لقد كان على السادات - كما يقول حسن عزت - أن يمثل دوره كشيال ببراعة ودقة، وبعد أن فرغ السادات من تحميل العربة أعطاه حسن عزت جنيهين وقال له:

- ياواد يامحمد الجنيهين دول اجرى عبى العربية بنزين وهاتها عشان نتوكل!!

وانطلق «السادات» بالسيارة محملة وملأها بالبنزين وعاد بعد قليل وكان يجره من قفاه كونستابل، وخشى حسن عزت أن يكون السادات قد وقع فى أيدى البوليس وانكشف أمرهما، لكنه لاحظ أن الكونستابل يرتدى برنيطة المرور، واقترب الكونستابل من حسن عزت قائلاً:

- «يامعلم الواد ده مش هيجيبها البر، دى تانى مرة أضبطه سايق العربية من غير رخصة، وهو اسود الكلب فاكر نفسه فى نيجيريا وإلا إيه»(!!!).

يقول حسن عزت: «اطمأن قلبى لأن المسألة لا تعدو مخالفة بسيطة وقلت إن الفرصة سانحة لضرب أنور علقة ساخنة وأن أمزح معه مزاحاً ثقيلاً فقمت إليه

وأمكسته من تلابيبه عند رقبته وفاجأته بقلم ساخن على وجهه واتبعته بثان وثالث ورابع فإذا دافع عن وجهه رفصته فى بطنه وأعود لصفعه على وجهه أليس هو الشيال وأنا صاحب العربة (!!!)

وأحمر وجه أنور من الصفع وهو يصيح:

- الله.. يامعلم مش كده يا معلم!

لكن «حسن عزت» استمر فى الضرب وهو يقول للسادات:

▪ «انت مش ناوى تجيبها البر.. انت مش حاتستريح إلا ما تودينى السجن، وادى آخر ربايتى»!.

وكان السباب يوجع أنور، وسر الكونستابل من ضرب أنور وقال:

- بزيادة بقى يامعلم لاحسن إيدك تقيلة عليه!

ووضع حسن عزت يده فى جيبه وأخرج ورقة بخمسة وعشرين قرشاً وضعها فى يد الكونستابل وهو يقول له:

▪ «إحنا مالناش بركة إلا انت ياحضرة الصول وعلى الله العلقة دى تربيه»!

وقبض الصول المبلغ بابتسامة وتظاهر بالخجل وقال:

- «خللى يامعلم، احنا محاسيبك من غير حاجة»!

ثم نظر إلى أنور السادات وقال:

- «صحيح لا تشترى العبد إلا والعصا معه»!

وحسب شهادة «حسن عزت» فإن السادات كظم غيظه وفى المساء وبعد العودة إلى اللوكاندة رد السادات العلقة لحسن عزت بأحسن منها!!

وهكذا سار السادات فى طريق الأشواك بإرادة لا تلين، وعزم لا يفتر. وصعوبات لا تنتهى، وفقر لا يبدو أنه سيرحل أبداً عنه!

وبعد فترة - كما يقول حسن عزت - رسا علينا عطاء لإنشاء طريق بين شركة بورتلاند ومدينة حلوان، وأقمنا معسكراً من خيام واستحضرنا عربات وعمال وبدأنا العمل.. وفى الليل نتوجه إلى حلوان لنأكل ولم نجد أرخص وأدسم من محل لبيع الكرشة ولحمة الرأس تملكه امرأة فى العقد الثالث اسمها المعلمة «زكية» فكنا نذهب مع عمالنا إلى المسمط الذى كانت تديره ببراعة.

كنت أجلس على ترابيزة وحدى وكان «أنور» يجلس على رأس العمال أو قريباً منى تأدباً، ولاحظت أن المعلمة زكية ترعانى رعاية خاصة، فإذا طلبت نصف لسان، أحضرت لى لساناً كاملاً وإذا بلغ حسابى عشرين قرشاً قالت لى اللى تدفعه فإذا ألححت قالت: ستة صاغ بس!

ويعترف «حسن عزت» بأن مشاغبات «الست زكية» له زادت عن حدها وكانت تقول له: يامقطقط ياصغير.. وعندما يلتفت إليها تتظاهر بأن الكلام ليس موجهاً له، لكن على ما يبدو فإن «الست زكية» كانت قد رسمت خطة لغزو قلب حسن عزت، الذى كان وقتها فى الثالثة والعشرين من عمره ويرتدى جلباباً من الصوف وصديرياً حريرياً وكوفية ويضع بعض الخواتم الذهبية فى أصابعه، ويقول «حسن عزت»:

«ذات يوم بعد أن أكلنا وخرجت احتجزت المعلمة «أنور» لتقول له:

- ياواد يامحمد ما تتلحلح أنت ما بتشوفش واللا إيه؟!

ووضعت فى يد السادات جنيه وأردفت تقول:

- «خليك مع المعلمة وانت تكسب، والله لاعملك سيد السواقين وتنبسط»!!

فقال أنور السادات مستعبطاً:

● فيه إيه يامعلمة أنا محسوبك؟!

فقالت له: انت عبيط ولا بتستعبط، ولا حتعمل زى معلمك إنك مش واخد بالك، أنا على فكرة خطبنى ناس كتير ومعلمين بشنبات يقف عليها الصقر ورفضت لكن معلمك عجبنى أصله مقطقط وصغير، وعلى فكرة أنا برضه عاجباه بس هو ابن حرام ولئيم ومش عاوز يورى.. لكن صفار الحب باين فى عينيه!!

وفهم السادات سر الحنية فقال لها:

● أنا حاعمل إيه يا معلمة؟

فقالت له: اتلحلح وكلمه، ده أنا عندى بيت ملك، غير المسمط وشريكة فى نصف بيت، ويوم ما يكتب حاادندشك وأفرفشك وأعملك سيد السواقين، ويتوب عليك ربنا من الشغلة اللى انت فيها دى.. اتلحلح وخليك مع معلتمك.. فهمت؟!

وينهى «حسن عزت» القصة فيقول:

«لحق «أنور» بى مغرقاً فى الضحك وأرانى الجنيه ثمن وساطته فى غراميات المعلم إبراهيم بهجت، ولم أكن لأستطيع أن أجارى زكية فقد كان البوليس جاداً فى القبض علىّ».

إن هذه القصص الإنسانية المثيرة التى تعرض لها السادات فى سنوات الفقر والبهدلة رواها «حسن عزت» - ليس بعد وفاة السادات كما سوف يظن البعض - بل رواها بعد شهور قليلة من قيام الثورة فى كتابه المهم «أسرار معركة الحرية» وتصدر الكتاب بضعة كلمات كتبها زملاء ورفاق حسن عزت منهم الفريق «عزيز المصرى» وعبد اللطيف البغدادى وأحمد حسن الباقورى وفتحى رضوان وأنور السادات الذى كان عنوان كلمته «أخى فى الإرهاب» أما كلمة «خالد محيى الدين» فقد وصف فيها حسن عزت بقوله «استاذى فى الوطنية»!!

وبعد سنوات طويلة يشير «خالد محيى الدين» فى مذكراته «والآن أتكلم» إلى أن السطور التى كتبها عن «حسن عزت» ضايقت جمال عبد الناصر وأزعجته.

يقول «خالد محيى الدين»: إن تأثرى بحسن عزت كان حقيقياً فإليه أرجع الفضل فى إقناعى بضرورة الاشتغال بالسياسة دفاعاً عن مصالح الوطن، ولهذا فعندما طلب منى بعد الثورة أن أكتب مقدمة لكتابه قبلت بترحاب وقلت فى كلمتى صراحة «إن حسن عزت أستاذى فى الوطنية» وقد أغضبت هذه العبارة «جمال عبد الناصر» غضباً شديداً وقال لى:

■ «كيف تقول عن حسن عزت إنه استاذك فى الوطنية وهو مشكوك فى مواقفه منا»؟!

فقلت له: هذه مسألة أخرى قد نختلف معه الآن وقد يختلف معنا لكنه فعلاً أول من أقنعنى بضرورة العمل السياسى!

وعاد «عبد الناصر» ليقول غاضباً:

■ «لا يليق بعضو مجلس قيادة الثورة أن يعطى التعظيم لواحد مختلف معنا»!!

وعدت لأقول:

- «أنا أقرر حقيقة وأنا لا أنسى فضله علىّ رغم اختلافنا معاً الآن».

■■

فى منتصف الأربعينيات بالضبط تعرف «محمد إبراهيم كامل» الذى أصبح فيما بعد وزيراً للخارجية، على أنور السادات!

كان إبراهيم كامل وقتها طالباً فى كلية الحقوق، وفى عام ١٩٤٣ شارك مع مجموعة من أقاربه وأصدقائه الشبان فى تكوين جمعية سرية تستهدف القيام بعمليات ضد القوات البريطانية التى تجوب شوارع القاهرة.

فى نفس الوقت كانت هناك جمعية أخرى تقوم بنشاط مشابه، وتم الاتفاق على أن يكون هناك قيام تعاون أو تنسيق بين الجمعيتين. وتحدد موعد لقاء ممثلى الجمعيتين فى أحد المقاهى الكائنة بميدان الأوبرا، ويقول «إبراهيم كامل»:

- «قابلنا أنا وحسين توفيق، عمر أبو على (عضو الجمعية الأخرى) الذى قدم لنا شاباً كان يرافقه، لفت نظرى أنه كان يكبرنا فى السن، كان أسمر اللون ممشوق القوام ذا شارب ضخم وصوت أجش عميق النبرات، إلا أنه كان يلبس ثياباً غريبة، إذ كان يرتدى بدلة رمادية داكنة، وتحتها صديرى فاتح اللون به مربعات حمراء وربطة عنق فاقعة اللون وحذاء أبيض، وقدمه لنا «عمر أبو على» باسم «أنور السادات».

استمر اللقاء حوالى ساعة ونصف ساعة تبادلوا فيها الحديث عن أوضاع البلد «وأفهمنا السادات بطريقة غير مباشرة أنه ينتمى إلى جمعية من رجال القوات المسلحة وأنه كان يوزباشى بالجيش وأحيل إلى التقاعد للشك فى ميوله المتعاطفة مع الألمان، وأنه يعمل الآن فى المقاولات والنقل».

ويعترف «إبراهيم كامل» قائلاً:

- «أدخل السادات على تفكيرنا تعديلاً لم يكن وارداً وهو أن الطريقة الفعالة لتحقيق أهدافنا هى القضاء على الزعماء المصريين المتعاونين مع الإنجليز وأننا إذا تمكنا من اغتيال عدد منهم فسيأتى اليوم الذى لن يجد فيه الإنجليز مصرياً واحداً يتعاون معهم فى حكم البلاد».

وهكذا جرت محاولة فاشلة لاغتيال «مصطفى النحاس» زعيم الوفد، ومحاولة ناجحة اغتيل فيها الوزير الوفدى «أمين عثمان» وتم القبض على أغلب أعضاء الجماعتين، ويضيف «إبراهيم كامل»:

كان إنكارى أى صلة لى بالجماعة، وبالتالى إنكارى لمعرفتى بأنور السادات من أهم العوامل التى ساعدت على تبرئته فى تلك القضية، قدر لى السادات موقفى هذا، وبعد أن نقلنا إلى سجن مصر العمومى توطدت بيننا الصداقة أثناء ساعات طابور الفسحة التى كان يسمح لنا بها لمدة ساعة فى الصباح وأخرى فى المساء للتريض والمشى.

كان والدى يعمل نائباً لرئيس محكمة الاستئناف، وكان يتمتع بشخصية قوية ومحبوبة فى أوساط القضاء والنيابة العامة وقد كفل لى ذلك بعض الامتيازات. فكان يسمح لى بأن أتلقى الطعام من منزلى، فكانت والدتى ترسل لى طعاماً يكفينى والعديد من زملائى فى القضية، حيث كنت أقوم بتوزيعه بيننا بالعدل».

ورغم مرور أكثر من ٤٠ سنة على هذه الذكريات إلا أنّ «إبراهيم كامل» فى حسم وثقة لا تقبل الجدل أو الشك يؤكد:

«كان أنور السادات شغوفاً بالطعام، وكثيراً ما كان يطلب منى أن أبلغ والدتى بإعداد أصناف معينة مثل طواجن الحمام بالأرز، ومن ناحية أخرى حصل لى والدى على تصريح بعلاج أسنانى خارج السجن، فكنت أخرج مرتين أسبوعياً مصحوباً بحراسة إلى عيادة الطبيب حيث ألتقى بأفراد عائلتى وأعود بعد ساعتين محملاً بعلب السجاير والحلوى، ورغم أن ذلك كان ممنوعاً إلا أننى كنت أحدد مواعيد ذهابى للطبيب فى الأيام التى كانت تتولى إدارة السجن «نوباتشية» مجموعة من الضباط تربطهم صداقة بالسادات، فكانوا يسمحون لى بالدخول بما أحمله من مهربات».

كانت هذه بعض ملامح الصورة، لا كل الصورة!!

■■

وفى معتقل الزيتون أيضاً شاهد «موسى صبرى» عن قرب «أنور السادات»!

كان البوليس السياسى قد قبض على موسى صبرى.. فى نفس اليوم الذى كان مفروضاً فيه أن يحلف اليمين القانونية أمام النائب العام!!

كان بحوزة موسى صبرى عند القبض عليه منشورات ونسخة من الكتاب الأسود الذى أصدره الزعيم «مكرم عبيد» يهاجم فيه النحاس باشا رئيس الوفد ويحكى تفاصيل فضائح وفساد حزب الوفد!!

كان المعتقل مليئاً بكل ألوان وأشكال المعتقلين، ومنهم من أصبحوا فيما بعد أسماء لامعة مهمة، وعلى رأسهم الكاتب الصحفى جلال الدين الحمامصى، الذى اشترك فى إصدار «الكتاب الأسود».

والآن نقترب من شخصية «أنور السادات» وكما رسمها بقلمه وحدد ملامحها «موسى صبرى» حيث يقول:

«لفت نظرى شاب أسمر اللون هادئ الحركة، كثير التأمل، يفضل الوحدة كثيراً والجلوس فى الحديقة متأملاً سارحاً ببصره فى الخيال وهو يرتدى قميصاً وبنطلوناً من اللون الكاكى» ومع هذا الملبس البسيط فإنه أنيق ونظيف!

وكنت أراه معظم الوقت مع جلال الدين الحمامصى، وكان له بين الجميع توقير خاص ومهابة رغم مظهره المتواضع!

وعرفت أن اسمه «أنور السادات»!!

ما قصته؟ ولماذا اعتقل؟

سمعت همساً كثيراً وروايات عديدة عنه!!

إنه بطل وطنى وهو خطير، لقد فصلوه من الجيش وكان برتبة اليوزباشى وله قصة لا أحد يعرف سرها وحقيقتها، لقد كان يدبر عملاً ضخماً للاتصال بهتلر، وكان يعاونه شاب اسمه «حسن جعفر» وهو معتقل أيضاً، إنه أحمر الوجه أخضر العينين أصفر الشعر، يتحدث العربية بلكنة مضحكة، إن والده مستشار مصرى ووالدته ألمانية، ونشأ فى ألمانيا، وقبض عليه فى القاهرة فى قضية أنور السادات!!

ومن أيضاً؟! الطيار «حسن عزت» إنه أيضاً بطل قصة خطيرة فى سلاح الطيران المصرى لا نعرف تفصيلاتها، وكان «حسن عزت» رغم التصاقه بأنور السادات مختلفاً تماماً عنه!

السادات هادئ صامت، وحسن عزت حركة مستمرة وفم لا يتوقف عن الكلام.

واندمج «موسى صبرى» فى حياة المعتقل، الذى كان برنامجه كما يلى:

«الاستيقاظ مبكراً، قراءة الصحف، المناقشات السياسية المفتوحة فى كل غرف المعتقل، ثم السهرة فى المساء فى غرفة رشيد النحال (زعيم شباب حزب الأحرار الدستوريين) وكان حلو الصوت، وكان يغنى أغنيات أسمهان، وكان أنور السادات يجلس متربعاً، يهزه الطرب لأغانى أسمهان بالذات!

وكنا نشارك فى زراعة الخضر بحديقة المعتقل، وكنا نلهو ونضحك ويزداد تعارفنا على تعاقب الأيام.

ووجدتنى أسعى إلى التعرف على هذا الضابط الأسمر المفصول أنور السادات. إنه مستمع جيد كلامه قليل، وتعليقه الغالب على ما يسمع هو إيماءة من رأسه، يقول بعدها بصوته العميق «صح.. صح» ولست أدرى لماذا كانوا يطلقون عليه اسم «الحاج»، صباح الخير ياحاج! إزيك ياحاج!!

■■

ويعترف «موسى صبرى» بأنه لم يدخل مع السادات أيامها فى مناقشات طويلة إلا مرة واحدة وكانت عن ثورة عرابى، وقد صحح السادات له فى هذه المناقشة تواريخ تتابع الأحداث:

ويكمل «موسى صبرى» قائلاً:

«وأمضيت فى المعتقل على هذا النحو حوالى ستة أشهر، وكنت أتلقى الرسائل من أسرتى بعد أن تفتح من إدارة المعتقل، وكنت أرد على هذه الرسائل بخطابات تتسلمها الإدارة، ولكن أنور السادات ابتكر وسائل عديدة لتهريب الرسائل كان أهمها حلاق المعتقل، وكان يجىء للحلاقة على «بسكليته» وكان سمحاً وتدرجت علاقته بالمعتقلين إلى حد أنهم كانوا يكلفونه «بمشاوير» خاصة كان يؤديها ثم أصبح يهرب الرسائل بوضعها فى قدمه تحت الشراب!!

وذات يوم طلب «الحمامصى» من «موسى صبرى» أن يأتى إليه فى غرفته لأمر هام، وعندما وصل موسى إلى الغرفة، قام «الحمامصى» بإغلاق الباب بالمفتاح ثم

أفضى لموسى بسر خطير وطلب منه إلا يبوح به لأى إنسان، وكان السر هو خطة محكمة لهرب بعض المعتقلين ليساندوا الاستجواب المقدم من النائب إبراهيم دسوقى أباظة (حزب الأحرار الدستوريين) عن سوء معاملة المعتقلين السياسيين، وشرح الحماصى لموسى صبرى التخطيط الكامل للهرب وكما تدارسه مع السادات فقال:

إن خطة الهرب وضعها السادات وهو الذى سيحدد موعد الهرب، الذى هو دليل على أن المعتقلين يعاملون معاملة سيئة، وإلا لما أقدموا على هذه المجازفة التى يمكن أن تعرضهم للموت فى حالة فشلها.

ثم أعطى «جلال الحمامصى» لموسى صبرى عدداً من الخطابات المكتوبة بداخل أظرفها وقال له:

«سيكون من مسئوليتك أن تضع هذه الخطابات فى صندوق بريد بعد الهرب والخطابات بصيغة واحدة تقريباً، وهى موجهة إلى رئيس الحكومة ورئيس مجلس النواب والسفير البريطانى وعدد من المسئولين، وخطاب منها موجه إلى «مكرم» باشا، والخطاب مذكور فيه أن عدداً من المعتقلين قد قرر الهرب مدركين أن ذلك سيعرضهم للقتل وأنهم سيختارون مواقع سرية لاختفائهم بعد الهرب وأنهم سوف يضربون عن الطعام حتى الموت فى أماكن الاختفاء، وسوف يوافون الحكومة بتقارير منتظمة عن حالتهم الصحية وسوف لا يعدلون عن الإضراب إلا إذا أعلنت الحكومة إلغاء الأحكام العرفية والإفراج عن المعتقلين».

وبعد أن تسلم «موسى صبرى» الخطابات من «الحمامصى» قام بإخفائها فى مكان أمين بحجرته ثم توجه إلى الحجرة التى كان يقيم فيها «السادات» مع آخرين وعلى انفراد أخذ السادات يروى لموسى خطة الهرب قائلاً:

- «لقد اختارك جلال الحمامصى ممثلاً عن الشباب فى الهرب ووافقت على هذا الاختيار، سوف نهرب من حجرة الأرانب، لا أحد من الحرس يشك فى أى معتقل يدخل هذه الحجرة لأنه معروف أن «المعتقل الروسى الأبيض» يربى فيه الأرانب منذ زمن طويل، وهو المكان الوحيد الذى يصلح للهرب لأسباب عديدة،

لأنها ملاصقة لغرفة تغيير نوبات الحراسة، وهذا التغيير وتسلم البنادق يستغرق عشر دقائق أو أكثر كل ست ساعات ويصاحبه هرج ومرج وأحداث، وخلال هذه الدقائق كل يوم سوف نتمكن من إحداث حفرة على شكل دائرة تتسع لجسم إنسان فى سقف الحجرة، ولدينا سلم حجرة الأرانب سنحتاج إلى بريمة لخرم السقف وسنأخذها من المعتقل اليوغوسلافى، وسأقوم أنا «وحسن عزت» بمهمة «تقويز السقف»!

وراح «السادات» يشرح «لموسى صبرى» باقى خطة الهرب فقال له:

«فى الموعد المحدد للهرب، سندخل فرادى إلى حجرة الأرانب، خذ معك غياراً واحداً فقط.. ورأيى أن تدخل إلى الحجرة دخولاً طبيعياً دون أن يلحظه أحد، عندئذ سنصعد على السلم حتى نصل إلى القطعة المقورة من السقف ستخرج بنصف جسدك ثم تميل بهذا النصف حتى تلتصق بالسقف وتزحف بعد ذلك حتى تخرج باقى جسدك لتصل إلى ما فوق الحائط الذى يفصل بين حجرة الأرانب وحجرة السلاح.. الزحف هنا لن يحدث صوتاً لأنه ليس ثمة فراغ.. ستصل بالزحف إلى السور الخارجى.. هذا السور ليس عليه حراسة من الخارج لأنه يؤدى إلى حديقة القصر المجاور، ستقفز إلى سور هذه الحديقة ثم قفزة أخرى إلى الأرض وهى فضاء على ناصية القصر، ستكون هناك سيارة فى انتظارنا فى الموعد المحدد».

وبعد أن انتهى السادات من كلامه طلب منه أن يلتقيا فى يوم آخر لكى يدربه على طريقة الزحف، وشرح له السادات الطريقة بأن تكون على الكوعين. والركبتين، لأن هذه الطريقة لا تحدث صوتاً على الإطلاق، وقام بتدريبه فعلاً.

وبعد يومين أو ثلاثة – كما يقول موسى صبرى – استدعاه السادات وقال له:

«لقد أكملنا حفر السقف، وبقى أن نضع لوحاً من خشب الأبلاكاش لنغطى الفجوة فى السقف.. بحيث إذا رأى أحد السقف من أحد الأدوار العلوية من مبنى المعتقل فأنه لن يلاحظ شيئاً، وسنضع هذا اللوح الخشبى غداً عند الظهر، وعليك أن تصعد إلى سقف المعتقل وتراقب العملية حتى تنتهى وحتى تطمئن إلى أن وضع اللوح الخشبى يخفى الحفرة تماماً ولن يلاحظها أحد!

ويكمل موسى صبرى ما جرى بعدها فيقول:

وفعلاً تم ذلك واستغرقت عملية الحفر بضعة أيام.. كان السادات يمسك بالسلم ليصعد «حسن عزت» ويجرى بالبريمة عملية الحفر، وكان التراب ينهال عليهما، ثم كانا يتبادلان الإمساك بالسلم والحفر وكل ذلك يتم فى بضع دقائق كل ست ساعات هى دقائق تغيير الحراسة.

وبعدها أخطرنى أنور السادات بساعة الصفر وقال:

– بعد يومين.. عند آخر ضوء والليلة غير قمرية!!

ونجحت الخطة، ولكن كانت هناك مفاجأة مؤسفة تنتظرهم جميعاً حيث انفجرت عجلات السيارة التى كانت تنتظرهم ولا يوجد «ستبن» فقال السادات لهم:

– كلنا سنغادر السيارة على الفور وعلى كل واحد أن يتصرف بمفرده!!.»

وكان هذا ما حدث بالفعل لشلة الهاربين من المعتقل!

■■

كان اغتيال الوزير الوفدى «أمين عثمان» مساء السبت الخامس من يناير ١٩٤٦ بمثابة عاصفة سياسية لم تهدأ زوابعها حتى اليوم!!

شاءت الصدفة التاريخية أن يكون ضمن المتهمين الشاب «محمد أنور السادات» والذى تشاء نفس الصدفة أيضاً أن يكون ثالث رئيس لمصر، وأن تتصل مدة رئاسته ١١ عاماً، ولم يسلم «السادات» – وحتى الآن – من شظايا ورذاذ القيل والقال لاشتراكه فى اغتيال «أمين عثمان»!

كان «أمين عثمان» هو رجل بريطانيا داخل حزب الوفد، وكان مايسترو ومهندس حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ والذى تولى بمقتضاه «مصطفى النحاس» زعيم حزب الوفد رئاسة الوزراء بعد حصار قصر عابدين بواسطة الدبابات الإنجليزية!!

كان حادث ٤ فبراير ببساطة لطمة على وجه مصر من كل الوجوه، مما دفع اللواء «محمد نجيب» لتقديم استقالته احتجاجاً، وكتب فى الاستقالة «حيث إنى لم أستطع أن أحمى مليكى وقت الخطر فإنى لأخجل من ارتداء بذلتى العسكرية والسير بها بين المواطنين».

ومن العلمين حيث كان «جمال عبد الناصر» كتب لصديق له يتساءل: ترى ماذا نحن فاعلون بعد هذا الحادث التعيس الذى تقبلناه بتسليم قوامه الخنوع والمهانة الحقيقية».

وكان إحساس «خالد محيى الدين» وقتها بأن ما جرى إهانة لمصر وللملك وللجيش.

ويصل الأمر «بعبد اللطيف البغدادى» أنه تقدم أثناء اجتماع الضباط بناديهم لمناقشة الموقف أنه تقدم باقتراح عمل خلايا سرية من ضباط الجيش تكون مهمتها قتل كل سياسى ينحرف أو يخون البلاد.

ولم يكن «السادات» غائباً عما يجرى من هذه الأفكار فقد كان غارقاً لشوشته فى العمل السياسى - كما يراه بعقل شاب لم يتجاوز ٢٤ سنة - وهكذا جاء اتصاله بالألمان فى تلك الفترة تم فصله من الجيش واعتقاله. وكان ذلك بعد ٨ شهور فقط من حادث ٤ فبراير!!

كان السادات وقتها متزوجاً من السيدة «إقبال ماضى» ابنة عمدة ميت أبو الكوم، ومنها أنجب ابنته الأولى «رقية» (فى ٦ سبتمبر ١٩٤١).

وانزعج والد السادات لدى سماعه باعتقال ابنه واتهامه بالاتصال بالنازى، وذهب لمقابلة اللواء محمد نجيب صديقه وجاره منذ سنوات ويقول نجيب فى مذكراته:

«أنا أعرف والد السادات، كان صديقاً وجاراً لى فى الخرطوم بحرى، أعرفه من قبل أن يولد «أنور»، أما أنور نفسه فلم أعرفه إلا فى اللواء الرابع حيث كنت أنا القائد، وكان هو ضابط الإشارة وكان أنور يتمتع بروح الدعابة، ويميل إلى تقليد الممثلين، وقد قلد أمامى ذات مرة «نجيب الريحانى»!! وقال لى والد السادات: الحقنى ابنى قبضوا عليه!

فطمأنته وكتبت مذكرة رفعتها إلى إبراهيم عطا الله قلت فيها إنه حتى لو ثبتت تهمة التجسس ضده - أى ضد السادات - فإنها تهمة ليست ضد مصر، وإنما ضد عدوتنا بريطانيا لصالح الألمان، ورفض عطا الله مذكرتى فهددت بالاستقالة من منصبى كنائب أحكام إذا ما حوكم، لأننى سأعتبر نفسى مقصراً فى عملى، فاكتفوا بطرده من الجيش».

ولم يكن «السادات» وحده فى ذلك الوقت الذى بادر بالاتصال بالألمان وتعاون معهم نكاية فى الإنجليز، بل كان هناك قطاع عريض من المصريين، وعلى رأسهم الملك فاروق يتعاطفون مع الألمان ويتمنون فوز هتلر وسحقه للإنجليز!!

وحسب ما يقول د. محسن عبد الخالق (من الضباط الأحرار) «كان الملك ضد الإنجليز، ومصر كلها ضد الإنجليز، وكثير من المصريين كانوا يتمنون انتصار المحور، كما كان «عزيز المصرى» محوراً التف حوله جمهرة من الشباب المثقف الوطنى وشباب الضباط.. حسين ذو الفقار صبرى.. حسن إبراهيم.. المرحوم الطيار أحمد سعودى، وكان من هؤلاء أنور السادات وكان اشتراكه فى الحركة الوطنية ومدخله إليها هى كراهيته للإنجليز ومناصرته ألمانيا والإعجاب بها... إلخ.

وتركزت عاطفة أنور السادات الوطنية فى أمرين.. كراهية الوفد وكراهية الإنجليز، وقتل أمين عثمان وهو رمز الكراهيتين. الوفد والإنجليز، وقام يوسف رشاد (مؤسس الحرس الحديدى) بتوكيل محام «زهير جرانة» عن أنور ودفع له مبلغ خمسين جنيهاً وهو مبلغ كبير جداً فى ذلك الوقت!!

وهكذا اغتيل «أمين عثمان» وبلغ عدد الذين اتهموا فى حادث اغتياله ٢٦ متهماً أصبح أغلبهم فيما بعد أسماء لامعة ومشهورة فى الحياة مثل أنور السادات، محمد إبراهيم كامل، وسيم خالد، عبد العزيز خميس.

كان «السادات» أكبر المتهمين سناً وقالت عنه النيابة فى ذلك الوقت «عمره ٢٧ سنة».. كان فى مدرسة الجامعة الابتدائية بالزيتون ثم فؤاد الأول الثانوية ثم الكلية الحربية، وتخرج والتحق بالجيش، ثم فصل من عمله فى سنة ١٩٤٢ ثم اعتقل فى معتقل الزيتون وتمكن من الهرب، واتهمته النيابة بالاشتراك فى قتل «النحاس» باشا، والاتفاق الجنائى على قتل أمين عثمان والجنود البريطانيين.

لكن ما لم تنشره الصحف فى ذلك الوقت وسجله اللورد كيلرن السفير البريطانى فى تقرير له بعث به إلى الخارجية البريطانية بتاريخ ١٦ يناير ١٩٤٦ هو قوله:

«أوردت التقارير أن ضابطين مصريين، كانا قد فصلا من الجيش والطيران المصرى بسبب اتصالهما بالألمان عام ١٩٤٣ (السادات وحسن عزت) ألقى القبض عليهما أيضاً».

وكتب لورد كيلرن يقول أيضاً: «بوفاة «أمين عثمان» فقد «الوفد» رسوله إلى السفارة، وفقد الإنجليز رجلاً مهمته دفع «النحاس» إلى الاعتدال».

وليس سراً أن أمين عثمان قدم بنفسه حيثيات ومبررات قوية دفعت وحرضت على اغتياله بعد قليل، فبعد دوره المعروف فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، كان أمين عثمان من خريجى كلية فيكتوريا التى كانت تجذب المصريين بإيجاد الصلات بينهم وبين الإنجليز كما كان متزوجاً من السيدة «كيتى» امرأة لطيفة وخفيفة الدم وكان السفير الإنجليزى يجد فى نكتتها القومية متعة!!

لكن الأخطر من كل ذلك هو تلك المقولة الشهيرة لأمين عثمان ومؤداها أن «ما بين مصر وبريطانيا زواج كاثوليكى - أى لا طلاق فيه إطلاقاً» ثم تفسيره لهذه المقولة: «نحن نؤمن بزواج الحب ولعل بعضنا يغضب لأنى شبهت مصر بامرأة وإنجلترا برجل، ولكننى أفضل هذا التشبيه فالمرأة دائماً تأخذ من الرجل خير ما عنده»!

وعندما كان أمين عثمان يجد أخطاء للإنجليز كان يخترع المبررات ليدافع عنهم فيقول: «إننا نذكر أعمالكم فى مصر بالخير، وصحيح أنكم ارتكبتم أخطاء ولكن جل من لا يخطئ».

وأثناء المحاكمة قام المحامى «وهيب دوس» بك بسؤال النحاس باشا عن رأيه فى تلك الخطبة لأمين عثمان وتكلم فيها عن العلاقة الزوجية التى بين إنجلترا ومصر!!

وأجاب النحاس باشا بأنه قرأ تلك الخطبة وأنه معجب بتشبيه أمين باشا(!!).

وقال أنور السادات: إن كل ما ورد فى التحقيقات باطل ومن تلفيق البوليس، وأما عن النيابة فلا يدرى إن كانت على علم بهذا التلفيق أم لا؟!

وطالب «زهير جرانة» محامى السادات سماع شهادة جلال الدين الحمامصى رئيس تحرير جريدة «الزمان».. وآخرين!!

شهادة الأستاذ الحمامصى كانت فى يوم ١٠ يناير ١٩٤٧، وحسب ما سجلها كتاب المحاكمة الكبرى فى قضية الاغتيالات السياسية الذى صدر عام ١٩٤٨ تقول:

«استدعى الأستاذ جلال الحمامصى رئيس تحرير الزمان وقد دارت مناقشة حول علاقته بأنور السادات، ومما قاله إنه كان معتقلاً معه فى معتقل الزيتون سنة ١٩٤٣ وسنة ١٩٤٤ وإنه بعد خروج الشاهد من المعتقل اتصل به هذا المتهم خلال سنة ١٩٤٥ طالباً استئجار بعض سيارات النقل لاستعماله الشخصى!!

ثم أجاب الشاهد عن سؤال للدكتور جرانة أن أنور السادات كان يزوره فى جريدة الكتلة فى أحد الأيام وفى أثناء وجوده معه دخل سكرتير تحرير الجريدة وأنبأ الشاهد (الحمامصى) محاولة اغتيال رفعة النحاس باشا. ولم يستطع الشاهد تحديد وقت حضور «أنور» وانصرافه فى ذلك اليوم وإنما يذكر أن حضوره كان قبل الغروب بمدة طويلة، وأنه بعد وصوله بنحو ثلث ساعة تلقى النبأ من سكرتير التحرير.

وحسب ما سجله المؤلف «لطفى عثمان» (فى الكتاب السابق) فإن حسن أنور حبيب ممثل الاتهام استهل مرافعته (يومى ١٠ و١١ إبريل) بمقدمة سياسية كان لها أثر كبير فى نفوس المتهمين والجمهور، وكانت سبباً فى حضور النائب العام محمد منصور بك فى الجلسة التالية وحاول شطب هذه الكلمة من محضر الجلسة فهاج المتهمون والدفاع وثاروا .. وقال «أنور السادات» موجهاً الكلام للنائب العام:

- «إيه ده ياسعادة النائب... إزاى تقول الكلام ده.. أنور بك لم يرتجل ده كان بيقرأ فى ورقة ياسعادة النائب العام. إنك مصرى والجميع وعلى رأسهم رئيس الحكومة يرددون أمانى المصريين وهى وحدة وادى النيل والجلاء التام، والنقراشى باشا (رئيس الوزراء) قال فى مجلس الأمن إن الإنجليز لصوص وقراصنة فتأتى أنت لتسحب هذا الكلام.. يجب عليك أن تستقيل وتنزل عن الكرسى.. أنا أفضل أن أشنق ألف مرة على أن أرى النائب العام يتراجع ويقف هذا الموقف غير المشرف».

وكان من أهم ما جاء فى مرافعة «أنور حبيب» عن السادات قوله:

إن هذا المتهم كان حريصاً فلم يساهم فى هذه الجرائم مساهمة فعلية، وكفاه بأن دفع بأغرار إلى الجريمة ولا يهمه بعد ذلك أن يصيبهم مكروه طالما هو سليم أمين، فهو شخص من صفاته المكر والحذق والإغواء ومظهره يوحى بالثقة، وهو قوى الشخصية حتى ليحمل المرء على الوثوق فيه».

■■

كانت الأضواء كلها مسلطة على هذه القضية المثيرة، ولم ينافسها فى درجة الاهتمام والسخونة إلا وصول الملك «عبد العزيز آل سعود» ملك السعودية فى زيارة رسمية لمصر!

وخرج «أنور السادات» ليشاهد موكب استقبال الملك عبد العزيز الذى كان تحت حراسة مشددة، مما جعل السادات يعلق على هذه الحراسة «جعلتنى أضحك فنحن لا نفكر فى أن نصيب الملك عبد العزيز بأى أذى.. إن هدفنا أعداء مصر لا أصدقاءها».

ومر الموكب بسلام وعاد السادات إلى منزله وبعد منتصف الليل تم اعتقاله على يد وكيل النيابة «كامل القاويش» حيث ذهب به إلى سجن الأجانب!!

لم تكن هذه أول مرة يتم فيها اعتقال أنور السادات.. بل كان قد سبق اعتقاله قبل أربع سنوات. وعقب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢.

وفى المرتين كان السادات محط الأنظار، وفى قلب اهتمام الرأى العام والصحافة، وكانت الصدفة وحدها هى التى أدت لاعتقاله!! وكانت وراء هذه الصدفة حكاية مثيرة!!

روى السادات تلك القصة وكيفية اعتقاله فى مذكراته التى صدرت بعد عامين من قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتتصدرها مقدمة هامة للرئيس «جمال عبد الناصر».

قال السادات:

قام بهذ الحادث - اغتيال أمين عثمان تشكيل فدائى خارج الجيش، وكان متفقاً عند تقريره ألا يبوح القاتل إذا قبض عليه بأى شىء أو بأى اسم من أسماء إخوانه، وعندما قبض عليه (حسين توفيق) ظل مصراً على عدم الاعتراف حتى

استطاع كامل القاويش وكيل النيابة الذى تولى التحقيق أن يلعب بأعصابه بقصة مختلقة، وذهب القاويش إلى إحدى الصحف الكبيرة وأملى عليها خبراً مؤداه أن التحقيق أسفر عن وقوع الحادث لأسباب نسائية، وجعل الخبر تلميحاً إلى قيام صلة بين «أمين عثمان» وبين سيدة عزيزة جداً على القاتل «حسين توفيق».

وفى الصباح دعا «القاويش» القاتل إلى مكتبه وأطلعه على هذا الخبر، وجن جنون «حسين توفيق» لقد قتل أمين عثمان وفى يقينه أنه يعمل عملاً من أعمال البطولة الوطنية فكيف يقبل أن تذهب كل هذه البطولة هباء وأن تلوث أيضاً سمعة أسرته وسمعة أعز الناس عليه، وانفجر يعترف، يعترف بالجماعة التى دبرت هذا الحادث وأسماء أعضائها وأهدافهم ومكان اجتماعهم، وكنت بين من شملتهم اعترافات «حسين توفيق» فألقى القبض علىّ وشاركته واحداً وثلاثين شهراً.»

وطوال تلك الفترة لم تنقطع زوجة السادات السيدة «إقبال ماضى» عن زيارته سواء فى المعتقل أو فى السجن.

■■

وفى نفس الوقت أيضاً كانت هناك فتاة مصرية لم تكمل بعد عامها السادس عشر تتابع بشغف واهتمام ما تنشره الصحف عن هذه المحاكمة.

كان اسم الفتاة «چيهان رءوف صفوت» وبالمصادفة المحضة فقد كان «حسن عزت» صديق السادات هو ابن عمة چيهان السادات وكانت وقتها فى السويس حيث تقضى شهر رمضان!

كتبت چيهان السادات تقول: كانت الصحف تطالعنا كل يوم بصور الضابط أنور السادات بزعم أنه قائد المجموعة المتورطة فى حادث الاغتيال، لقد حرصت على قراءة كل كلمة وردت فيها.. فقد أصبح هذا الرجل متسلطاً على كل كيانى، وبينما كان أقرانى من الفتيات يبهرن بنجوم السينما والمغنين كان أنور السادات بطل كل أحلامى، وهكذا كنت أصلى من أجل سلامته، وفى يوم النطق بالحكم صليت: يارب إذا برأته المحكمة وأنقذت حياته فإننى أتعهد بأن أصوم شهراً آخر شكراً لك.

ولم تستطع چيهان الانتظار حتى يأتى حسن عزت زوج ابنة عمتها حاملاً الجرائد، بل اصطحبت الخادمة الصغيرة «سنية» لتصحبها إلى المدينة لشراء الصحف، وخطفت صحيفة من أول كشك قابلنى «براءة السادات» هكذا كان مانشيت الصفحة الأولى.

واشترت «چيهان» علبة شيكولاته لتحتفل بهذه المناسبة!!

وبعد عدة أسابيع فوجئت «چيهان» بأنور السادات يزورهم فى البيت وطلب منها «حسن عزت» أن تساعد زوجته فى إعداد وجبة سحور رمضان لهذا الضيف، ومن هول المفاجأة سقطت حبات المانجو التى كانت تمسك بها وتناثرت على الأرض!

وطالت المحاكمات.. حتى استغرقت سنة وسبعة أشهر وخمسة أيام، ترافع فيها ٣٥ محامياً وبلغ عدد صفحات محاضر المحاكمة ١٥٨٠ صفحة، بينما صدر الحكم فى ٤٩١ صفحة وأخيراً تمت تبرئة السادات فى جلسة ٢٤ يوليو ١٩٤٨.

■■

وبعد ستة أيام بالضبط فوجئت مصر كلها بمذكرات «أنور السادات» تنفرد بنشرها مجلة «المصور»!!

كان عنوان المذكرات «٣٠ شهراً فى السجن» وكان عنوان الحلقة الأولى «أيام وليال فى سجن مصر».

لكن الأغرب والأكثر إثارة هى المقدمة التى نشرتها المصور وهى تقدم السادات ومذكراته للقراء، فقد كتبت تقول: «اليوزباشى محمد أنور السادات» هو أحد المتهمين فى قضية الاغتيالات السياسية مع حسين توفيق وحكم ببراءته، وهو أقوى المتهمين شخصية وأكثرهم ثقافة وتجربة، وكان قد عكف أيام سجنه على تدوين مذكرات تصور الحياة داخل السجن أصدق تصوير وهذا هو الفصل الأول من تلك المذكرات التى سنوالى نشرها تباعاً».

وطوال شهر أغسطس ١٩٤٨ قرأ الناس هذه المذكرات للسادات !!

وحسب رواية مصدرها الكاتب الكبير «حلمى سلام»، ضمن حوار طويل لى معه، أنه كان صاحب فكرة أن يكتب السادات تلك المذكرات ويقول:

حكيت للأستاذ إميل زيدان اقتراحى للسادات فوافق، واتفقنا ألا ننشر تلك المذكرات إلا بعد النطق بالحكم فى القضية لأنه إذا أدين فمن الصعب النشر، أما إذا حكم عليه بالبراءة يبقى ننشر، فهى فى النهاية خبطة صحفية مثيرة وطريفة، وكان السادات يكتب هذه المذكرات حلقة بحلقة، وكنت أتسلم منه كل حلقة من خلال قفص الاتهام، وفى نفس الوقت يتسلم أجر الحلقة المتفق عليه، وهو عشرة جنيهات فى الحلقة الواحدة، أكثر من هذا أننى كتبت سطوراً أقدم فيها أنور السادات إلى القراء:

«على مدى عدة أسابيع تابع الناس فى مصر والعالم العربى مذكرات السادات، إنساناً، ومتمرداً... ومشاغباً، ومسجوناً... وهارباً !!



السادات:

٣٠ شهراً فى السجن !!

بقلم اليوزباشى / أنور السادات

قبل أن تقرأ هذه المذكرات :

عندما نشر أصحاب «دار الهلال» مذكرات «السادات» على صفحات مجلة «المصور»، لم ينشروها له لأنهم توقعوا أو تنبأوا أن كاتبها - السادات - سوف يشارك فى ثورة بعد أربع سنوات أو سوف يصبح رئيساً لمصر بعد ٢٢ سنة !!

ببساطة نشرت المصور مذكرات السادات لأنه - وحسب مقدمتها - «اقوى المتهمين شخصيته وأكثرهم ثقافة وتجربة، وهى تصور الحياة داخل السجن أصدق تصوير».

لكن بعد تولى السادات لرئاسة الجمهورية - خريف ١٩٧٠، ثم رحيله - خريف ١٩٨١ - صار لهذه المذكرات قيمة وأهمية تاريخية وسياسية رغم أن الذى كتبها وقتها كان مجرد أحد المتهمين فى قضية أمين عثمان !!

وكانت هذه المذكرات أحد الأسلحة التى تم استخدامها فى الحرب الشرسة ضد السادات بعد رحيله.

وفى كتاب «خريف الغضب» للأستاذ الكبير «محمد حسنين هيكل» يقول:

«إن صفحات هذا الكتاب الذى صدر بعنوان «٣٠ شهراً فى السجن» بقلم أنور السادات تلقى أضواء بالغة الأهمية على شخصية أنور السادات»، ولذلك فإن النصوص الحرفية لأجزاء من هذه المذكرات تساوى الرجوع إليها بطريقة مفصلة بعض الشئ».

لكن قراءة هذه المذكرات متعة إنسانية وسياسية قبل أى شئ أخر لفرط بساطتها وصراحتها.

ولنقترب من هذه المذكرات.. وتبدأ على النحو التالى:

الجزء الأول

«٣٠ شهراً فى السجن !!»

الجمعة ١٨ يناير ١٩٤٦:

دخلت أمس سجن الأجانب بعد منتصف الليل بعد أن عدت من سراى النيابة. ها هو ذا سجن الأجانب يضمنى ثانية.. بعد أن كنت قد نسيته تماماً. إذ إن آخر ذكريات لى فيه انتقلت إلى ركن بعيد من ذاكرتى، ولكننى أرانى الآن استعيدها كما لو كانت بالأمس.. فها هى ذى الغرفة رقم ٢٨ التى كان يسكنها أربعتنا: «محسن فاضل» و«الدمرداش الشندى» (النائب الآن) و«حسن جعفر»، وأنا.. وقد نقلنا إلى السجن فى شهر سبتمبر ١٩٤٤ فى أواخر عهد الحكومة الوفدية على أثر مشادة بيننا وبين إدارة المعتقل بالزيتون تمهيداً لترحيلنا إلى الطور كما ارتأى الحاكم العسكرى وقتذاك...!

إننى أذكر جيداً الآن كيف جاهدنا لنجعل إقامتنا هنا محتملة بل وشيقة. فقد رأينا من المستر هكمان مأمور السجن السابق استعداداً طيباً لذلك. وكنا نمضى اليوم فى لعب الطاولة والدومينو أو القراءة على كراسى البحر التى استحضرناها..

وأذكر أيضاً ذلك اليوم الذى أعلنا فيه بالسفر إلى «الطور» وكيف نقل «الشندى» إلى سجن التخشيبة وبقينا نحن الثلاثة هنا انتظاراً لميعاد قدوم الطوافة التى ستقلنا إلى الطور إذ إن رحلتها كانت شهرية، وأحضروا لنا طعام الرحلة من المتعهد لكى نحمله فى سفرنا وهو عبارة عن بقسماط ناشف وجبن وحلاوة!

كما أنى ما أزال أذكر أنه قدر لهذه الرحلة ألا تتم فقد تدخل الإنجليز فى عدم إتمامها..! ولهذا التدخل قصة طريفة: لقد كان رجال المخابرات البريطانية دائمى التردد على سجن الأجانب بشأن قضاياهم. وذات يوم حضر إلى السجن المدعو الميجور سمسون من قلم الجاسوسية البريطانية فى الشرق الأوسط فقابل مصادفة محسن فاضل وهو فى الزيارة بغرفة المأمور، وسأله عن سبب وجوده فى سجن الأجانب فأخبره محسن بوجودنا جميعاً تمهيداً لترحيلنا إلى الطور، فثار

سمسون ثورة هائلة لأن ثلاثتنا كنا معتقلين على ذمة السلطة البريطانية فكيف لم تستشر تلك السلطة فى أمرنا؟! ثم أعطى محسن وعداً قاطعاً بإلغاء هذا الترحيل.. وعودتنا للمعتقل. ويظهر أن السفارة البريطانية كانت مصدر السلطات حقيقة وقتذاك، فإنه لم يمض يوم واحد على زيارة سمسون المذكور حتى ألغى الحاكم العسكرى أمره بترحيلنا للطور وعدنا إلى المعتقل فى عهد خلفه المرحوم ماهر باشا.

ومازلت أذكر كيف دفعنى الفضول لأستقصى سر «سمسون» هذا، فعلمت أنه كان موظفاً فى شركة تأمين إنجليزية كبرى فى القاهرة قبل قيام الحرب بزمن طويل. وكان يعمل فى قلم المخابرات البريطانية فى نفس الوقت. فلما أعلنت الحرب جند رئيساً لقلم الجاسوسية فى القاهرة، برتبة كابتن، وكانت مدة خدمته السابقة كفيلة بأن تجعله يجيد العربية بجميع لهجاتها (بحكم الصنعة) ويتغلغل فى جميع الأوساط ويقف على جميع الاتجاهات، ولم تستطع الإمبراطورية العجوز أن تستغنى عن خدماته بعد الحرب فهو يشغل الآن وظيفة دبلوماسية فى السفارة البريطانية.. ترى ما هى حقيقة العمل الذى يؤديه الآن؟!

إن الذكريات تتدافع إلى رأسى فى كل اتجاه وكأنها فيلم تتوالى حوادثه فى تشويش واضطراب! لقد نسيت أننى الآن متهم فى قضية أمين عثمان باشا.

إننى أرى جو السجن رهيباً بخلاف ما عهدته. إلا أننى أعتقد أن الوضع سيكون على أية حال أحسن. فلست الآن تحت الأحكام العرفية كما كان الحال فى المرة السابقة، ولعل وجودى على ذمة النيابة يكون خيراً من وجودى على ذمة الحاكم العسكرى المفضال.

الأحد ٢٠ يناير ١٩٤٦:

مضى علىّ الآن ثلاثة أيام وأنا أنام ببدلتى فقد نقلونى إلى هنا مساء الخميس السابق بدون أن يحضروا ملابسى وحاجاتى من سجن مصر حيث كنت.. هذا برغم أننى شكوت شفوياً ثلاث مرات فى الأيام السابقة لمأمور السجن!

إننى ألاحظ تغيراً شديداً فى معاملة المأمور لى بالنسبة للمعاملة التى لقيتها منه فى المرة السابقة. وهو يحيلنى دائماً على البكباشى إمام الذى أخفقت فى

محاولة الاتصال به.. لذلك كتبت خطاباً شديد اللهجة إلى النائب العام فى شأن هذا الإهمال وتركى بدون ملابسى أو حتى صابونة لأغتسل.. وقد سبب لى النوم بالبدلة التهاباً شديداً فى فخذى جعلنى أهرش كما لو كنت «أجرب»!!

الاثنين ٢١ يناير ١٩٤٦:

يظهر أن خطابى للنائب العام أحدث أثراً، فقد أحضر لى مأمور السجن ملابسى وكذا أحضر الصابون.. وقد طلبت حماماً ساخناً فأذن لى المأمور بذلك واستمتعت باستلقاءة بديعة داخل البيچامة والبطاطين.

لا أريد أن أفكر فإننى أشعر بأسئلة عديدة تؤرقنى ولا أجد لها جواباً! فإن هيكمان يتغير فى كل لحظة كما يبدو لى بشكل جاف لا أدرى له تعليلا! الفسحة فى السجن معدومة وأكاد أقضى الأربع والعشرين ساعة فى الغرفة وهى مظلمة وشديدة الرطوبة لأنها فى الدور الأول على سطح الأرض.. ولما طلبت تفسير ذلك من هيكمان هز رأسه ولم يجب!

٢٢ يناير ١٩٤٦:

أصبحت الحالة لا تطاق - فلم يسمح لى الضابط النوبتجى اليوم بالتوجه لدورة المياه فى الصباح كالمعتاد، وعبثاً حاولت التفاهم معه ولم ينقذ الموقف إلا نزول هيكمان من منزله فسمح لى بأن أقضى حاجتى وأتوضأ...!

وقد كتبت للنائب العام مرة ثانية أعلمه بهذه المعاملة الشاذة.. فطلبنى وكيل النيابة عند الظهر وأثبت شكواى وخاصة فيما يختص بالسماح لى بالقراءة، ولكنه سامحه الله لم يسمح لى بشىء حتى ولا بالمصحف الشريف!

٢٧ يناير ١٩٤٦:

خرجت اليوم للفسحة فقابلنى شاب أخبرنى أنه صحفى معتقل على ذمة قضية صحفية وأخذ يحدثنى عن قضية ثم تدرج إلى التحدث عن السياسة والإنجليز والذين يتعاونون معهم.. وكيف أن الكفاح الحق يجب أن يتجه أولاً إلى القضاء على هذه الفئة من المصريين لأنها طابور خامس يكمن فى ظهر البلد.. إلخ!!

وكنت طوال الوقت أقوم بدور المستمع ثم سكت «سكت الصحفى» قليلاً وعاد يخبرنى أن الغرفة التى أسكنها وهى رقم «٦» كان يسكنها فى وقت من الأوقات شفيق منصور الذى أعدم فى قضية اغتيال السردار وكيف تمكن البوليس والنيابة من أخذ الاعترافات منه. وقال إنهم لم يكونوا يسمحون له بالنوم ثم يأخذونه فى ساعة الفجرية وهى ساعة (النومة الحلوة) فى عربة حنطور ويمشون بها على النيل طوال الوقت، حتى إذا أخذته سنة من النوم أيقظته أسنان سناكى المرافقين له، وبذلك وبطرق أخرى (لم يوضحها) تحطمت أعصاب المتهم وأدلى باعترافاته..! وعاد الصحفى إلى السكوت فترة أخرى وهو ناظر إلىّ فى إشفاق ثم قال لى إنه علم من أحد العساكر السجانين أن الغرفة رقم «٢» (وهى مقفلة دائماً ويسدل خلف بابها ستار سميك بخلاف جميع غرف السجن) تحوى سراً غريباً، وهو أن بها آلات وأجهزة تركب على الجهاز التنفسى للإنسان وعلى رأسه ليصبح فى غيبوبة يدلى فيها بكل ما فى قلبه من أسرار يحرص على إخفائها وهو فى حالته الطبيعية! ولاحظ صاحبنا أننى لا أتكلم مطلقاً وأكتفى بأن أظهر له علامات عجبى من آن لآخر فسألنى لماذا لا أتكلم وأخبره بالحقيقة عله يتمكن من مساعدتى قانونياً؟. فقلت له بهدوء: «أنت بتمسك كام ساعة نوبتجية؟»، فرد على الفور بدون تفكير: «١٢ ساعة» ثم احمر وجهه وأدرك خطأه فقام فى الحال وتركنى.. وحضر إلىّ السجان يعنفنى لأننى تأخرت فى الطابور ويأمرنى بالذهاب لغرفتى فقمت وأنا أضحك فى كمى..!!

٣٠ يناير ١٩٤٦:

حدث فى الساعة الثالثة من صباح اليوم مشهد مسرحى رائع! فقد استيقظت فى الساعة الثانية صباحاً على صرير فتح القفل ودفع المزلاج بشدة للخلف ثم دخل الضابط الجزار وطلب إلىّ أن ألبس لأننى مطلوب للتحقيق. قمت من تحت البطاطين ولبست بدلتى وجلست على السرير لأنتظر ما يقرب من ساعة فى جو هو الثلج تماماً. ثم عاد الجزار وقادنى إلى الطرقة الخارجية حيث وجدت ثلاثة شبان ينتفضون من شدة البرد مثلى، وكان أول أثر انطبع فى ذهنى عند رؤيتهم أنهم طلاب فى الابتدائى، أو على الأكثر فى أوائل الثانوى - وأمرت أن أقف مع

هؤلاء الأولاد ولكن بعيداً قليلاً بحيث وقف الجزار وتوفيق السعيد بينى وبينهم وظللنا صامتين فترة ولّدت فى نفسى بالاشتراك مع سكون الليل وبرد الساعة الشديد رهبة هى مزيج من الخوف والقلق.. وأردت أن أحول فكرى عن هذه الرهبة فتوجهت بالحديث إلى توفيق السعيد أسأله عن أخيه وهو زميل لى بالجيش ولكنه رد بخشونة طالباً إلىّ السكوت لأن «البك وكيل النيابة» فى الطريق فزادت هذه المعاملة من اضطرابى. وصمت فترة قد تكون قصيرة ولكن خيل إلىّ أنها أيام ثم خرج إلينا وكيل النيابة ونحن فى موقفنا هذا ورأيته أول ما رأيته يزيح ستارة الغرفة رقم «٢» الخضراء ويقف قليلاً حيث انعكس عليه ضوء الغرفة ثم تقدم إلينا فى خطوات ثقيلة وبدأ بالثلاثة الصغار فتفرس فى وجههم. ثم أتى إلىّ فتفرس فى وجهى وفى لهجة عميقة سألنا من منكم يعرف الآخر؟ فتعرف أحد الشبان الثلاثة على الاثنين الباقيين وهو ينتفض. ولم يتعرف علىّ أحد، ثم كرر هذا الأمر ثانية مشيراً إلىّ بشكل ذكرنى «بأبى حجاج» وهو يمثل رجل الساعة فى برنتانيا! ولكن لم يتعرف علىّ أحد فأمر بإعادتى إلى غرفتى حيث لم أنم إلى الصباح!

٣١ يناير ١٩٤٦:

آمنت بالله.. ! نار الحاكم العسكرى ولا جنة النيابة.. تكرر نفس المشهد التمثيلى فى الساعات الأولى من صباح اليوم ولكن بثلاثة وجوه جديدة. بدأت أشعر بتعب وارتباك عصبى شديد لذلك أرسلت للنائب العام تلغرافاً استنجد به وطلب مقابلته بحضور محام.

٢ فبراير ١٩٤٦:

استدعانى اليوم وكيل النيابة ظهراً وكان بيده التلغراف وحقق معى بشأنه فرفضت الإدلاء بسبب إرساله إلا بحضور المحامى سواء أمام النائب العام أم أمام المحقق. ولما أعلمنى باستحالة ذلك لسرية التحقيق أجلت الإدلاء بما أريد إلى فرصة أخرى.

٤ فبراير ١٩٤٦:

«ليلى الهندية» تحب السجين رقم ١٩.. هذه هى العبارة التى يرّددها السجن كله. قالتها لى سنية الفراشة.. والسجانة والعسكرى البسجان.. بل أكثر من هذا تقدمت ليلى للمأمور بطلب إعطاء المسجون رقم ١٩ فسحة أطول لكى تتمتع بالتحدث إليه ومناجاته! وقد دفعنى الفضول لرؤية هذا «الحبوب» وبكل عناء تمكنت من أراه لمدة نصف دقيقة على الأكثر فوجدته يستحق إعجاب ليلى فعلاً إذ كان شاباً أشقر ذا أنف رومانى وشعر أصفر وتقاطيع متناسقة فى رجولة.. وقد علمت فيما بعد أنه يدعى محمد إبراهيم كامل.[١]

٥ فبراير ١٩٤٦:

تحسنت معاملتى نسبياً واتضح أن صاحبنا «الصحفى» إياه لم يكن سوى أحد أعوان البوليس السياسى أو أحد (العملاء المغررين) بالتعبير الفنى. وكان يتحاشى مقابلتى عند خروجى للفسحة الأسيفة وهى عشر دقائق طوال اليوم زيدت عشراً أخرى وسمح لى بقراءة المقطم والأهرام والمصور، ولكن لم يسمح لى بالكتب ولا باستحضار أكل من الخارج فى حين أنهم يصرحون لباقى المتهمين بكل شىء!

٨ فبراير ١٩٤٦:

حدث أن خرجت من غرفتى إلى دورة المياه ظهراً، فوجدت العسكرى «المراسلة» يدخل الغرفة رقم «١» ومعه لفة (كباب وكفتة) اخترقت رائحتها أحشائى! ولما سألت قيل لى إن المتهم الأول فى هذه الغرفة هو وستة آخرون وأنهم يأكلون ما يشاءون.. فثرت ولم أدخل الغرفة إلا عندما حضر المأمور - وكان قد تعين مأمور مصرى فى هذه الفترة - فتكلمت معه بغلظة هى رد فعل الجوع، وكان من نتيجتها أن سمح لى بعد جهد بأكلة من «الشيمى» على حسابى ولا أزال أحس بحلاوة هذه الأكلة إلى الآن!

---

(١) اختاره أنور السادات وزيراً للخارجية بعد استقالة إسماعيل فهمى.. واستقال خلال مباحثات كامب ديفيد.. وأصدر كتاباً هاجم فيه السادات هجوماً عنيفاً ظالماً.

١٤ فبراير ١٩٤٦:

ليس فى الإمكان أبدع مما كان.. فقد استيقظت اليوم على صوت حنون يغنى كليوباترا وآهاتها - إنها «ليلى» فى الغرفة المجاورة.

لقد امتزجت البراءة مع رقة الأنوثة فى إخراج هذا النغم الساحر حتى خيل إلىّ أنه ليس صوت بشر.. إننى أعشق الموسيقى بكل جوارحى، وأكثر من ذلك فهى تضفى على هذا الجو الرهيب لوناً خفيفاً طلياً من الجمال الذى يرتفع بالنفس إلى آفاق الروح فينسى الإنسان الزمان والمكان والأشياء!

استغفرك اللهم وأحمدك حتى ترضى.

١٧ فبراير ١٩٤٦:

طلعت علينا جريدة «المقطم» وفيها خبر نقل «كيلرن»[١] من مصر. ولما كنت أبغض هذا المخلوق الذى أدمى كرامة مصر كلها فقد صممت على أن أحتفل بهذه المناسبة بقدر ما أتمكن وأرسلت فى شراء دستة جاتوه باسم المسجونة ليلى الهندية ووزعتها على ليلى والسجانات والسجان والفراشة واستبقيت لنفسى ثلاث قطع أحتفل بأكلها على فنجان شاى المساء - وقد استمتعت بأكلها أيما استمتاع خاصة وأن (المعازيم) تركوها لى من النوع الدسم المملوء بالكريمة!

وفى نحو الساعة الثانية صباحاً استيقظت على مغص وإسهال مروع واتضح لى أن الجاتوه كان تالفاً وقد جىء به من دكان فى شارع محمد على.

إننى أقرر لوجه الحقيقة أن بغضى لكيلرن قد تحول إلى حقد دفين منذ هذه الليلة!!

---

(١) اللورد كيلرن هو السفير البريطانى الذى كان يحكم مصر فعلاً . وهو الذى اقتحم قصر عابدين بالدبابات فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ووجه إنذاراً إلى الملك، بعزله عن العرش إذا لم يؤلف مصطفى النحاس الوزارة، قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم.

الجزء الثانى

«٣٠ شهراً فى السجن !!»
أيام وليالى فى سجن مصر

٣٠ يونيو ١٩٤٦:

لقد مضى علىّ منذ نقلت إلى هذا السجن أربعة أشهر كاملة خلتها لشدة ما اكتنفنى خلالها من ظلام - أطول من أربعة أعوام!

ولطالما حاولت خلال تلك الفترة أن أسطر شيئاً لعلى أنفض بذلك عن صدرى ما يخيم عليه من الكآبة والجمود، ولكن هيهات لى أن أجد القلم فإن الأقلام هنا محظور وجودها، وغرفتى وثيابى يفتشان بانتظام ودقة مرتين يومياً.. وإن وجد القلم فلا يوجد الورق وحيازتى لورقة بيضاء جريمة أعاقب عليها! وإذا أراد اللّه أن أجمع بين ورقة وقلم واحتفظ بهما بمنجاة من التفتيش انتظاراً لليل كنت بذلك أغالط نفسى فالزنزانة التى تحتوينى مصممة بحيث لا ينفذ إليها النور إلا من كوة قرب السقف تسمح لضوء النهار فقط أن يغازل الغرفة. أما فى الليل فيجب أن تقترن الوحدة بالظلام.

لا سبيل إلى الكتابة إذن ولا سبيل أيضاً إلى القراءة. فقد منعت من استحضار كتب أو قراءة الصحف، وأصبحت - فى القرن العشرين - أعيش عيشة حيوانية بحتة فى قفص من الحجر طوله ثلاث خطوات وعرضه خطوتان، طيلة الأربع والعشرين ساعة لا يقطعها إلا صرير مفتاح الحارس عندما يفتح باب القفص ليقذف لى بالأكل ثم يعيد القفل ثانية. وهكذا..

ولماذا؟ لأنه يراد أن أقضى تلك الفترة القلقة فى سجن الأجانب على نحو من الفزع والرهبة، ثم تتلوها هذه الحقبة فى سجن مصر فى ظلمة وإجداب ووحدة!

إن شر ما يصاب به إنسان ذو مثل عليا هو الانحطاط العقلى، فالقراءة والاطلاع ألزم للفرد من الطعام فى هذا العالم الذى اتصل قاصيه بدانيه.. ولكنهم فى النيابة - سامحهم اللّه - لا يؤمنون بذلك فيما يظهر. بدليل أنهم أمروا بأن

يطبق علينا شيء كريه يسمى «لائحة السجون» ذلك الأثر البربرى من آثار الاحتلال البغيض!!

ولقد حاولت جاهداً خلال هذه الفترة أن أحتفظ بشيء من معنوياتى بعد أن فقدت كل أمل فى الإنصاف والعدالة. بل لا أكون مغالياً إذا اعترفت لنفسى صراحة بأننى كدت أن أفقد توازنى وأن أشك فى كثير من القيم! ولكن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده فقد أراد لى ولباقى المتهمين فى يوم من أيام شهر يونيو ١٩٤٦ أن تزاح هذه الغمة عن صدورنا فصدر أمر باختلاطنا أثناء النهار وركبت الكهرباء فى الزنزانة فأضيئت ليلاً وسمح لنا بقراءة الكتب والصحف وبالأقلام والورق.

وهكذا بدأت الحياة تدب فى نفوسنا من جديد، وبدأت أفيق من ذلك الكابوس الكريه، وكأنما أشرقت علينا الشمس بعد طول إظلام وطلع وعلينا أمل منعش بعد يأس مفجع. ولا غرو فهى حياة جديدة حتى ولو كانت داخل القضبان..!

١٥ يوليو ١٩٤٦:

استدعانى اليوم ضابط العنبر لكى يسلمنى أدوية وردت لى من الخارج، وقد سمح لى بالجلوس نظراً للزمالة السابقة.. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث وفجأة سمعت عويلاً وصراخاً على الباب الخارجى للسجن ولما استفهمت قال لى فى بساطة إن مسجوناً توفى وأن أهله فى انتظار تسلمه.. وبعد فترة وجيزة خرجوا بالجثة من باب الوسط الذى فى مواجهتنا وقد تملكتنى رهبة لجلال الموت فشردت برهة لأفيق على زغاريد وغناء فى ناحية سجن النساء.

ياإلهى كم فى هذا المكان من متناقضات تهز المشاعر هزاً..

نظرت إلى الضابط فى استفهام مرة أخرى، ويظهر أنه لاحظ ما انتابنى فضحك قائلاً «إنها سنية النشالة! لابد أن تكون قد وضعت مولوداً وهذه زغاريد زميلاتها فى المستشفى يحيينها التحية المعتادة لمثل هذه المناسبة، تفضل أنت لأننى سأذهب لأثبت المولود فى الإيراد وأحذف الميت فى الترحيل»!

عدت إلى غرفتى بانفعالات مشوشة.. ولكن أليست هذه هى سنة الحياة: إيراد وترحيل؟

٢٢ يوليو ١٩٤٦:

أفزعنا محجوب أمس فى طابور بعد الظهر بصرخة مكتومة جعلتنا نسرع نحوه لنرى ما الخبر فأشار وهو فاغر فاه إلى شباك الدور الثانى بسجن النساء حيث كانت تجلس حورية آية فى الجمال! دهشنا جميعاً لهذه المفاجأة ودهشنا أكثر لأن مثل هذا الجمال يكون نزيلاً لزنزانة! وبالسؤال اتضح أنها «نبوية شاهين» النشالة الفاتنة التى حيرت رواد شبرد وأغنياء الحرب..!

ويظهر أن صاحبنا محجوب - وهو شاعر مطبوع - وقع فى شراكها فقد طالعنا صباح اليوم بقصيدة عصماء فى التشبيب «بنبوية» وتمجيد فن النشل قال فى مطعلها:

إنى أرى «نبوى» آية صنعه	فى الخلق منذ بداية الأزمان
وجه يضىء بنور صبح فاتن	ويدان تنشل مهجة الأبدان !

٢٥ يوليو ١٩٤٦:

حياتنا تحمل الآن طابع الاستقرار إلا من مناقشات الصباح بعد قراءة الصحف.

إن أهم ما يشغلنا فى الوقت الحاضر هو المفاوضات.. كثيرون منا يتنبأون بفشلها، وآخرون يعترضون على مبدأ المفاوضة فى حد ذاته لنيل حقوق البلاد.. لذلك قررنا عقد مؤتمر لمناقشة هذه المشكلة، وأن تبطل المناقشات حولها حتى ينعقد المؤتمر.

٦ أغسطس ١٩٤٦:

انعقد مؤتمر المفاوضات أمس واليوم، وهذه صورة سريعة لبعض ما دار فى الجلستين. وهو إن يكن مطبوعاً بطابع الشباب والاندفاع إلا أنه فى اعتقادى صورة لما يعتمل فى صدر كل شاب مصرى. فحقيقة اليوم هى أن الشباب فقد ثقته إلى الأبد فى الحزبية وقادتها وكل محترفى السياسة!

بدأت الجلسة الأولى عندما أعلن الرئيس وهو أصغر سناً «مصطفى حبيشة» افتتاح الجلسة والموافقة على أن تكون المناقشة حرة فى القضية المصرية تنتهى بقرار تبطل بعده المناقشات فى مسألة المفاوضات فوافق الجميع.

مدحت فخرى: أطلب وقف الجلسة حداداً على الشهداء منذ مذبحة الإسكندرية إلى دنشواى إلى ثورة ١٩١٩ إلى شهداء مارس الماضى (وافق الجميع.. ثم عادت الجلسة للانعقاد).

حسين توفيق: بعدما استعرض تاريخ الحركة القومية منذ القرصنة البريطانية سنة ١٨٨٢ إلى الآن قال ما معناه: «ويقينى يا إخوانى أننا نجتاز الآن فترة كالتى اجتازتها تركيا فى أعقاب الحرب الأولى. فالتشابه بيننا شديد من حيث الانحلال وضعف الروح المعنوية وما جرّته علينا الحياة الحزبية من انقسام جعل هم كل زعيم سياسى هو الفوز لشخصه هو ولمحاسبيه بأكبر الغنم وترك ما دون ذلك حتى ولو كان استقلال البلاد وكرامتها! وإنكم لترون أن الدستور كان أكبر نكبة منيت بها البلاد بعد الاحتلال. فقد شغلونا عن الكفاح فى سبيل استقلالنا وقوتنا بالكفاح فى سبيل كراسى الحكم والمنصب الزائل لتفرقنا شيعاً وجعل كل منا يهدم الآخر بكل الطرق. شريفة أو غير شريفة حتى وصلنا إلى هذا الحال وأبلغ مثل على فشل الأحزاب والسياسة فى مصر، هو حادث ٤ فبراير.

وسيم خالد: (بعدما استعرض كيف استقلت أيرلندا والتشابه الشديد بين حالتها وحالتنا قال ما معناه): لا حل لقضيتنا إلا بحمل الشعب كله للسلاح. فالشعب الذى لا يعرف كيف يحارب لا يستحق الاستقلال. لذا فأنا أرى أن تتحول مصر كلها إلى ترسانة وميدان وبهذا وحده سنأخذ استقلالنا.. ومن حركة أيرلندا يجب أن يفهم أن الاستقلال حق يؤخذ ولا يعطى.

سيد خميس[1]: (بعد أن تلا فذلكة طويلة فى تاريخ الثورات الاستقلالية بوصفه طالباً فى قسم التاريخ بكلية الآداب قال ما معناه):

---

(١) هو الصحفى عبد العزيز خميس الذى عينه السادات رئيس مجلس إدارة روزاليوسف ورئيساً لتحريرها فى السبعينيات.

«إننى سأكافح بعد خروجى من السجن بسلاحى الخاص فى سبيل الوطن.. وهذا السلاح هو سيف العصر الحديث البتار: هو القلم!».

(صيحات استنكار وصفير وهجوم شديد عليه).

- الرئيس: لكل عضو الحق فى أن يقول ما يشاء فاتركوه لأن هذا جهده..

محمود مراد: (فى انفعال) أرجو أخذ قرار بأن الوطن برئ من كل كفاح من نوع كفاح السيد خميس!

وبعد هذا أدلى الباقون بآرائهم وهى لا تختلف كثيراً عما تقدم، ثم وقفت فى ختام المناقشة وقلت:

● إننى أشكر وكيل النيابة الذى جمعنا وما كنا لنجتمع أو يعرف بعضنا بعضاً لولا عبقريته وخياله الفذ.. وإننى أشارككم فى أن الحزبية قد فشلت فى بلادنا فشلاً ذريعاً، وأن السياسة فى بلادنا من نوع عاصر الاحتلال وأشرب فى قلبه الخوف والاستكانة، وقد استغل الإنجليز ذلك أبشع استغلال، ورأينا أخيراً ذلك النصاب العجوز تشرشل يتكلم فى مجلسهم وكأن وطننا إرث آل إليه من جده الإيرال المحترم، ورأينا من قبل ذلك المخلوق الوقح كيلرن يعجب حين أبلغه النقراشى مذكرة الجلاء ووحدة الوادى ظناً منه أن النقراشى لابد أن يكون قد جن ليطالب بهذا!

«إن المسئول عن هذا الهوان الصارخ وهذا الإذلال المميت هو ذلك الجيل المتخاذل الذى لن يستطيع أن يموه طويلاً فقد كشفه الشعب وفضحته الحوادث.. يجب أن يتنحى هذا الجيل فإن من المستحيل أن تسير عقارب الساعة إلى الوراء»..

وانتهت المناقشة بالقرار الآتى:

«على الشباب وحده أن يعد نفسه ويتقدم للموت فذلك خير من أن يحيا حياة ذليلة»!!

٢٠ أغسطس ١٩٤٦:

عاد إلينا الهدوء.. حدث أمس أن اشتبك محجوب ووسيم فى مناقشة حادة وذهبت لأستطلع الخبر فعلمت أن الاثنين وهما رئيسا تحرير الجريدتين اللتين

اعتزمنا إصدارهما داخل السجن يتشاجران على استخدام محمود الجوهرى وهو الرسام الوحيد! وبعد تدخل منا اتفقنا على أن يستخدم كل منهما الجوهرى أحدهما قبل الظهر والآخر بعده، وأقسم الجوهرى يميناً بعدم إذاعة أسرار أى مجلة للأخرى أو للقراء وكفى الله المؤمنين القتال»!!

١٠ سبتمبر ١٩٤٦:

الحياة رتيبة والجو يسيطر عليه هدوء بديع - الجميع منصرفون إلى القراءة وقد استحضرنا مجموعة كتب وروايات باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية واستحضرت مجلداً لمجموعة كتب بالألمانية فأنا أعشقها.

إننى أميل إلى قراءة النوع الغرامى من الروايات. فإن لها تأثيراً لطيفاً على أعصابى هذا فضلاً على أنها تحليل للحياة ولوجه شيق من أعظم وجوهها وهو الحب.

يقول الألمان فى مثل من أمثلتهم: «أن تحب وأن تحب لهى أعظم نعمة فى الوجود». أى والله كم أنا فى حاجة لحب عظيم يملأ نفسى ويغذى قلبى!! وبعد أليس الحب فى مختلف صوره هو أسمى عواطف الوجود؟!

٥ أكتوبر ١٩٤٦:

انتهت جلسات الإحالة وصدر الحكم بإحالتنا إلى محكمة الجنايات لدور نوفمبر المقبل..

٢٠ أكتوبر ١٩٤٦:

دعا وسيم ومحجوب إلى حفل لمناسبة قرب صدور الجريدتين واشترطا للاشتراك فى الحفل والتمتع بالتورتات الفاخرة والحلوى والشاى أن يكتب من يريد الاشتراك مقالاً أو قصيدة يقدمها. واحتججنا على هذا الاستغلال بدون جدوى - ولما كنت لا أحتمل أن تفوتنى هذه الفرصة فقد جلست أستوحى شياطين الشعر وكتبت قصيدة بعد عرق وفيها:

سلونى أجبكم أن قدّ مليحة لأطيب عندى من طعام ابن خالد
فواللّه مالى للطعام شهية وقلبى على الخلان يرغي ويزبد !

وطعام «وسيم خالد» كان ولا يزال عروس يومنا..!

٢٣ أكتوبر١٩٤٦:

صـــدرت اليــوم بعـد طول شـوق وانتظار مـجلة «الهنكرة والمنكرة» ورئيس تحريرها «وسيم خالد» وهى مجلة فكاهية وتحوى مواضيع شيقة وقفشات وصوراً كاريكاتورية لطيفـة.. وقد هاجمنى وسيم بالكتـابة والكاريكاتـور، واتهمنى أننى أتسكع بجوار حائط سجن النساء مما يضرب أسوأ المثل لباقى المتهمين، وبعد هذا الهجوم العنيف طالب بحرمانى من الأطايب لمدة أسبوع على الأقل.. وقد أسرعت واعتذرت وأمرى للّه!!

٢٦ أكتوبر١٩٤٦:

صدرت مجلة «ذات التاج الأحمر» وهى آية فى الطبع والتبويب والتلوين ولم أنج من هجومها أيضاً وقد احتفظت بالعدد الأول منها..

٢٠ نوفمبر١٩٤٦:

أحمد اللّه فقد بدأت علاقتنا تتحول إلى صداقة عميقة بعد أن مرت فترة التهيب والكلفة، وإن أكبر الفضل فى ذلك يرجع إلى الحملات الصحفية اللطيفة.
ولو أن معيشتنا رتيبة إلا أنها شيقة على أية حال.

٢٥ ديسمبر١٩٤٦:

«إنه لغنى الذى يرى الحياة اكتشافاً مستمراً».

ديهاميل .

اليوم هو عيد ميلادى - لا أدرى لماذا تداعبنى خواطرى فى ابتهاج ونشوة.. فمنذ ثمانية وعشرين عاماً خلت وفى مثل هذا اليوم كان مولدى الساذج فى تلك القرية الهادئة بالمنوفية..

سأذكر دائماً هذا اليوم وسأذكر أيضاً عشيرتى من الفلاحين الكادحين فى بساطة ووداعة. فهذه الذكرى ترفعنى فوق لؤم المدينة وخداعها ومظاهر التكلفة وأهلها التافهين.

سأذكر دائماً بيئتى القروية الساذجة. حيث تمتلئ النفوس بالإيمان بالله. وحيث يرجعون كل شىء إلى الله. فهناك تعلمت أن الله حى فى كل شىء وأن العبرة بنقاء السريرة قبل العلانية.

سأذكر محصول الثمانية والعشرين عاماً الماضية بفخر واعتزاز، وسأسير مرفوع الرأس غير خاش أن يساء فهمى أو يؤول قصدى.

اللهم حمداً وشكراً فأنت وحدك القوى المكين.

الجزء الثالث

صندوق الدنيا فى محكمة الجنايات !

أول ديسمبر ١٩٤٧:

.. وأخيراً بدأ نظر القضية بعد عامين طويلين طفحا بالألم. ولكن الله لطيف وجميل إذ شاءت إرادته أن يحنو ويرحم! فملأ نفسى بحلاوة الأمل.. وها هو ذا الأمر قد أوشك أن يبين. وها أنذا داخل القضبان فى الغرفة رقم ٥٤ أتحدث إلى نفسى حديث المسافر الذى أوشكت رحلته على النهاية، فهو تعب من طول الطريق ومن طول ما تحمل من مشقاته، وهو جزع من صدمة الوصول ورهبة اللقاء لأن نفسه قد أذابها الأمل وأحرقها الفراق..!

٢ ديسمبر ١٩٤٧:

طالما اشتقت لرؤية السادة الذين يطلقون على أنفسهم زعماء.. ولقد كانت فرصة جميلة تلك التى أتاحتها لى القضية لأراهم يؤدون الشهادة.

وكم طابت نفسى حينما تولى المحامون تشريحهم أمام منصة القضاء..

كان يخيل إلىّ أننى أشاهد «صندوق الدنيا» يعرض السفيرة عزيزة.. ويونس الجميل، والفارس الغضبان..!

وكان مصطفى النحاس باشا أول من طالعنا..

وهنا أقف قليلاً وأعود بذاكرتى إلى الوراء فكم أحفظ له من ذكريات.

أذكر أنى فى العاشرة من عمرى وكنت أقطن كوبرى القبة.

وأذكر كيف كنا نجتمع نحن «أولاد الحتة» لنحيى الرئيس الجليل كل ليلة عند عودته من بيت الأمة إلى مصر الجديدة مارا بضاحيتنا.. وأذكر جيداً كيف كانت تتملكنى الرهبة لهذا اللقاء العابر..

وأذكره وأنا فى السادسة عشرة حينما عاد من أوروبا ولقبه «ذو.. الرياسات الثلاث» وقصفت له المدافع وقرعت له الطبول.. وكانت هذه الطبول وتلك المدافع إيذاناً بنهاية البداية. إذ ولدت معاهدة ١٩٣٦.

ثم تقفز بى الأيام فأذكره وأنا فى الثالثة والعشرين حاكماً عسكرياً تولى الحكم فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وكانت هذه بداية النهاية..

ثم انتهى بى الأمر أن أراه أمس يقف فى ساحة القضاء المقدسة.

تكلم النحاس باشا وأسهب فى الحديث واجتاز مواطن الحرج فى غموض شعرنا به وأسفنا له..

١٠ ديسمبر١٩٤٧:

الصور تتوالى فى صندوق الدنيا..!

رأينا حسين سرى باشا على شاشة الصندوق أحسن من يمثل «نفشة» الديك الرومى وانتفاخ الأوداج..

ورأينا هيكل باشا يشهد بما تفوه به كيلرن تعدياً وتحدياً..

ورأينا حافظ رمضان باشا يقول: «أنا لا أسمع إلا بأذن واحدة، ونصف ما اسمعه بها كلام فارغ» وكانت حكمة..!

ورأينا زكى على باشا يشهد شهادة القاضى الدقيق ويقرر الحقيقة فى قوة ولباقة..

ورأينا بهى الدين بركات باشا يتحدث فى السياسة حديث «الجنتلمان» المتزن فى غير حزبية، ثم انتقل إلى الاقتصاد فكان العالم الواثق من نفسه وأقر بوضوح خراب البلاد على أيدى عصبة السياسيين وحليفتهم..!

وسمعنا وسمعنا..

سمعنا عجباً وألماً، ورأينا على المشرحة أولئك الذين قادوا البلاد خلال ربع قرن أو يزيد.. فما تغير رأيى المتواضع فيهم أبداً..!

يا قومى يامواطنى: اعلموا أن السياسة فاشلة فى بلادنا على وجه لا يصدقه العقل!

ياقومى: لن يغير الله ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا!

ديسمبر ١٩٤٧:

أدى رجال البوليس السياسى الشهادة وأداها أيضاً وكيل النيابة المحقق والنائب العمومى السابق.

سيبقى هذا الإجراء فخراً وعلماً على قدسية العدالة وسمو قضائنا ونزاهته. فهنيئاً لك يا عبد اللطيف بك أنت وحمدى بك وخليل بك.. كان البوليس السياسى وقتذاك أداة للدس وخادماً للمستعمر وللشهوات الحزبية وما عهد بدر الدين وفلبيدس وقضية القنابل منا ببعيد.. ومن سخرية القدر أنهم أحاطوا أنفسهم وأعمالهم بقدسية خافها الجميع و وافق عليها الجميع أيضاً.. ولطالما فاحت من أوراقهم أبشع الخيانات والفضائح.

لقد كان درساً بليغاً ذلك الذى لقنته المحكمة لأولئك القوم سيذكرونه وسيذكره الجميع.

٣٠ يناير ١٩٤٨:

ويجعل الله بعد عسر يسراً..

إلى هذا الوقت كان وجه القضية مظلماً يحيط به الغموض، ولكننا الآن نضحك ملء أفواهنا وبكل قلوبنا لأول مرة فى هذا المكان.. فقد أنزلت المحكمة قضاءها العادل بالعابثين.. إننا نضحك ونبكى فى وقت واحد..!!

يارب إنها هستيريا الانتصار بعد ظلام الهزيمة.. لم يعد يهمنا حكم المحكمة أيا كان. فقد طابت نفوسنا لهذا الحكم الابتدائى.

٢٠ فبراير ١٩٤٨:

استخف بنا الفرح فنظمنا أمس لأول مرة مهرجاناً نفَسنا فيه عن نفوسنا كرباً كان حبيساً مكتوماً - وكم يطيب لى أن أروى فى هذه الصفحات وصفاً لهذا المهرجان «الهستيرى» لعلى أتمتع بقراءته فى الخارج فى يوم من الأيام:

كان المهرجان سهرة فى قصر هارون الرشيد واشتركنا جميعاً فى وضعه وتمثيله وإخراجه والاستمتاع به فى آن واحد..!

وكان توزيع الأدوار كالآتى:

أنور السادات: هارون الرشيد (الخليفة).

حسين توفيق: السياف عبد الله.

السيد خميس: القهرمانة وكبيرة القيان.

سعيد توفيق: كبير الحجاب.

مدحت فخرى: شهر زاد الراقصة المغرية.

عمر أبو على: إسحق الموصلى.

أحمد وسيم.

محمد كريم.

فتيات الكورس.

الجوهرى: بائع اللب.

مراد: الخواجة ورئيس وفد الفرنجة.

وتبدأ السهرة بأن يشير الخليفة إلى القهرمانة لتدير العزف والغناء فيرتفعَ صوتها هى وفتيات الكورس فى توشيح جميل:

بالذى أسكر من خمر اللمـا   كل مسجون أسيف وحبا

والذى أجرى دموعى عندما   أخـرج... والظلـم سوا

ويطرب الخليفة فيستعيد النغم مثنى وثلاث ويطرب الحضور فيندفع الجميع فى جو كله طرب وحبور.. ثم يهدأ الجو، ويشير الخليفة إلى القهرمانة لتغنى أحدث ألحان الموصلى قائلاً فى نشوة:

«اطربينا ياقهرمانة وابعثى فى الجو أشهى الألحان».

«وليغن القيان وليحرق البخور فى أرجاء المكان».

فتنحنى القهرمانة أدباً وخضوعاً، وفى حنان ورقة يرتفع الغناء فيعم الأرجاء:

جـــاء الخليفـــة جانــا   والسعد أهـو ويانا

فـى مجلســه حيانــا   وبخمــرته سقانـا

وتأخذ القهرمانة والقيان فى ترديد النغم على مختلف الألحان والموصلى يهتز للأوزان فيأخذ الطرب بمجامع الخليفة فلا يتمالك من أن يندفع ويرد على القيان:

أنا جيت لكم واللّه ياولاد   أنا أحبكم أوى أوى ياولاد

أنا جيت لكم أنا جيت   دا الاتهام لخبيط !!

وترتفع فى الجو النشوة ويتمايل الخليفة يمنة ويسرة ويعم السرور ويعبق البخور.. وهنا يدخل كبير الحجاب مستأذناً فى دخول وفد الفرنجة ليقدم الهدايا للخليفة فيأذن. ويدخل رئيس الوفد والمجلس كله وقار وسكون، والخليفة معمم بعمامة الخلافة الشاهية.. ويقدم رئيس الوفد للخليفة هداياه النفيسة من السجاير المعدومة فى مملكة الخليفة، ثم يطلب باسم عاهل الرومان عقد معاهدة تحالف وإخاء.. فيقف السياف عبد الله معارضاً فى هذه المعاهدة «ويزوم» الحضور ويزمجرون، ويطلبون إلى الخليفة ألا يتعاون مع الأجانب الذين لا يحفظون العهود ولا يحترمون الحدود. ويدير الخليفة المناقشة فى هدوء، ولكن يندفع السياف طالباً السماح له بقطع رقبة رئيس وفد الفرنجة.. وفى نفس الوقت ترتفع فى المكان أصوات تقول «اقلب.. اقلب.. بلدى» فلا يسع الخليفة إلا أن يشير إلى القهرمانة فتندفع هى والقيان فى لحن بلدى:

طل على الحليوة من طجان البيت

جلت الجمر فى السما واش دلدله عالحيط

يا   يابوى   يابوى

ثم يعود الوقار إلى المجلس ثانية، ويهدئ الخليفة من روع القوم ويؤكد أنه لا يتعاون مع الأجانب إلا نداً لند على أساس احترام حدود الخلافة ويهدأ السياف وينصرف رئيس وفد الرومان مودعاً بالشتائم والسباب .

ثم طلب الخليفة إلى القهرمانة أحدث مواويل الموصلى التى تبعث فى النفس الصبر والسلوان فتنشد مع القيان:

نامت عيون وعين اللّـه ما نامت   مافى ولا شدة على مخلوقها دامت

وإن دامت الشدة ما يدوم صاحبها   راحت ليالى الهنا يالـهها دامت

هنا يطرب الخليفة ويستزيد وتنشد القيان وتعيد وتندفع الراقصة المغرية شهرزاد فى أحدث الرقصات على نغمات الموال ويصيح الخليفة من فرط النشوة:

هدهدونى   هدهدونى

اطربونى   اطربونى

ويردد الجميع كلمات الخليفة.. ويضج المكان بمختلف الألحان وتعيد القيان فى نشوة وحنان.. وينتهز بياع اللب هذه الفرصة فينادى على بضاعته بصوت نشاز فيأمر الخليفة بإخراجه من المكان. ويحل وقت العودة إلى الزنزانات فينتهى الحفل بين رنين الضحكات وباسم الثغور وبالغ البهجة والحبور.. وغضب السجانين وسك الأقفال!!

٢٠ مارس ١٩٤٨:

يسيطر المرح على الجو برغم التأجيلات المتوالية.. عاودنا نشاطنا السابق: فالقراءة على أشدها والكتب تنهمر علينا من الخارج، وعاد الطلبة من المتهمين يفكرون فى مدارسهم بعد أن أهملوا ذلك سنتين أو أكثر وكل يرسم لنفسه الطريق الذى سيسلكه عقب خروجه.. الروح المعنوية فى أقصى درجات ارتفاعها!

إنه الأمل بعد طول انتظار.. اللهم حقق لنا الآمال.

٣٠ مارس ١٩٤٨:

حدث اليوم أن كنا فى طابور الصباح فقدم إلينا المدعو عبد الله زيدان مساعد العشماوى، وجعل يحدثنا عن عمليات الشنق التى باشرها فى الأربع عشرة مديرية على حد قوله ثم داعبنا بأن أخذ يعاين رقبة كل منا ويصف له الحبل الذى يناسبه والمدة التى يستغرقها النبض.. وكان حديثه مدار دعابتنا طوال اليوم!

١١ إبريل ١٩٤٨:

ترافعت النيابة أمس واليوم، وقد استهل الاستاذ أنور حبيب مرافعته أمس استهلالاً خالداً هز مشاعرنا وأبهج قلوبنا ونحن جلوس فى قفص الاتهام، واليوم أتى النائب العمومى «لينسخ» ما قاله الأستاذ أنور ولكن هيهات.. لقد عاب على تشبيهات وردت فى حق الخليفة على لسان الأستاذ أنور وهى أننا شتمنا أكثر

من مــرة من منبــر برلمان الخليــفــة الموقــرة، ونسـى سنة ١٨٨٢ ونسـى فظائع المستعمرين ونسى أرواح الشهداء إلى اليوم!!

٢٤ إبريل ١٩٤٨:

بدأ الدفاع وهو آخر مراحل هذا الجيل من السجن والاتهام..

إبريل ١٩٤٨:

لأول مرة منذ أكثـر من سنتين سمحت النيابة للمرضى منّا الذين لا يجدون علاجاً فى السجن بالخروج تحت الحراسة للعلاج عند الأطباء الخصوصيين على نفقتهم الخاصة.. وأول من سمح له بذلك هو مدحت فخرى. وقد عاد اليوم يحدثنا حديثاً عجيباً.. لقد جلس على كراسى من الجلد.. وتناول قهوة باللبن عند الدكتور! وفى طريقه إلى العيادة رأى تكنات قصر النيل بعد أن آلت إلى أصحابها، ورأى السماء غير مخططة بقضبان الشبابيك وقال إنها واسعة والنظر إليها يبهج النفس!.. ورأى النيل.. ورأى.. ورأى.. مما أعاد القاهرة إلى أذهاننا بعد أن كدنا ننسى معالم الحياة فيها..!

يونيو ١٩٤٨:

فجأة.. ودون أن يعلم أحد هرب حسين توفيق!

لقد وصلنا الخبر أول ما وصل على وجه السجانين والضباط ثم انهالت علينا القيود والتشديدات وعدنا إلى سالف العصر والأوان.

لقد كان حسين شراً فى وجوده وشراً فى هروبه..! ففى وجوده كان خير من يثير عنيف المناقشات «وزعبرة» الجو بالتكهنات والخرافات.. ثم هرب فكان سبباً فيما نزل بنا من كبت وإرهاق!

اللهم سامحه والطف به وبنا..

٧ يوليو ١٩٤٨:

انتهى اليوم الدفاع وتأجلت القضية إلى جلسة ٢٤ يوليو للنطق بالحكم.

٨يوليو١٩٤٨:

بدأ اليوم رمضان.

ولرمضان فى النفس رهبة ونشوة.

فالرهبة وليدة التكريم الذى خص اللّه به هذا الشهر دون بقية الشهور، وهى وليدة المجهود الذى يبذله الإنسان فى مغالبة نفسه للتحكم فى شهواته.

وأما النشوة فهى وليدة الانتصار حتى يفطر الإنسان فى نهاية اليوم ويشعر أنه تغلب طيلة اليوم على شهواته وما تعرض له من مغريات.

والمزيج من هذه النشوة وتلك الرهبة كفيل بأن يشغل على الإنسان فكره وجنانه وحسه ووجدانه.. بحيث لا يبقى لغير هذين العاملين محل فى النفس.

ولكن..

حل علينا رمضان برهبته ونشوته والنفس مشغولة كأشد ما يكون الانشغال والقلب يتلهف.. والانفعالات تعتمل فى عنف وهدير.. ولا عجب فنحن اليوم على أبواب المصير.. لا أستطيع أن أصور ما سيكون عليه الحال خلال هذا التأجيل للحكم.. ولكننى جزع من طول هذه المدة.. جزع من فرط ما أخشى من الغيب.

ولكن. لمَ الجزع ولمَ الخوف يا نفس؟

ألم يقل سبحانه وتعالى «قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا»، أليست حياتى هذه من صنع الله وتيسيره، وهو الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما..

يانفس اثبتى ولا تضعفنك الدنيا، واعلمى أن الحكم للّه والأمر للّه..

واحتفظى بالقوة والعزة تعودى إلى ربك راضية مرضية وتدخلى جنته.

الجزء الرابع

«فى رأس برج بابل»

لا شيء يزعج النفس ويشغل القلب كالانتظار.. فنحن الآن في شبه غيبوبة، يتــراءى لنا الماضى بأطيافه وذكرياته وكأنها حلم يبتعد شيئاً فشيئاً، ويسيطر علينا فى حاضرنا شعور لا يمكن وصفه أو تحديده، فتارة هو مزيج من القلق والجزع وتارة هو المختلط بالأمل وتارة أخرى هو «تشكيلة» من عواطف متباينة جمعت هذا وذاك..!

والنتيجة أننا فى شوق ورهبة.. وخوف وقلق.. وجزع.. وأمل.. إنه الانتظار وقديماً قالوا عنه إنه «يورث الاصفرار»!!

١٢ يوليو:

عاد نظام «الشلّل» فأنا أرى الآن «شلّة» منسجمة يجلس أفرادها وحدهم حيث يتدارسون – على ما يظهر – أمرهم بعد الحكم.. فمنهم من يأمل فى الإفراج، ومنهم من ينظر إلى المستقبل نظرة سوداء، وبين هذا وذاك.. آخرون فى حالة «توهان» فبينما يؤلف مدحت وسعيد ووسيم ومحجوب «شلّة بيضاء» نجد عمرو والجوهرى وخميس «يندبون بشقافة»!

١٤ يوليو:

اطلقنا على وسيم لقب «ابن الناس الأكابر» لأنه طالما أطعمنا بأشهى الأطباق.. وأمس كانت إحدى هذه الأكلات الطيبة ورأينا أحدنا – وليس هو مدحت – يبكى وهو يأكل من فرط اللذة..! وقد دعونا اللّه أن يربط مصيرنا بمصير وسيم و«يانعيش سوا يانموت سوا»!!

١٧ يوليو:

اليوم طويل جداً ورمضان يزيده طولاً على طوله!

جلسنا أمس نفكر فى حالنا، وكلما مضى الوقت زادت الكآبة، وبينما نحن على هذا الجمود انبرى محجوب وقال: «اسمعوا ياجماعة سأروى لكم قصة شاب ستجدون فيها تسلية وطرافة وهى حقيقة فى كل حرف من حروفها.. فما رأيكم؟!».

وتوالت الاحتجاجات لا لشىء إلا للمعارضة ولما هدأت بدأ محجوب يروى القصة فقال:

«تبدأ قصة فتانا - واسمه شهاب - فى قرية هادئة من قرى الريف عندما يسمع الناس فى أحد منازلها صراخاً فيجتمعون ليعرفوا سببه وليقدم كل منهم ما يستطيع من مساعدة وفق التقاليد القروية السمحاء، فلا يلبثون أن يفاجأوا بالزغاريد ثم يقال لهم إن «الأفندى» ولد له ولد!! و«الأفندى» هنا هو والد شهاب إذ جرت العادة فى القرية أن يطلقوا هذا اللقب على المتعلم تكريماً وتمييزاً!

ويندفع القرويون وزوجاتهم كل يحمل ما تسمح به حالته ويدخلون الدار فى سباق، لأن «الأفندى» غائب فى جنوب الوادى فى عمله وتدخل القرويات على الأم يهنئنها ويبقى الرجال فى صحن الدار حيث تخرج إليهم القابلة تحمل المولود الذى لا ينفك عن البكاء والصراخ!

ويشب الطفل مع الأيام فلا يرى من حوله إلا الهدهدة والبساطة.. حتى إذا ما بلغ الرابعة أرسلته جدته إلى «كُتّاب» القرية ليتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن كما أمر أبوه. فيجفل أول الأمر من رهبة «العريف» و«فلقته» ولكنه لا يلبث أن يعتاد هذا المنظر على مر الأيام. بل أكثر من هذا يشتغل وجدانه ويطرب حسه حينما يردد النشيد الذى علمه إياه العريف والذى استقبل به أهل المدينة محمداً رسول الله ﴿ﷺ﴾ ومطلعه:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا للّه داع

ويبدأ خيال فتاناً يتفتح شيئاً فشيئاً، فكل ما حوله ينطق بالجمال والروعة، ويعود «الأفندى» من الجنوب ويصطحب أسرته إلى القاهرة حيث استقر. ويبدأ الفتى مراحل تعليمه وقد أورثه الريف بساطة فى الطبع وعمقاً فى الخيال واعتداداً بالنفس.. ويتدرج فى التعليم حتى يصل إلى نهاية الدراسة الثانوية وهو ما يزال ريفى الطبع نافراً من المدينة وزخرفها منكراً لزيف أهلها وتكلفهم. فما يكاد ينتهى من سنته الدراسية حتى ينطلق إلى الريف مهبط وحيه وغذاء خياله، وقد ملك عليه مشاعره ما سمعه من أبيه عن «نابليون» وعظمته الخالدة وكيف سطر تاريخه بحروف من البطولة والشجاعة وكيف رفع وطنه من خزى وتفكك وفرقة وانهيار.. فلم يلبث أن لقى مصيره المعروف.

وتلفت الفتى حواليه ليرى بلاده مغلوبة على أمرها وليطالع فى صحفها عجباً وفى كتب تاريخها ما هو أعجب.. ويشاء القدر أن يخر صديق له برصاص المغتصب وهو ينادى بعزة وطنه واستقلاله، فيثير هذا الحادث فى نفسه عاطفة جديدة هى الحقد على المغتصب حقداً يؤججه حبه العميق لوطنه.

ويشاء السميع العليم أن تطيب نفس الفتى فيلتحق بعد دراسته الثانوية بمعهد عسكرى أرضى ميوله ووافق هواه، وكان التحاقه به إيذاناً ببدء المرحلة التالية فى ميدان الحياة والكد. فما كادت دراسته فى ذلك المعهد تنتهى ويتخرج حتى بدأت شخصيته تتجدد وآماله تنمو وتتحدد فكان أول ما فكر فيه: كيف يوفق بين شخصيته ووضعه الجديد.. وبين أهدافه وآماله التى ثبتتها الأيام رسوخاً فى قلبه وزادها فساد الحال وثوقاً فى عقله - فانتهى من تفكيره إلى أن خدمة الوطن ممكنة فى كل وقت وعلى أى وضع. بل هى واجب حتمى على كل من أنجبه الوطن.. فراح يعمل فى هذا السبيل جاهداً وهو لا يخشى شيئاً لأنه اقتنع بأن الأرض وطنه وأن الكفاح عنصر أساسى فى حياة كل رجل، وأن أشرف كفاح وأطهره هو ذلك الذى يهبه خالصاً للوطن. ففضلاً عن أنه سبيل القوة والحق على الأرض فهو عبادة وحمد لوارث الأرض وواهب الحياة والموت.

وتمر الأيام وصاحبنا يعمل فى غير كلل لتحقيق مثله وأهدافه. ولكن عيناً خبيثة يهولها ما تراه من أمره وتخشى ما قد يصيبها من أهدافه فلا يلبث أن

يرى نفسه مسرحاً من سلكه-مرسلاً إلى «مكان ما» ليبقى فيه بلا حراك! وهكذا خسر منصبه وفقد حريته، فكان ذلك أول خطوة من خطوات المجد بينه وبين نفسه وسأكتفى اليوم بهذا القدر من القصة ياجماعة لأن موعد إغلاق الزنازين قد حان، ولكننى أعدكم أن أكمل لكم الجانب الباقى من هذه القصة غداً لتروا كيف استطاع صاحبنا أن يسوس الحياة ويجعل منها حلماً جميلاً وقصة هى فى مبناها ومعناها قصة الحق والقوة والجمال».

ووقف محجوب عند هذا الحد وكلنا شوق ولهفة لسماع بقية القصة حتى لقد ألح عليه بعضنا أن يكتب البقية ويرسلها إليهم فى الزنازين ليطالعوها ولكنه أبى ألا أن يصمت وجميع ألوان السباب تنصب عليه من فرط ما شوقنا..(١)

لقد مر اليوم شيقاً والحمد لله فاللهم الطف بنا فى الباقى.

٢٠ يوليو ١٩٤٨:

لم يستطع محجوب أن يتم قصة شهاب لأننا منذ يومين مشغولون بالأحلام التى هطلت كالمطر - ويظهر أن للحالة النفسية المسيطرة علينا الأثر فى تكاثرها!

فقد رأى مدحت فى المنام أنه يلبس ثياباً بيضاء ويركب حصاناً أبيض ويسير به الهوينى فى نادى سبورتنج، ولما التقينا رفض أن يكلمنا لأنه من «الأسياد» ونحن فلاحون.. ! وقد نال جزاءه على ذلك بأن فسرنا له الحلم ألعن تفسير!

رأى عمر فى المنام أنه «معزوم» فى مأدبة كبيرة فيها ما لذ وطاب ولكنه كلما مد يده ليتناول لوناً من ألوان الطعام تحول فى يده إلى لب أو حمص حتى «انقطع قلبه» على حد تعبيره، وفجأة رأى «العزومة» تنقلب إلى عنبر من عنابر السجن والطعام يتحول إلى «يمك» من يملك السجن فاستيقظ مهموماً متألماً..

ورأى محمد كريم فى المنام أنه قد نبت له ذيل وأنه كان يبكى خجلاً من أن يعرف زملاؤه ذلك.

---

(١) واضح من أحداث هذه القصة الرمزية أنها تروى حياة أنور السادات.. حتى دخل الكلية الحربية وتخرج ضابطاً.. ثم فصل من الجيش.

٢٢ يوليو:

في كل زيارة لأي متهم منا تأتينا أخبار عجيبة!.. فقد قيل أولاً إن المحكمة ستؤجل الحكم مرة أخرى لإتمام المداولة.. وكان هذا الخبر أشبه بالصاعقة.

ثم جاء خبر آخر أن الحكم سيؤجل إلى ما بعد فترة الإجازات وأن المستشارين قد بعثوا بعائلاتهم إلى المصيف.. وهكذا قضينا الأيام الأربعة الأخيرة في حرب إشاعات لا يعلم ما نعانيه منها إلا الله.

٢٤ مايو (مساء في حلوان):

«وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».. فقد قال القضاء كلمته وإذا هي تقرر أني برئ مما أرادوا أن يتهموني به.

وها أنذا أكتب هذه الكلمات من اللوكاندة ولا زال السجن يسيطر على فكري وحسي وخيالي..

إن في رأسي زحاماً كبرج بابل.. حتى أصبحت لا أستطيع الكتابة ولا استطيع القراءة ولا أستطيع حتى التفكير..

اللهم لك الحمد حتى ترضى..».

■■

انتهت المذكرات..



السادات..
عاشقاً للسينما والتمثيل!

فى حياة الرئيس السادات واقعة بسيطة تحولت بمرور الوقت وخاصة بعد وفاته إلى جريمة لا تغتفر!

لم تكن تلك الواقعة إلا حكاية ذهابه إلى السينما مساء ٢٢ يوليو ١٩٥٢ بصحبة زوجته السيدة جيهان السادات!

بعد رحيل السادات تحولت هذه الواقعة إلى خطيئة كبرى ارتكبها ودبرها حتى يكون بعيدا عن الشبهات لو فشلت الثورة !

بعد رحيل السادات وليس قبله تحولت الحكاية البسيطة إلى دليل اتهام لوطنية السادات وهامشية مشاركته فى الثورة!

وأنه ارتكب مصيبة سياسية ووطنية عندما شاهد فى حفلة تلك الليلة ثلاثة أفلام دفعة واحدة هى «لعبة الست» لنجيب الريحانى وتحية كاريوكا و«القطة المتوحشة» و«غرام ثائر» حسبما هو منشور فى صحف يوم ٢٢ يوليو فى باب أين تذهب هذا المساء!

■■

لكن ماهى بالضبط جريمة السادات؟!

إن قصة دخول السادات إلى السينما ليلة الثورة لم تكن سرا اكتشفه خصوم السادات بعد رحيله!

ولم يكن ذهاب السادات للسينما مع زوجته وثيقة سياسية خطيرة اكتشفها أحد المؤرخين بعد الرحيل!

كان السادات- لا خصومه - أول من أذاع القصة وكشفها وتندر بها على صفحات جريدة الجمهورية لسان حال الثورة فى حلقات نشرها بعنوان «صفحات مجهولة من كتاب الثورة» ثم صدرت فى كتاب اسمه «صفحات مجهولة» (نوفمبر ١٩٥٤).

فى هذا الكتاب توجد مقدمة هامة كتبها «جمال عبد الناصر» ولعل أهم سطور كتبها جمال عبد الناصر فى هذه المقدمة هى تلك السطور التى تقول: «إن شخصية أنور السادات لجديرة بالإعجاب، خليقة بالإطراء، فعبقريته العسكرية الممتازة وشجاعته ورباطة جأشه وإخلاصه وتفانيه فى خدمة المثل العليا إلى جانب قوة إرادته وتنزهه عن الغرض ورقة عواطفه، وميله الغريزى للعدالة والإنصاف ، كل هذه الصفات جعلته أهلا للقيام بدور هام فى التمهيد لثورة يوليو ١٩٥٢، والسير بها قدما فى سبيل النجاح».

هذه الصفات الرائعة هى ما كتبه عبد الناصر عن السادات، فلماذا كتبها عبد الناصر وسجل بيده شهادة تؤكد أن السادات يملك كل هذه الصفات الرائعة والنبيلة؟ وهو الذى كان يعلم بالقطع أن السادات، كما يشيع خصومه ذهب للسينما ليلة الثورة حتى يهرب من أداء دوره.

السؤال مهم لكن الأهم والأخطر، لماذا عندما صدرت طبعة جديدة من الكتاب بعد أربع سنوات اختفت هذه السطور على وجه التحديد من مقدمة جمال عبد الناصر؟!

ولنعد إلى دخول السادات للسينما وكما كتبها بقلمه فيقول بصراحة:

«لعلى لست مستطيعا أن أؤرخ تاريخ شاهد عيان للأيام التى سبقت ٢٣ يوليو مباشرة، فقد كنت فى رفح وعندما وصلنى الأمر من «جمال» بالعودة عدت مباشرة ولكنى لم أكن أفطن أن الحركة مدبرة فى الليلة نفسها، ولعل القراء

يدهشون إذ أروى لهم أنى جئت من السفر، وتوجهت مباشرة إلى إحدى دور السينما، فما أن عدت فى منتصف الليل إلى منزلى حتى وجدت إشارة التنفيذ، فلم ألبث لحظة واحدة، وإنما مضيت من فورى إلى القيادة، وهناك أصبحت نكتة تروى ونادرة يتندر بها الإخوان - فما أن يسأل واحد منهم فى أى من اجتماعاتنا- حتى اليوم- أين أنور؟ حتى يجد من يجيب: فى السينما!

إذن قصة ذهاب السادات إلى السينما لم تكن سرا.. بل كان يعرفها الجميع وعلى رأسهم جمال عبد الناصر وكل أعضاء مجلس قيادة الثورة، بل إن السادات نفسه كان ينتهز كل مناسبة لكى يرويها بتفاصيل جديدة ومثيرة.

وفى مناسبة الاحتفال بالعيد الثالث للثورة نشرت مجلة روزاليوسف تحقيقا طريفا عن ذكريات ثلاثة من رجال الثورة، وفى هذا التحقيق المنشور بعدد ٢٥ يوليو ١٩٥٥ قال *السادات* للكاتب الصحفى *إسماعيل الحبروك*:

كانت قد وصلتنى تعليمات سرية تقول إن موعد التنفيذ تقرر أن يكون فى المدة ما بين ٢٢ يوليو و٥ أغسطس، وكنت يومها مع صديقى حسن إبراهيم، وتولى كل منا من جانبه إبلاغ هذه القرارات إلى مندوبى الضباط الأحرار وعدت يومها من رفح، وأخذت زوجتى إلى سينما الروضة، وبعد انتهاء الفيلم عدت إلى البيت.. ووجدت ورقة من جمال عبد الناصر تركها لى بعد أن حضر عدة مرات ولم يجدنى، وكتب على الورقة « المشروع سيتم الليلة».

وقرأت زوجتى الورقة وسألتنى: مشروع إيه؟

مشروع كلية الأركان حرب.. انت مش عارفة إنى باعمل مشروع للكلية مع جمال عبد الناصر؟

ولم تقل شيئا فقد كانت شأنها شأن كل زوجات الضباط الأحرار، تعلم أن جمال عبد الناصر هو الوحيد القادر على انتزاعنا من بيوتنا وزوجاتنا وأولادنا بلا معارضة أو تردد!! «وخرجت.. ذهبت فورا إلى مقر القيادة بكوبرى القبة.. وكانت تحاصرها القوات المصرية، ولم يسمح لى الجنود بالمرور من الحصار واضطررت أن أدور، وأصل إلى الرباط الثانى من عنبر المستشفى. وعندما حاولت أن أجتاز الحصار قبض على الجنود، وظللت حائرا لا أدرى ماذا أفعل..

وفجـأة رأيـت عبـد الحكيـم عامـر وعبـد اللطيـف البغدادى وناديت عليهما فجاءا بسرعة وأطلقـا سـراحى واتجهنا جميعا إلـى مقر القيـادة حيث كـان جمـال عبد الناصر»..

انتهت رواية السادات المنشورة والتى رواها أكثر من مرة فى كتبه ومقالاته وأحاديثه التليفزيونية - خاصة فى عيد ميلاده -.

لم يكن السادات وحده هو الذى ذهب إلى السينما ليلة الثورة، بل ذهب أيضا عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة، ولم يكن ذلك سرا خافيا على أحد وكان الكل يعلم به أيضا.

عندما كان السادات يحكم مصر صدر كتاب مهم للكاتب الصحفى حمدى لطفى عنوانه: «ثوار يوليو الوجه الآخر» وفيه يعترف« عبد المنعم أمين».

«وذهبت إلى حفلة سينما سواريه.. وتركتها عند منتصف الفيلم، عدت إلى بيتى واستبدلت ملابسى، وتوجهت إلى رئاسة المدفعية، وقام كل منا بمهامه حسب الخطة».

■■

وهكذا طوال حكم السادات لم نقرأ لعبد المنعم أمين ما يشير من بعيد أو قريب إلى ذهاب السادات للسينما أو أية واقعة أخرى تدين السادات أو تشينه!

وتغير الأمر تماما بعد رحيل السادات، فقد عاد «عبد المنعم أمين» وقال:

أنور السادات أخطاؤه لا تحصى (٦٠٠ ألف خطأ).

وقال أيضا: يكفى أنه كان فى الحرس الحديدى ثم مع الثورة، ويقبل أموالا من الملك وليلة الثورة يذهب إلى السينما ولا يأتى سوى الثالثة صباحا بعد الثورة ما نجحت! وحين يلام أنور السادات فى مجلس الثورة يقولون له:

كيف لا تأتى؟

قال لهم: أنا لى وضع خاص.. أنا لو قبض على سأعدم، لكن أنتم سيحدث تحقيق معكم!!

جـاءت شهادة عبد المنعم أمين للزميل محمود فوزى فى كتابه «الضباط الأحرار يتكلمون» الذى سأله: أنت الآخر ذهبت للسينما ليلة الثورة. قل لى ما حكاية السينما مع أعضاء مجلس قيادة الثورة؟

وجاء رد أو تبرير وتفسير عبد المنعم أمين فى غاية الغرابة تماما وقال:

أنا ذهبت إلى السينما حتى الساعة الحادية عشرة والنصف وكنت موجودا بعدها!! أنا ذهبت حتى إذا سئلت قبل قيام الثورة أين كنت؟ فأجد الإجابة، وكنت في الوقت نفسه أريد أن أشغل عقلى بأى شئ ثم إننى لم أهرب .. الأمر يختلف كثيرا، أنا كنت فى نادى السيارات خصيصا لكى أظهر أمام الناس ثم ذهبت إلى السينما فى حفلة السوارية وخرجت في الحادية عشرة والنصف!

أنا لم أذهب للسينما إلا لكى أثبت وجودى، ولكننى لم أفتعل خناقة مثل «أنور السادات» فى محضر البوليس، ثم إننى لم أذهب إلى الثورة مثلما فعل أنور السادات، لا أنا ذهبت إلى الثورة واشتركت فيها ، غاية ما هنالك أننى كنت أغطى فترة ما، لو حدث فى الأمور شئ كنت أغطى موقفا من المواقف تماما مثل حكاية الهروب إلى المقابر التى اقترحتها على زوجتى فى حالة فشل الثورة وهروبى.

هكذا ببساطة مذهلة يحاول السيد عبد المنعم أمين أن يقنعنا أن ذهابه هو شخصيا إلى السينما كان ليشغل عقله بأى شئ. أما السادات فكان له ٦٠٠ ألف خطأ منها ذهابه للسينما!

■■

أما شهادة «محمود الجيار» عضو الضباط الأحرار ورجل جمال عبد الناصر وظله وموضع سره وخرزته الزرقاء وصديقه حتى آخر يوم فى حياته كما وصفته مجلة روزاليوسف وهى تنشر مذكراته على مدى ٢٢ أسبوعاً بعنوان «الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر».

فى هذه المذكرات التى نشرت – والسادات يحكم مصر– شن الجيار هجوما قاسيا على كل رجال عبد الناصر وأسماهم مراكز القوى بل إنه يقول: «بلغ من نفوذ الجماعة أنها عرفت بخطة عبد الناصر للخلاص منها ونجحت فى إعدام هذه الخطة بمجرد وفاته حتى لا يطلع عليها خليفته أنور السادات، وكان طبيعيا بعد وفاة عبد الناصر أن تكون تصفية هذه الجماعة بعض ما يشغل خليفته السادات طبيعيا أن يكون موقفى إلى صفه»..(روزاليوسف/٨ ديسمبر ١٩٧٥).

وطوال نشر المذكرات لم يذكر الجيار حرفا واحدا عن ذهاب السادات للسينما، لكن الأمر تغير تماما بعد رحيل السادات وعاد ليروى ذكريات جديدة على صفحات مجلة اسمها «أنباء الأسبوع» كان يصدرها الصحفى «مرسى نويشى» وقال الجيار:

«أتعجب ممن يتحدثون عن انتساب السادات ومشاركته للثورة، فهو لم يشارك بخطوة أو حتى بدقيقة من وقته، بل إنه قام بتأمين نفسه ليلة قيام الثورة تأمينا محكما بأن ذهب إلى السينما، وقام بافتعال مشاجرة وذهب إلى قسم الشرطة حتى يثبت بذلك ابتعاده عن الاشتراك فى الثورة، لقد افتعل هذه المشاجرة وكان فى قسم الشرطة الساعة الواحدة والنصف صباحا».

ويضيف الجيار قائلا:

«كان السادات على ما أعتقد فى العريش أو رفح، وتم استدعاء جميع الضباط الأحرار لتنفيذ الثورة يوم ٢٠ يوليو إلا أن أحدا لم يحضر فتم التأجيل إلى ٢١(!!) ولم يأت أحد منهم كذلك يوم ٢٢ وأتت إلينا أوامر بأن نترك وحداتنا ونذهب إلى منازلنا يوم ٢٣ فى هذا الوقت كان مقرر أن تنقل الكتيبة ١٣ إلى السودان ولكن تم تعطيلها وجندت الكتيبة ١٣ بضباطها للأشتراك فى الثورة دون علم قائدها أحمد شوقى(!!) ولما لم يأت الضباط الموجودون فى العريش ورفح والقنطرة أرسل إليهم حسن إبراهيم بطائرة يوم (٢١) يوليو وحضر جميع الضباط ما عدا«السادات» الذى لا نعرف كيف اختفى عنهم(!!) وكان يعرف أن عبد الناصر قد استدعى جميع الضباط فى منطقته بالطائرة.. وكان من الواجب أن يتوجه إلى عبد الناصر ليعرف لماذا استدعاه. لم يفعل ذلك بل ذهب إلى منزله واستراح ثم ذهب إلى السينما، على الرغم من ذلك ذهب إليه عبد الناصر فى منزله حوالى التاسعة مساء ولم يجده فترك له خطابا عند البواب ولم يعد أنور إلا حوالى الساعة الثانية والنصف صباحا وسبقته جيهان فى الدخول فأعطاها البواب خطاب عبد الناصر فقرأته ولم تسلمه له (ولاندرى كيف علم الجيار بذلك؟!) وكان واضحا به أن بداية التحرك ستكون من تلك الليلة لماذا؟ لأن زوجات حسين الشافعى وبغدادى والسادات يكرهن عبد الناصر لاعتقادهن بأن جمال يأخذهم للسهر وليس للاجتماعات، ولذلك لم تسلمه الخطاب وكان إصرار

عبد الناصر على إشراك السادات رغم علمه بموقفه لأن السادات كضابط إشارة كان سيتم تكليفه بالاتصالات فى تلك الليلة لأن «أمين شاكر» لم يحضر وكان أمين أكفأ منه»!

وبعد أن عرف.أنور السادات ذهب إلى القيادة وقبل أن يصل وعند أول نقطة حراسة فى العباسية لم يكن يعرف كلمة «سر الليل» فقام الحرس بالقبض عليه، وأرسلوه إلى المكان المعد وكان فى الكلية الحربية بجوار القيادة وسمع صوت عبد الحكيم عامر فنادى عليه وأخرجه...

إن شهادة الجيار تفتقد المصداقية ويشوبها روح الثأر والانتقام ولا أدرى سر التغير الذى جرى بين شهادته عن السادات عام ٧٥ وشهادته عام ٨٨.

وهل كانت شهادته الأولى عن السادات بالفعل، وشهادته الثانية عن عفريت السادات أم العكس؟

■■

والآن إلى شهادة نائب رئيس الجمهورية وعضو مجلس قيادة الثورة السيد «حسين الشافعى» بعد ١٢ سنة على رحيل السادات عن الدنيا، خرج السيد «حسين الشافعى» نائب رئيس الجمهورية ليقول عن دور السادات فى ليلة الثورة بكل ثقة مايلى:

لم يقم بأى دور إطلاقا، كل ما فعله هو إذاعة البيان فى الصباح بعد أن قمنا بكافة العمليات الأساسية وهو كان السبب فى تأخير الثورة يوما(!!) فقد كان عبد الناصر قرر أن يتم التحرك ليلة ٢١ يوليو، ولكن بسبب السادات تأخرنا لليلة ٢٢ يوليو». وكان أنور السادات مكلفا بدور بحكم أنه ضابط إشارة وهو «أن يقوم بتعطيل تليفونات القاهرة بحيث تتعذر عملية الاتصال بين الوحدات وبعضها، وكان حسن إبراهيم هو المكلف بأن يبلغ السادات ومن معه فى رفح بالحضور إلى القاهرة يوم ٢١ يوليو ولكنه - أى السادات - لم يحضر فأجل عبد الناصر التحرك يومها».

وفى الساعة الثانية والنصف من ظهر يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ كان عبد الناصر قد انتهي من وضع اللمسات الأخيرة فى خطة التحرك وشاركنا فيها، وكان ذلك

فى شقة خالد محيى الدين بشارع فوزى المطيعى بمصر الجديدة، ولم يكن معنا أنور السادات. أخيرا حضر أنور فى مساء ذلك اليوم وبدلا من المجئ إلينا ذهب للسينما وهناك افتعل خناقة وذهب إلى القسم وعمل محضرا ليثبت أنه كان موجودا وأنه متواجد فى السينما.

وهذا التصرف - كما يقول الشافعى له - معنيان فإذا أخذناه بحسن نية نقول إنه حدثت خناقة فعلا. وإذا أخذناه على الحمل الآخر نقول أنه افتعل الخناقة وعمل المحضر ليكون دليلا ماديا له يثبت به عدم مشاركته للضباط الأحرار إذا لم تنجح الثورة

وانضم إلى كتيبة الهجوم الرئيس الراحل محمد نجيب، ففى مذكراته:« كنت رئيسا لمصر» وصدرت بعد اغتيال السادات. فقد كتب مؤكدا أن السادت كان أكثر ذكاء من عبد الناصر وعبد الحكيم عامر. إذ دخل ليلتها السينما وتشاجر مشاجرة مفتعلة وحرر محضرا بالواقعة حتى إذا ما فشلت الحركة نجح فى الخروج منها كالشعرة من العجين.

لكن محمد نجيب كان له رأى آخر رواه والسادات كان لايزال رئيسا لمصر، فهو لا يذكر أية كلمة أو سطر عن ذهاب السادات للسينما. وكل ما يقوله هو «كان البيان الأول للثورة قد أذيع باسمى فى السابعة صباحا بصوت أنور السادات!».

عن أى سادات كان يتحدث «الشافعى» واللواء نجيب؟ هل كانا يتحدثان عن سادات ثالث لا نعرفه نحن المصريين؟!

ثم نأتى لشهادة مهمة كان السادات يكره صاحبها ويهاجمه علنا وهو خالد محيى الدين وفى مذكراته يقدم شهادته على بعض المسائل التى أثارت جدلا كبيرا فيقول:

واقعة أن أنور السادات أتى من رفح متأخرا ثم ذهب للسينما، وهناك تشاجر مع أحد الأفراد، وذهب إلى قسم البوليس وعمل محضرا بالخناقة، وعاد إلى البيت فى الواجدة والنصف بعد منتصف الليل ليجد ورقة من عبد الناصر تبلغه بضرورة الحضور.. فقد بدأت الحركة.

ويحاول البعض إلقاء بعض الظلال والشكوك على دور السادات فى الحركة، وقال البعض إن السادات أراد أن يثبت بمحضر بوليس أنه لا علاقة له بالحركة.. وتحليلات أخرى كثيرة.

«وفى البداية أقر أن أنور السادات كان على علاقة بيوسف رشاد رجل الملك المخلص.. لكن أنور السادات لم يفش سرنا له، ولو فعل ذلك لكن مصيرنا جميعا هو الإعدام، فقد كان السادات يعرف كل أعضاء لجنة القيادة ولو أبلغ عنا لكان وجه مصر قد تغير تماما، لكنه لم يفعل».

أما إنه قد حرص على تسجيل واقعة مشاجرته فى محضر البوليس، فلعل هذا مرتبط بخبرة سابقة للسادات، فقد حوكم أكثر من مرة، وفصل من الجيش، ولعله أراد تحصين موقفه بعض الشئ إن فشلت الحركة، ولا بأس فى ذلك، خاصة أنه فعلا لم يتخلف كثيرا، وأسرع ليسهم مع الآخرين فيما يفعلون، ثم تلا بيان الحركة فى الإذاعة».

■■

قبل وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢ لم يخف «أنور السادات» أسرار عشقه وحبه وهيامه بالفن عامة والسينما خاصة!!

بل إنه فى ليلة الثورة نفسها مساء ٢٢ يوليو ذهب أنور السادات مع زوجته السيدة جيهان إلى سينما منيل الروضة وشاهد فى تلك الحفلة الأفلام الثلاثة التى كانت تعرضها إدارة السينما.

كانت هذه الافلام الثلاثة - وحسب ما نشر فى جريدة «المصرى» فى باب «أين تذهب هذا المساء» هى على الترتيب:

«القطة المتوحشة» و«غرام ثائر» و«لعبة الست» (بطولة نجيب الريحانى وتحية كاريوكا)..

وكان مما لفت نظر السيدة جيهان فى تلك الليلة وسجلته بعد سنوات فى مذكراتها، أن السادات «كان أثناء الفيلم عطوفا أكثر من المعتاد واضعاً ذراعه حولى، لم أكن أتخيل ما الذى يجعله محبا إلى هذه الدرجة؟! وإن كنت طبعا لم أحاول أن أصرفه عن هذا».

ويشير «محمد حسنين هيكل» إلى أنه «عندما تقابل الرئيس أنور السادات مع الرئيس الأمريكي» «ريجان» لأول مرة في صيف سنة ١٩٨١ في واشنطن، قال لريجان أن أحد الأفلام التي شاهدها في تلك الليلة كان من تمثيله، وليس هناك من يستطيع أن يقطع على وجه اليقين ما إذا كان ذلك صحيحا أم أنها مجاملة اجتماعية من أنور السادات لصديقه الجديد «ريجان» وكان هذا هو الأساس لما قاله بعده ريجان وهو يرد على مجاملة السادات بمجاملة أخرى من عنده: «وهكذا كان لي دور في الثورة المصرية دون أن أعرف..»..

• وحسب شهادة الكاتب الامريكي البارز.. «ويليام كوانت» قوله: لم يكن الكثير معروفا في واشنطن عن السادات عندما أصبح رئيسا، أما ترجمة حياته التي أعدتها وكالة المخابرات المركزية فكانت أقل مدعاة للفخار، فقد أبرزت أن السادات توجه إلى السينما ليلة قيام الثورة المصرية، مما يعني ضمنا بأن هذا هو أسلوبه السياسي النمطي».

■■

كانت السينما هي متعة السادات الحقيقية قبل الثورة وخاصة أيام أجازاته من الجيش، وحسبما تقول جيهان السادات نفسها.. «حين يكون أنور في أجازة كنا دائما نذهب إلى إحدى دور السينما في وسط البلد، حيث نشاهد فيلما من الثالثة إلى السادسة بعد الظهر. ثم نذهب مباشرة لمشاهدة فيلم آخر من السادسة إلى التاسعة مساء».

وحول غرام السادات بالسينما يقول «موسى صبري»:

كان يحرص على مشاهدة الأفلام المصرية الجديدة، ولعله أخذ هذه العادة عن جمال عبد الناصر.

في الأشهر الأولى للثورة كان رجال الثورة يذهبون إلى دور السينما. ولكن بعد أن عرفت الجماهير صورهم، وبعد أن زادت أعباؤهم، كان ظهورهم في الأماكن العامة مستحيلاً.

وبدأ عبد الناصر يشاهد الأفلام في منزله، الأفلام الأجنبية والمصرية. وكذلك عبد الحكيم عامر.

وقبل حرب أكتوبر.. شاهد السادات جميع الأفلام الأجنبية التى صدرت عن الحرب العالمية الثانية. وكان يراجع الحقائق التاريخية العسكرية فى هذه الأفلام، مع الكتب التى وصفت المعارك. ولذلك كانت لديه خبرة ضخمة عن فنون القتال، وأشهر معارك التاريخ.

وفى بعض الأمسيات، كان السادات يشاهد فيلماً، وإذا كان عنده ضيف فإنه كان يدعوه إلى مشاهدة فيلم، إذا كان قد انتهى من موضوع لقائه معه أو إذا لم يستمتع بالحوار.

ومشهد السادات، وهو يرى فيلماً، يثير الألم!

نعم.. الألم! كان السادات يشاهد الفيلم فى المساء، فى قاعة كبيرة، أنشئت لاصقة بالاستراحة، لكى يعقد فيها الاجتماعات، كان يجلس على مقعد فى وسط القاعة المظلمة ليشاهد الفيلم وبجواره التليفون، وكان يوقف الفيلم إذا تلقى مكالمة هامة، المشهد مؤلم. تعبير عن الوحدة، القاعة كبيرة، ومظلمة، وبها شخص واحد.

ولكنه كان لا يبرم بهذه الوحدة».

■■

كانت المرة الأولى التى يشاهد فيها السادات السينما عندما كان طالبا فى السنة الأولى الثانوى، ورغم مرور سنوات طويلة فإن ذاكرة السادات لم تنس ما حدث فى ذلك اليوم، وكتب يصف ما حدث له فى مذكراته «البحث عن الذات» فيقول:

أول مرة دخلت فيها السينما فى حياتى، كانَ ذلك يوما عصيبا، فقد شاهدت قطار سكة حديد قادما من أقصى الشاشة ومندفعا بسرعة مذهلة نحوى. ماذا أفعل؟!

أغمضت عينى ورجعت بجسدى إلى الوراء، ولكن صوت القطار مازال يدوى فى أذنى فقيم الانتظار؟! قمت لتوى من مقعدى وبسرعة رهيبة اخترق الصفوف مهرولا فى طلب النجاة ولفت نظرى أن الناس كلها قابعة فى مقاعدها وكأن شيئا لم يحدث.. هذا شأنهم قلت فى نفسى.. ولكن بمجرد أن بلغت نهاية الصف.. وعنياى قد تسمرتا على الشاشة لم أجد القطار.. وجدت بدلا منه رجلا وامراة يتناولان الطعام فى مقهى صغير، فاخترقت الصف مرة أخرى وعدت إلى مقعدى.. أراقب الفيلم فى هدوء كما يفعل الآخرون.

ويعترف السادات قائلا: «كم انبهرت فى ذلك بما رأيت .. وكان من نتيجة انبهارى أن حجزت تذكرة الحفلة التالية من الساعة الثالثة إلى السادسة بعد الظهر . وتسمرت فى مقعدى لأشاهد القطار العجيب مرة أخرى.»

وكبرت أحلام «السادات» الفنية، وكان العمل بالسينما أحد هذه الأحلام التى راودته.

■■

ولم يكن عشق السادات بالفن والسينما والتمثيل سراً خافياً على أحد، بل إن السادات كان أول من كشف عن حكاية غرامه بالتمثيل فى مقال طريف ومثير كتبه ونشره فى جريدة «الجمهورية».

فى هذا المقال الجميل كتب السادات يقول:

«منذ فجر شبابى وأنا أحس بميل شديد للفن والفنانين وخاصة التمثيل ولى فى هذا المجال قصص كثيرة..

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٦، وكنت فى مدرسة «رقى المعارف» الثانوية وتكونت فى المدرسة فرقة تمثيلية كنت أنا ضمن أفرادها، بعد أن أديت الامتحان أمام المشرف وكان ممثلا محترفا جيء به لكى يشرف على الفرقة ولكى يعد الرواية التى ستقدمها هذه الفرقة فى نهاية العام الدراسى.

وأذكر أنه جاء بروايتين. إحداهما دراما والأخرى فكاهية، وأنه أعطانى «دورين» أحدهما فى الدراما، وكان اسمى فيه «جيروم» والآخر فى الرواية الكوميدية، وكنت أمثل فيه دور مأذون اسمه الشيخ «عزيز» ومازلت أحتفظ إلى اليوم «بالبروجرام» الذى طبع لهذه الحفلة وعليه صورتى!

وبعد أن أديت هذين الدورين فى حفلة المدرسة قرأت إعلانا تطلب فيه الفنانة «أمينة محمد» وجوها جديدة لفيلمها التى كانت تزمع عمله وهو فيلم «تيتاوونج».

وأذكر أننى توجهت إلى مقر الشركة فى عمارة بشارع إبراهيم باشا حيث جاءت الفنانة «أمينة محمد» واستعرضتنا جيئة وذهابا، وكنا أكثر من عشرين شابا انتقت منا اثنين وطلبت من الباقين أن يرسلوا لها بصورتين أحدهما«فاس» والثانية «بروفيل» ولم يكن هذا المطلب إلا زحولة»..

كان الإعلان عن طلب وجوه جديدة الذى يشير اليه السادات قد نشر فى مجلة «الفصول» التى كان يصدرها الكاتب الكبير. محمد زكى عبد القادر» وأرسل الشاب «محمد أنور السادات» ببياناته وصورته إلى مجلة «الفصول».

وتحت عنوان «الفيلم الجديد الذى تنوى السيدة عزيزة أمير إخراجه «صور الهاوين والهاويات» كتبت «الفصول» تقول:

نشرنا فى عدد الفصول الصادر فى أول إبريل الماضى نداء عن فيلم جديد خطير تنوى السيدة «عزيز أمير» إخراجه قريبا وطلبنا أن من يأنس فى نفسه الرغبة واللياقة للتمثيل السينمائى أن يتقدم بمؤهلاته ليشترك فى نوع التمثيل يميل إلى الكوميدى..

فودفيل، استعراض، ولكنه يترك هذا للمخرج».

وعلى صفحات مجلة «الفصول» التى كان يصدرها «محمد زكى عبد القادر» نشرت المجلة السطور التى بعث بها الشاب «السادات» وقال فيها بالحرف الواحد يقدم نفسه مايلى:

«أنور السادات» أفندى، كوبرى القبة شارع أبى وصيف رقم ٤، أنا شاب متقدم للبكالوريا هذا العام طويل، وسطى رفيع جدا وصدرى مناسب وسيقانى قوية مناسبة. لونى ليس كما فى صورتى لأنى أغمق من الصورة قليلا، أنا متحكم فى صوتى بمعنى الكلمة فتارة تجدنى أقلد صوت يوسف وهبى ، وتارة تجدنى أقلد صوت أم كلثوم، وهذه خاصيه أظنها نادرة»..

وحسب نفس المقال السابق يقول السادات:

«بعد ذلك أقلعت عن هذه الهواية فقد دخلت الكلية الحربية، وكنت دائما أحس فى نفسى الفخر والزهو بالجندية إلى أن شاءت المقادير أن أطرد من الجيش ولم أكن قد خدمت سوى أربع سنوات واعتقلت عقب طردى مباشرة حيث أمضيت أكثر من سنتين ثم هربت من المعتقل، وهنا كان على أن أمثل فعلا أدوارا حقيقية على مسرح الحياة وأنا هارب حتى لا يقبض على البوليس»..

ببساطة شديدة يقول السادات:

«كان على أن أمثل كل شئ وكل دور إلا الحقيقة.. مثلث مثلا دور سائق لورى، وجلست مع السواقين فى ندواتهم، ضحكت معهم كما يضحكون، وتحدثت اليهم بما يحبون، حتى التدخين فقد كنت أدخن نفس ما يدخنون وهى السيجارة. الهوليوود»..

كنت اشاركهم فى كل شئ. اذكر اننى فى يوم راحتى قمت بالسفر نيابة عن سائق زميل أصيب ببرد شديد ولما زرته فى غرفته المتواضعة طلب إلى أن أقوم بدله «بالنقلة» إلى الإسماعيلية، فقمت بها فعلا فى ذلك اليوم.

ومثلث دور الشيال، وفى كل هذه الأدوار كنت اكيف نفسى حسب الدور وأعمل الماكياج اللازم فكنت وأنا سائق أرتدى جاكتة وبنطلون عاديين وطاقية صوف ذات ركنين لكى تغطى أذنى!!

وكنت وأنا شيال أرتدى العفريته والأوفرول وعليها حزام. وهكذا..

ومثلث دور مقاول من مزغونة والحوامدية وكنت ما أن ينتهى عملنا عند غروب الشمس حتى أعود إلى الشقة التى كنت استأخرها فى «مزغونة» فأغتسل وأصلى ثم أنزل إلى القهوة مرتديا جلبابا فوق قفطان ومعمماً بشال فوق الطاقية حيث أحتسى الشاى والحلبة والسجابر «الهوليوود» وحيث أحلف أيضا بين فترة وأخرى أن يكون الطلب الفلانى للشلة الفلانية على حسابى!!

وإلى جانب هذه المتعة - كما يقول السادات فى نفس المقال - لم تخل حياتى فى تلك الفترة من مواقف حرجة وأنا أمثل!!

إننى أذكر هذا اليوم وكنت جالسا فى قهوة المحطة «بأبى كبير» وكنت أعمل وقتذاك مقاولا لنقل الطوب والدبش والزلط لمشروع ترعة الصاوى بأبى كبير، كنت فى ذلك الوقت أتسمى باسم الحاج «محمد نور الدين» ولى ذقن صغيرة وألبس «الجلابية» والقفطان والعمامة، وتصادف أن جلس معى على نفس الترابيزة مقاول آخر جاء للتعرف وكان قد حج فى نفس العام.. ويلذ للحجاج العائدين حديثا أن يتحدثوا عما رأوه من أماكن وأسفار حديثا شائقا إلى نفوسهم، ومقرونا أيضا بشئ من القداسة والبهجة لما لهذه الفريضة من عمق فى نفوس الناس.

■■

جلس صديقنا المقاول هذا يتحدث عن الحج، وبدأ يشركنى معه ويستشهد بى على أننى حاج وأديت الفريضة وذهبت إلى نفس الأماكن قطعا التى ذهب اليها ثم جاء دور الأسئلة..

ولا ينكر السادات أنه أحس بالحرج الشديد فهو وباعترافه يقول «لم أذهب إلى تلك الاماكن، صحيح أن اسمى الحاج نور الدين ولكن ذلك كله تمثيل فى تمثيل.. ماذا عساى أن أقول؟!! لم أجد بدا بعد أن بدأ يوجه الأسئلة من أن أتولى أنا الحديث لكى أسكته فلا ينكشف أمرى.. كل هذا فى لحظات!!

وبدأت أعصر فكرى علنى أستطيع أن أجمع شتات أى حديث عن الحاج مما أكون قد سمعته من حجاج أو مما قرأته عن الحج أو مما قاله صاحبنا هذا، فلم أجد. وأخيرا ومضت فى رأسى فكرة لم أتردد لحظة فى أن أنفذها، فلم يكن لى خيار فى الأمر!!

تذكرت فجأة إسطوانة أسمهان عن الحج «عليك صلاة الله وسلامه» وكنت أنا ومازلت من المعجبين بصوت أسمهان وبأدائها وكنت أحفظ أغانيها جميعا وبدأت فى الحال أتحدث بكلمات الأسطوانة فى إلقاء عميق وفيه خشوع حتى أسيطر على الجو وبدأت أقول:

ياسلام وامتى عينى تشوف منظركم تانى.. يامدنتين فوق الحرمين، وأطول كمان الله طلته، ودقت من زمزم يقين، ياسلام على المدينة ربنا ينولكم القبول..»

وهكذا أخذت أمضى فى الحديث – مع الاعتذار – طبعا للإستاذ بديع خيرى مؤلف الأغنية – إلى أن جاء قطار التاسعة فاستاذنت لكى اقابل زميلا قادما وتركتهم يمصمصون ويهمهمون من قدسية الحديث..

وأخيرا يقول السادات:

«أردت أن أورد كل هذه المقدمة الطويلة لكى أقول إننى أحس فعلاً وأنا بين الفنانين وخاصة الممثلين أننى أعيش بين أهل وأحباب»..

حتى فى التمثيل لا يقنع السادات بغير دور البطولة حتى لو كان دور البطولة لا يشاهده إلا مجموعة المعتقلين السياسين!!

وقبل عشر سنوات من قيام السادات بتمثيل دور «الخليفة هارون الرشيد» كان الطالب «جمال عبد الناصر» يقف على خشبة مسرح تياترو برنتاينا ليقوم بدور «قصير» فى مسرحية شكسبير الشهيرة «يوليوس قيصر»!!

وربما في نفس التوقيت كان هناك في أقصى الدنيا شاب أمريكي اسمه «رونالد ريجان» يقوم بالتمثيل في بعض الأفلام - صحيح أنها كانت أدوار ثانوية، لكن المهم أنه هذا الشاب نفسه أصبح بعد ذلك رئيسا للولايات المتحدة!! ولم تقم قيامة أحد !!

وعن ذوق السادات في مشاهدة أفلام السينما قالت السيدة «چيهان السادات»: «الرئيس يحب الأفلام الأجنبية وأفلام الكاوبوي - ورعاة البقر- بوجه خاص، ودائما كان يطلبها، وأجلس أنا معه إلى أن يندمج في الفيلم ثم أنسحب بهدوء» ..

■■

بعد فترة من قيام الثورة بادرت فرقة الريحاني للاحتفال بذكراه ، وحرصت الثورة على المشاركة في هذا الاحتفال، وأوفد «جمال عبد الناصر» نيابة عنه وجيه أباظة، أما عضو مجلس قيادة الثورة «أنور السادات» فقد ذهب بنفسه مشاركا ومتحدثا في هذا الاحتفال.

كانت كلمة «السادات» نابعة من قلب فنان مفتون وعاشق للريحاني، بدأ السادات كلمته بتحية مسرح الريحاني «نافذة الأحرار» وأضاف:

«نعم كان مسرح الريحاني دائما أبدا نافذة للأحرار يستنشقون منها عبير الحرية المنعش لأرواحهم. كان ذلك أيام سطوة الإنجليز وأثناء حدة استعمارهم وكان ذلك في ثورة عام ١٩١٩ وهم يعيثون في البلاد فساداً، في تلك الفترة الرهيبة من تاريخ الوطن كان الهتاف باسم مصر يتردد مدوياً عذباً من بين جنبات مسرح فرقة نجيب الريحاني، فقد كانت روايات الريحاني حينذاك دروسا في الوطنية والثورة على الاحتلال ووجوب الاتحاد والعمل لخلاص هذا الوطن من ربقة الاستعمار البغيض، من بين جنبات فرقة الريحاني وفي إبان ثورة ١٩١٩ دوت أصوات تدعو إلى وحدة عنصري الأمة من أقباط ومسلمين، وترددت ألحان تدعو إلى وجوب تكتل القوى والاتحاد للقضاء على العدو البغيض».

ومضى «أنور السادات» يقول:

«وتعالوا بنا بعد ذلك إلى عهد فاروق (الملك) إلى عهد الفسق والفساد.. عهد الرشوة والمحسوبية وحكم الخدم.. من كان يجرؤ حينئذ على أن يقول الحق أو

ينتقد؟! إن أكثر الكُتاب يطبلون للعهد ويزمرون ويضللون الرأي العام المسكين، أما هذا المسرح فقد أصر على موقفه، ولم يتنازل عن مثله الأعلى.. ظل كما كان جوقاً لهتاف الأحرار، ونافذة يستنشقون منها عبير الحرية. بل لقد جرؤ الريحانى على أن يعرض على مرأى ومسمع من «فاروق» قصة فساده وفسقه وظلمه فى مسرحيته الخالدة «حكم قراقوش» وأن يعرض على مرأى ومسمع من كل الطغاة المفسدين من الحكام قصة فسادهم وانحلالهم وارتشائهم فى أكثر من مسرحية، فقد تحدث عن فضائح الأوقاف فى مسرحية وتحدث عن مساوئ الإقطاع ومظالم الإقطاعيين فى أخرى.. وسخر من أبناء الذوات العاطلين المخنثين الذين لا عمل لهم فى كل مسرحية، وصور نواب الأمة الذين يتجرون بالنيابة، ولم يترك موبقة من موبقات العهد الماضى إلا أبدى رأيه الصريح فيها».

ثم يعترف «السادات» فى نفس كلمته فيقول:

إننى أعترف أمامكم بأننى كثيراً ما ضقت بالحياة وما أشهد فيها من مهازل ومخازٍ وكثيراً ما شعرت بأنى أكاد أختنق فى ذلك الجو المشبع بدخان الرزائل والخبائث والمفاسد.. فكنت لا أجد مهرباً ومنفساً إلا فى هذا المكان حيث أضحك ساخراً من المفسدين، وحيث تنطلق روحى هازئة منهم، منفسة عن آلامها وغلها وحفيظتها.

فلنحيى إذن ذكرى ذلك الثائر الساخر الذى هتف باسم مصر يوم كان ثمن الهتاف باسمها رصاصة فى القلب، والذى أحب وطنه فسخر فنه لخدمته، وسلام على ذكرى نجيب الريحانى المواطن الثائر.. ونجيب الريحانى الفنان الساخر.

■■

وما لم يقله السادات فى ذلك الوقت، أو بعد ذلك، لكننا عرفناه من مذكرات الرئيس اللواء محمد نجيب فقد كان نجيب. يشغل منصب قائد اللواء الرابع، والسادات يعمل ضابط إشارة، يقول اللواء نجيب:

«كان أنور يتمتع بروح الدعابة.. ويميل إلى تقليد الممثلين وقد قلد أمامى ذات مرة «نجيب الريحانى»!

لكن الصحفى الكبير «حسن إمام عمر»، الذى عرف السادات واقترب منه منذ بداية الثلاثينيات يقول:

«لمست حبه وعشقه للفن خلال دراستنا الثانوية فى مدرسة رقى المعارف عندما جمعنا فريق التمثيل بالمدرسة، وقد اشتركنا معاً فى عرضين مسرحيين أظهر فيهما تفوقاً جعل مدرب الفريق المرحوم «عبد القادر المسيرى» يثنى عليه كثيراً ويخصه بعبارات الإعجاب والتقدير لصدقه فى تصوير الشخصيات التاريخية والدينية التى كان يفضل القيام بها.

وكان - أى السادات - رئيساً لجمعية الخطابة التى كنت وكيلاً لها.. ومن هنا كانت الصداقة التى توطدت صلاتها بيننا على مر الأيام، خاصة بعد أن اشتغلت صحافياً فى مجلة «الصباح» التى كانت تهتم كثيراً بالشئون الفنية، وكنت بحكم عملى أتردد على جميع المسارح، وكان يحرص على أن يذهب معى إلى فرقة رمسيس بالذات.

وأذكر أنه شاهد مسرحية «أولاد الفقراء» ليوسف وهبى خمس مرات خلال عشرة أيام، فقد كان معجباً بموضوع المسرحية وبجرأة «يوسف وهبى» ابن الباشاوات فى نصرة الفلاحين والكادحين وتعرية الطبقة الأرستقراطية».

ويعترف «صلاح الشاهد» - كبير الأمناء - وكان زميلاً للسادات عام ١٩٣٢ فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالقاهرة فيقول: «كان السادات ممثلاً بارعاً تعلم التمثيل على يدى زكى طليمات وصلاح منصور».

وعندما تسائل الكاتب الكبير «أنيس منصور» عن علاقته بالسادات، يبادرك قائلاً: «علاقة قوية خلقتها الألفة»، وربما بسبب هذه العلاقة القوية التى خلقتها الألفة. فقد سمح السادات لأنيس بما لم يسمحه للآخرين من أصحاب الأقلام!!

والرئيس السادات - حسب كلام أنيس - لم يمانع أو يتردد، أو يرفض أن يسجل له أنيس مرة وهو يغنى أو يرتل القرآن.

لكن أخطر ما شاهده وسمعه أنيس منصور من السادات وجعله يقوله ويكتبه فيما بعد: «أن السادات كان ممثلاً بارعاً».

كانت مناسبة ذلك هى أن الناقد الفنى والمؤرخ «حسن إمام عمر» قال (لأنيس) إنه اشترك مع السادات فى التمثيل فى المدرسة، وأن السادات تقدم لكى يشترك فى فيلم من بطولة وإنتاج «أمينة محمد» وأنهم لم يجدوه - أى السادات - مناسباً للدور!!

ثم يروى أنيس هذه الواقعة التى كان شاهدها ومتفرجها الوحيد فيقول:

«رأيت الرئيس السادات فى تمثيلية نادرة، فقد جاء مذيع تليفزيونى اسمه «جورد اش» وعرض عليه نصاً مسرحياً مكتوباً، وكنت أنا المتفرج الوحيد. أما الذى صور هذه المسرحية فهو المصور التليفزيونى «محمد جوهر»..

النص عبارة عن حوار بين «ياسر عرفات» و«مناحم بيجين» وطلب المذيع من الرئيس السادات أن يقوم - مرتجلاً - بدور عرفات، ويقوم المذيع بدور بيجين ثم تبادلا المواقف مرة أخرى.

وتحدث الممثل «أنور السادات» بصوت ياسر عرفات يهاجم بيجين ويطالبه بأن يكون جاداً وأن يشترى السلام لشعبه وأرضه بأى ثمن، وبذلك ينتهى الصراع الدموى بين العرب واليهود فى المنطقة!

ثم عاد الممثل أنور السادات يقوم بدور بيجين متوجهاً بالحديث والنقد اللاذع إلى ياسر عرفات، قال الممثل «أنور السادات»: اسمع يامستر عرفات. إن عندنا أحزاباً كثيرة متشددة وهى لا تطيق أن تسمع اسمك وترى وجهك.. وخير لكم أن تقبلوا أى شىء أحسن من اليأس التام فى حل قضيتكم، وإذا كان الفلسطينيون قد اختاروك رئيساً لهم، فلن يقبلوا ذلك طويلاً إذا كان السير وراءك لا يقدم ولا يؤخر، فأنا أقترح عليك حلولاً مؤقتة وبعد ذلك حلولاً جزئية ثم تصفية تامة للحسابات الطويلة بيننا، ولكن حتى لا ندخل فى صراعات لا معنى لها: نحن لا نوافق على قيام دولة فلسطينية مستقلة أبداً، ونحن لا نوافق على أن يكون فى هذه الدولة جيش من أى حجم، وإذا كان لك رغبة فى أن تكون أكبر فادخل مع الأردن فى اتحاد فيدرالى، وفى هذه الحالة لن نسمح مطلقاً لجيش أردنى يهددنا وسوف نحارب هذه الفكرة إلى الأبد».

وصرخ المذيع الأمريكي «جورد اش» عظيم يامستر بيجين عظيم.. والآن نريد تعليقاً من الرئيس المصري «أنور السادات».

وفجأة اعتدل «أنور السادات» وأشعل البايب وقال:

«بلاش كلام فارغ انت وهو.. تعالوا نجلس معاً ونتكلم.. ونتناقش ونتفاوض أملاً في الوصول اليوم أو غداً إلى حل.. لابد أن يكون حلاً، والحل هو السلام القائم على العدل، ولكن قبل تحقيق السلام لابد من الحوار معاً، كفى انهض وجعت دماغي»!

ويختتم أنيس منصور حكايته المثيرة بسطر واحد يلخص كل المعنى والمغزى فيقول:

«وباعتباري المتفرج الوحيد أشهد أن السادات كان ممثلاً بارعاً»!!

وإذا كان هذا هو رأي أنيس منصور.. فإن «صلاح الشاهد» كبير الأمناء في عهد عبد الناصر والسادات يقول ببساطة: «كان السادات ممثلاً بارعاً تعلم التمثيل على يدي زكي طليمات وصلاح منصور».

■■

نعم بعيداً عن هموم السياسة ومشاغلها كانت السينما هي المتعة الوحيدة التي تبدد كل هذه الهموم!!

ولم يكن في الأمر جريمة أو مؤامرة أو مشاجرة، بل كل ما في الأمر أن «السادات» مثله مثل باقي المصريين عشق السينما ووقع في هواها مبكراً..

ولم يكن السادات وحده الذي أحب السينما بل حدث نفس الشيء لجمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر وغيرهما من نجوم ثورة ٢٣ يوليو!!.

في ذلك الزمن – قبل اختراع التليفزيون – كانت السينما متعة الجميع: الكبار والصغار، الحكام والصعاليك!!

لقد كتب جمال عبد الناصر على صفحات مجلة «آخر ساعة» ٤ مارس ١٩٥٣ في مقالة بعنوان «قصة أثرت على حياتي» ولم ينتبه الناس لدلالتها!!

يقول جمال عبد الناصر: «لقد كان من أقوى المؤثرات المعنوية في حياتي فيلم سينمائي أخرجه «فرانك كابرا» وأسماه «يالها من حياة رائعة». ولقد دخلت هذا

الفيلم ذات مرة من سنوات عندما عرض فى القاهرة فى حفلة الثالثة بعد الظهر. وخرجت بعد انتهاء الفيلم لأشترى تذكرة جديدة وأدخل لأراه مرة ثانية على الفور، وفى اليوم التالى عدت ومعى عبد الحكيم عامر لأراه للمرة الثالثة!

ولو استطعت أن آخذ معى كل مواطن إلى دار السينما التى كانت تعرض هذا الفيلم لما ترددت. ولقد كنت أكثر الناس شقاء، لما علمت أن عرض الفيلم قد انتهى قبل أن يمضى عليه أسبوع لأن الجماهير أعرضت عنه! ولقد كان من أول الأشياء التى فعلتها بعد حركة الجيش أنى اتصلت بالشركة التى أنتجت هذا الفيلم أطلب نسخة منه وجاءت النسخة بالفعل وهى تعرض الآن في معسكرات الجيش».

ولم يهاجم أحد «جمال عبد الناصر» لأنه دخل السينما ليشاهد فيلماً واحداً لثلاث مرات، لكن «السادات» وحده هو الذى استحق الهجوم واللوم!



السادات..
وســـنوات الظـل !!

لم يكن «أنور السادات» شخصاً عادياً فى نظام عبد الناصر، ويكفى أن نتذكر المسئوليات والمناصب التى تولاها من عضو فى مجلس قيادة الثورة إلى رئيس لمجلس الشعب إلى نائب لرئيس الجمهورية.

وكان كل رؤساء الوزارات الذين اختارهم «أنور السادات» فى مدة ولايته وحتى الآن أقطاباً فى عهد «عبد الناصر»: «محمود فوزى» رئيس الوزراء قبل ١٥ مايو ١٩٧١، وبعده إلى نهاية تلك السنة، ثم «عزيز صدقى» من بداية سنة ١٩٧٢ إلى منتصف ١٩٧٣ حين شاء الرئيس «أنور السادات» نفسه أن يتولى رئاسة الوزراء استعداداً للمعركة، ثم «عبد العزيز حجازى» بعد حرب أكتوبر ومع محاولة التوجه للانفتاح بعدها.

إن «أنور السادات» لم يتوقف عن القول وبطريقة قاطعة بأنه مسئول مع «جمال عبد الناصر» فى كل قرار، ولم يكن «أنور السادات» ليقول بذلك ويقطع به لو أنه لم يكن صحيحاً، وفضلاً عن ذلك فلقد كان أنور السادات هو الرئاسة الثانية دستورياً فى مصر بعد عبد الناصر بحكم رئاسته لمجلس الشعب معظم سنوات عهد عبد الناصر، وحين ترك رئاسة مجلس الشعب فقد ولى بعدها منصب نائب رئيس الجمهورية وهو الرئاسة الثانية عملياً فى أواخر عهد عبد الناصر، وحين قدم أنور السادات نفسه إلى

الأمة بعد عبد الناصر لرئاسة الجمهورية فلقد كان أول كلمة قالها: «لقد جئت إليكم على طريق جمال عبد الناصر».

كان «أنور السادات» مسئولاً بالممارسة.. أو كان مسئولاً بالصمت! وقد رفض الرجل بشجاعة وأمانة حجة المسئولية بالصّمت وأعلن أنه اشترك مع جمال عبد الناصر فى رسم كل سياسة واتخاذ كلْ قرار.

هذه السطور كتبها ذات يوم الكاتب الكبير الأستاذ «محمد حسنين هيكل»، وقد رددها واستشهد بها أثناء تحقيقات المدعى الاشتراكي معه عام ١٩٧٨.

صحيح أن «السادات» تولى هذه المناصب كلها، لكن الصحيح أيضاً أن زعامة عبد الناصر التاريخية بما لهامن مكان ومكانة لم تسمح لأى مسئول بجواره بأن تسعى إليه الأضواء والأخبار.

كان عبد الناصر طوال ١٨ سنة ملء السمع والبصر، وعاش الآخرون بجواره وفى ظله سنوات من الظل!

■■

كان اسم المهندس «سيد مرعى» من أهم الأسماء السياسية سواء فى عصر جمال عبد الناصر أو عصر أنور السادات، وقد عاصر عن قرب بحكم اقترابه من القمة الكثير من الأسرار والحكايات.. عن السادات يقول «سيد مرعى»:

علاقتى بأنور السادات «تعود إلى السنوات الأولى للثورة»، حيث قابلته لأول مرة فى منزل الاستاذ «إحسان عبد القدوس» رئيس تحرير «مجلة روزاليوسف» وقتها، وكان منزل «إحسان» فى تلك الفترة المبكرة من الثورة هو فى الواقع أشبه بمنتدى صغير لكبار ضباطها، حيث إن جميع الضباط لا ينسون لإحسان حملته المشهورة فى روزاليوسف عن الأسلحة الفاسدة التى أعطيت للجيش المصرى فى حرب فلسطين. وكانت للحملة أصداء مدوية داخل الجيش، وكان بعض ضباطه يمدون إحسان بالبيانات أسبوعاً بعد أسبوع لكى يستمر بها فى حملته.

وكان أحد هؤلاء الضباط الذين ربطتهم صداقة عميقة بإحسان عبد القدوس فى تلك السنوات ما بين ١٩٤٩-١٩٥٢ هو أنور السادات، الذى لم يفصح لإحسان مطلقا عن سر الثورة برغم صداقتهما العميقة.

ويمضى المهندس «سيد مرعى» قائلا:

هكذا التقيت إذن بأنور السادات - عضو مجلس قيادة الثورة - لأول مرة فى بيت إحسان بالقصر العينى فى إطار الصداقه العميقة والعائلية التى تربطهما معا.

وفى ذلك اللقاء الذى كان فى سنة ١٩٥٣ على ما أذكر، لفت نظرى أن «أنور السادات» بعكس كثيرين من الذين شاركوا فى الثورة وأعدوا لها يتميز بروح عميقة من البساطة والهدوء والتواضع والريفية التلقائية، وهى الصفات التى شدتنى إليه من البداية. فكان يكفى أن يقال عن شخص إنه من «ضباط القيادة» لكى يسير بين الناس زعيما، ويعامله الناس على هذا الأساس.

ولكن أنور السادات - كما يقول سيد مرعى - لم يكن أبدا من هذا النوع. إنه الرجل الذى أعلن بيان الثورة الأول، وهو الرجل الذى شارك فى إعدادها وعضو فى مجلسها، ويعرف أسرار ما يجرى خلف الكواليس.. ومع ذلك فإنه يجلس ويقضى وقته بين أصدقائه كمجرد صديق بينهم، صديق تألفه وتحبه وتعتز ببساطته منذ الدقيقة الأولى.

ولقد شاءت مسئوليتى عن الإصلاح الزراعى منذ يومه الأول، وبُعد أنور السادات من البداية عن المناصب التنفيذية ألا تنشأ بينى وبينه علاقة عمل مباشرة طوال السنوات التالية.

ولكن من ناحية أخرى - فإن تقارب منزلينا فى حى الهرم قد جعلنا نتزاور كأصدقاء فى جميع الأوقات، خصوصا وإنه كان يمارس من البداية رياضته المفضلة - وهى المشى - فكان شيئا عاديا أن أذهب إلى منزله بغير موعد.. أو يأتى هو إلى منزلى بغير موعد.. كما كان شيئا طبيعيا أيضا أن تتبادل أسرتانا الزيارات وأن تنشأ علاقة عائلية عميقة وودية منذ تلك الفترة.

لقد اختلفت ظروف كل منا فى الحياة بعد ذلك، فلقد بقيت أنا فى الوزارة فترة وابتعدت عنها فترة، وأنور السادات من جانبه كان فى قمة المسئولية حينا، وبعيداً عن المسئولية حينا، ومع ذلك فلقد كان رباط الصداقه الوثيق قد تأكد بيننا بحيث إن تلك العلاقات العابرة فى الحياة العامة لم تعد هى الأساس، وإنما الأساس هو ذلك الرباط الأكثر عمقا معه «الود والمحبة والصداقة».

■■

كانت المرة الأولى التي يعمل فيها «سيد مرعى» مع السادات عام ١٩٦٤ عندما انتخب السادات رئيسا لمجلس الأمة، كما أن السادات هو الذى بادر بترشيح سيد مرعي ليكون وكيلا للمجلس.

عن هذه الفترة تأتى شهادة «سيد مرعى» كما يلى فيقول:

فى تلك الاثناء استطعت أن أرى أنور السادات عن قرب وأراه لأول مرة كوكيل له في ممارسته لمسئولية برلمانية من الدرجة الأولى.

فى تلك الفترة بدأت شخصية أنور السادات العامة تكتمل فى ذهنى مع شخصيته الخاصة التى أعرفها من قبل.. ومن امتزاج الشخصيتين أستطيع أن أقول إن هذا الرجل يتميز ببساطة مدهشة فى حياته تجعله فى الواقع أقرب إلى مجتمع الريف منه إلى مجتمع المدينة الذى يبدو أن السادات لم يحبه أو لم يتوافق معه من البداية!

إنه يعيش حياته ببساطة وهدوء وعمق.. وهو كتوم إلى درجة توحى لأصدقائه بالثقة وتوحى لأعدائه بالحذر، كما أنه يتميز بنوع غريب من الصبر لا يدركه إلا كل من تربى فى الريف ، إنه الصبر الذى يعرف الصديق أنه نوع من الإيمان، بينما يتصور العدو أنه نوع من الضعف.

وهو- أى السادات – فى الأحوال العادية لا يثور ولا ينفعل كثيرا، ولكنه إذا انفعل فهو انفعال بركان لا يتوقف.

إن أنور السادات لا يؤمن أبداً بتصيد الأخطاء لمعاونيه، بل يمنحهم فرصة بعد فرصة إلى الدرجة التى قد يتصور فيها البعض أنه لا يتابع الموضوعات متابعة تفصلية، ولكن حينما تأتى لحظة الحساب فإنهم يكتشفون فجأة إنه كان متيقظا تماما من البداية، بغير أن توحى انفعالاته الخارجية بذلك.

وفى الأزمات كان «أنور السادات» يفاجئنى بطبيعة باردة وهادئة تماما تكاد تتناقض على طول الخط مع انفعاله الزائد ضد الظلم.. ويبدو الأمر لحظتها كما لو أن هذا الرجل قد أجهد نفسه مرة فى التفكير فى هذه الحياة مرة واحدة وانتهى إلى قرار.. بحيث إن حالة من الزهد فى المنصب والسلطة قد جعلته يسمو

فوق تلك المعارك اليومية الصغيرة التى قد يخوضها غيره رغبة فى سلطة أكثر أو هروباً من سلطة أقل.

وينتقل «سيد مرعى» إلى رصد سمات أخرى فى شخصية السادات فيقول:

يتميز أنور السادات - كشخص عام وخاص معاً - بذاكرة مدهشة تفاجئ أصدقاءه وأعداءه على السواء، إنها ذاكرة مرتبة وحادة، وتختزن تفاصيل كاملة لأحداث لا يستطيع الإنسان تذكر أكثر من خطوطها العريضة. وحينما يتناقش الإنسان معه، فإن السادات يتخذ فى البداية موقف المستمع إلى الدرجة التى يتخيل فيها المتحدث أن أنور السادات ليس فى حالة استماع ولكن ربما فى حالة سرحان(!!) ولا يزول هذا الانطباع إلا بسؤال أو تعليق من جانبه يعيد المناقشة إلى جوهر الموضوع.

ويضيف «سيد مرعى» قائلا:

«كان طعامه قليلا جدا، ومن عادة الرئيس فى الأيام العادية بخلاف شهر الصيام أن يتناول إفطاره فى الصباح ثم لا يتناول شيئا إلا فى السابعة مساءً وكانت هذه وجبته الرئيسية، ولذلك فإن وجبته كانت قليلة ساعة الأفطار فى شهر رمضان، وكنا نحاول أن نجعله يقبل بشكل أكثر على الطعام.»

■■

تحت عنوان «كيف عرفت السادات؟» كتب «عثمان أحمد عثمان» يقول:

«كثيرا ما أجد من يسألنى عن علاقتى بالرئيس السادات.. كيف بدأت؟ وكيف تطورت؟ ولماذا توطدت؟

ولا أجد ما أقوله إلا أن هناك مجموعة أشياء صغيرة بسيطة فى شخصية الرئيس السادات مكنت له فى قلبى، قد لا يراها أحد غيرى، ولكن لأن حياتى كلها نتيجة لأشياء صغيرة أدركتها مبكراً قبل أن يدركها غيرى، استطعت أن أمسك بالأشياء البسيطة فى شخصية الرئيس السادات، وأخذت أتأمل أبعادها، فكانت صورة واضحة أصبح لها مدلول عندى، ليس هو المدلول الذى يمكن أن يراه أحد غيرى».

بعد ذلك يبدأ «عثمان أحمد عثمان» فى بناء صورة بالكلمات للسادات كما عرفه عن قرب فيقول:

«سمعت كما سمع غيرى صوته وهو يعلن أول بيان لثورة ١٩٥٢، لم يعلن فيه عن اسمه، وعندما أعلنت أسماء وأعضاء مجلس قيادة الثورة، لم أجد فى الأسماء ما أعرفه إلا اسم «محمد أنور السادات» الذى كنت قد سمعت عنه وتعاطفت معه منذ الأربعينيات!

وطنى أحب مصر وكافح من أجلها، قدم للمحاكمة بتهمة اغتيال «أمين عثمان» وتعلقت بذلك الضابط - السادات - فى ذلك الوقت مترقباً أخباره إلى أن نال البراءة»

وعاش السادات خلال مراحل كفاحه الأول فترة من الزمن فى الإسماعيلية لم أره خلالها، وإن كان قد روى لى الكثير عنها فيما بعد.. وكثيراً ما يقوم إلى زيارة تلك الأماكن، وكثيرا ما يصطحبنى معه اليها كلما دفعه حنينه لأن يتأمل بداية تاريخه!!

وأذكر ذات مرة فى شهر رمضان بعد موعد الإفطار أننا ركبنا معاً سيارة صغيرة كنت أقوم بقيادتها، وكان يجلس إلى جوارى وسرنا فى اتجاه السويس، وكانت توجد عند فايد مقهى أشار لى بيده عليها وهو يقول لى:

كثيراً ما جلست ياعثمان على هذا المقهى!!

وطلب منى أن نتوقف بالسيارة لكى يمضى بعض الوقت ليسترجع بعضا من ذكريات كفاحه الأول، وكان يجلس على المقهى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ولم ينتبه أحد إلى أن الجالس على المقهى إلى جوارهم هو الرئيس أنور السادات.

وحضر فى تلك اللحظة إلى المقهى بالصدفة أحد الشيوخ من زبائنها القدامى فتعرفَ على الرئيس من الوهلة الأولى، وبادر بمصافحته وعرفه بنفسه، وراح يعيد على مسامعه شريط ذكريات كانت له معه..

كان كل منهما سائقاً على سيارة نقل، كانت تقوم بنقل الخضراوات من القاهرة إلى فايد، وذكر الرجل الرئيس وقتها برقم السيارة التى كان يقودها

عندما قال له : أنت ياحاج محمد كنت تقود السيارة نقل الإسماعيلية رقم ٦٠٩ وكم كان الرئيس سعيداً بذلك الرجل، ولكن حديث الذكريات لم يستمر كثيرا. حيث تنبه الحاضرون فى تلك اللحظة إلى أن الذى يجلس بينهم هو الرئيس السادات فتزاحموا عليه وأقبل معظم أهل فايد للاحتفاء به ، ولم يجد الرئيس فى تلك اللحظة بدا أن يغادر المقهى مضطراً من شدة إقبال المواطنين عليه، بعد أن كان قد عاش ربع ساعة مع أغلى الذكريات!»

■■

ويكمل «عثمان أحمد عثمان» باقي ذكرياته عن السادات فيقول:

لم أر الرئيس فى الاسماعيلية فى ذلك الوقت، لكننى رأيته فى بورسعيد عقب العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦، عندما شرعت الدولة تعيد تعمير مدينة بورسعيد، وحضرت من السعودية لكي تشارك شركتي فى ذلك العمل الوطنى الكبير.

والتقيت هناك بالسادات، وكانت أول مرة فى حياتى أراه فيها، وأتعرف عليه عن قرب، وعرفت أنه كان يسكن إلى جوارى فى شارع الهرم. قمت بزيارته فى منزله وكان لتلك الزيارة قصة.

يقول عثمان إنه تصور أنه ذاهب لزيارة عضو مجلس قيادة الثورة. حيث كان هؤلاء الأعضاء فى ذلك الوقت ذوى شأن كبير ونفوذ وسلطان ليس له حدود..

تصورت أن الرئيس السادات واحد من تلك النماذج، لذلك فقد «تنشيت» كما يقولون، ولبست «اللى على الحبل» ورسمت نفسى بما تيسر من وسائل الاناقة لأكون على مستوى مقابلة عضو مجلس قيادة الثورة.

وفجأة تغيرت الصورة التى كنت قد صورتها لنفسى عندما فتح لى باب منزله بنفسه وهو يرتدى «الجلباب» وجدت نفسى أمام رجل بسيط.. عادى جداً.

استقبلنى كما يستقبل أى مواطن من أبناء شعبنا الطيب الأصيل ضيفا فى بيته

وعندما دخلت إلى حجرة الاستقبال وجدت نفسى فى بيت كأى بيت من البيوت العادية التى أزورها من بين بيوت أقاربى وأصدقائى، وجلس معى وهو يرحب بى أكثر من مرة، ثم قام وقدم لى التحية بنفسه، وراح يسامرنى ويسأل عن أولادى وصحتى وأحوالى.

رجل ريف بكل مـا للكلمـة من مـعنى، وبلا أدنى تكلف فى أى شئ، وجـدت نفسى فى منزل رجل فلاح خلع رداء الجاه والسلطان فى مقر مجلس قيادة الثورة قبل أن يعود!

وجدت أن ارتباطه بالريف وتجسيده لهذا الارتباط، وصل إلى حد أن أثاث منزله يضم «طبلية» لاتزال موجودة عنده حتى الآن، ليست للزينة أو للديكور أو للذكرى، ولكن لا يحلو له أن يتناول طعام غذائه فى منزله وسط أولاده إلا على الطبلية وخاصة فى شهر رمضان.. يجلس كعادة الفلاحين ويلتف حوله باقى افراد أسرته يأكلون من طبق واحد!!

ويعلق «عثمان أحمد عثمان» على ذلك بقوله:

لم يكن ذلك المشهد، مشهداً عاديا لرجل مثلى، ولا يمكن أن يمر دون أن أقف عنده فوراء هذه العادة قيم كبيرة وكثيرة لم تكن «الطبلية» إلا رمزاً! لها!

كان بيته بسيطاً مثله! بل كان منزله قديماً لا يصلح لأن يكون مسكناً مناسباً لرجل مثله، ولكنه اختاره وعاش فيه، وكان يستطيع أن يقلبه رأساً على عقب ويعيد بناءه وتزيينه بالديكورات كما كان يفعل غيره ولكنه لم يفعل..

وأذكر أنه كلفنى ذات يوم بإدخال بعض التعديلات على منزله، وتصورت فى بداية الأمر أنه يريد تغيير معالم البيت إلى قصر فخم ضخم، وقد فوجئت عندما اصطحبنى لأقوم بالمعاينة على الطبيعة.. عندما وجدت تلك التعديلات لا تتعدى «تفضيل بلكونة» بالزجاج بدلا من تركها مفتوحة مما يتسبب فى تعرضه لبرد الشتاء هو وأولاده!!

واندهشت من الطلب، ولكن لم أعبر عن ذلك الاندهاش وكتمته فى نفسى ليتحول بعد ذلك إلى إعجاب بتواضعه وبساطته، وكان أن قمت بتنفيذ ما طلبه منى، وحسبت التكاليف فوجدتها ستين جنيها، وقبل أن أغادر المنزل سألنى:

– كم كانت التكاليف ياعثمان؟!

فقلت له: كلها أشياء بسيطة يافندم!

فأصر على أن يدفع التكاليف بالكامل، تصرفت أنا على اعتبار أنه ابن بلد والمسألة لا تساوى، ولكنه أدرك ما فاتنى. إنه تصرف على اعتبار أنه كان قد أقام حداً فاصلا بين كونه فلاحاً ريفياً، وبين أنه واحد من قادة الحكم ولا يريد أن

تختلط الأمور مع بعضها، لذلك داعبنى ضاحكا ليخفف مما يمكن أن يتركه الموقف من أثر فى نفسى وهو يقول لى:

- مش مهم تكسب فى العملية دى، زى بعضه.. بس لابد أن تأخذ ما دفعته.

قبلت التكاليف، ولكننى أكبرت فيه ذلك التصرف الذى شدنى اليه أكثر وقويت الصلة بينى وبينه منذ ذلك الوقت. خاصة بعد أن عرفت أنه رجل مؤمن شديد الارتباط بربه، وكان أن تكررت الزيارات العائلية بيننا، وبدأت تتوطد صداقة حقيقية لاهدف منها إلا الأخوة فى الله والوطن.

وشهد على عقد قران إسماعيل «ابن شقيق الدكتور ابراهيم عثمان واختيه» على اعتبار أننا اتخذنا منه أخاً لنا، وأصبح بالنسبة لنا كبير عائلتنا الصغيرة «آل عثمان» كما هو كبير عائلتنا الكبيرة مصر كلها!

ويضيف «عثمان أحمد عثمان» مؤكداً:

كانت الصداقة بينى وبينه فى ذلك الوقت كما هى الآن- وقت كتابة المذكرات - على أروع ما يكون وجعلنا الاختلاط العائلىْ إخوة وأشقاء، وكان ما بيننا يسمح له بأن يتحدث معى فى أى شئ.

وكان يعرف أن نظام الحكم السابق سيقوم بتأميم شركتى، وكنت فى زيارة له قبل أن يصدر قرار التأميم بعدة أيام ولم ينبهنى أو يلفت نظرى حتى ولو من بعيد، ليس لأنه لايريد أن يفاتحنى فى ذلك الأمر، ولكنه كان أمينا على السر ولم يذعه لأقرب أصدقائه. مع أنه سيتأثر به مباشرة، ولكنه اعتبر ذلك السر ملكاً لصاحبه، وأذكر عندما ذهبت إليه بعد التأميم لأسأل عن إجابة للسؤال الذى يحيرنى:

لماذا أممونى؟!

قال لى: ياعثمان أنت رجل وطنى وشريف، وأطلب منك أن تستمر فى عطائك لبلدك فأنت تعطى مصر ولاتعطى أحداً، وعموماً ياعثمان فهذه أشياء سوف تنتهى، وعليك بالصبر ولاتترك مصر!!

■■

لا أدعى معرفة بالسادات ولا دوره فى ثورة يوليو ١٩٥٢ أو دوره فى تنظيمات الضباط الأحرار، فهناك من هم أكثر اتصالا منى بهذه الفترة وأكثر قدرة على تناول هذا الجانب من حياته.

هكذا يبدأ «محمد عبد السلام الزيات» شهادته عن «السادات» ثم يروى بعد ذلك أن كل ما تعيه ذاكرته عن السادات قبل الثورة هو اتهامه بالاشتراك فى حادث مقتل أمين عثمان عام ١٩٤٦، ثم ما تردد عنه فى بداية الثورة من أنه كان عضواً من أعضاء الحرس الحديدى، وأنه اشترك فى محاولة اغتيال مصطفى النحاس باشا..

ثم يضيف «الزيات»: ولم أسمع الكثير فى السنوات الأولى من الثورة - غير ما كان يسمعه غيرى من أنه ظل لعبد الناصر تجده حيث تعود دائما أن يكون - منذ بداية الثورة - على وقع خطى عبد الناصر.

كان البعض يطلق عليه اسم «البكباشى صح» ذلك لأنه يعلق على كل رأى أو قول لعبد الناصر بكلمة «صح» حتى قيل إن عبد الناصر كان يسخر منه بالقول: لو أنه يغير من طريقه التعبير عن موافقته بدلا من ترديد كلمة «صح» لكان ذلك أخف على أعصابى»!!

والعبارة الأخيرة التى ينسبها الزيات لجمال عبد الناصر لم يسمعها منه مباشرة لكنه سمع الآخرين - ولايهم من هم هؤلاء - يقولونها(!!)

ويعترف «الزيات» بأنه التقى بالسادات لقاءات عابرة عندما استدعانى عبد الناصر كشخصية برلمانية متخصصة، ليستفسر منى عن الاستعدادات لافتتاح أول مجلس أمة سنة ١٩٥٦، وعن بعض الأوضاع والإجراءات التى تلازم مثل هذه المناسبة.

ولم أعرف السادات شخصيا إلا عندما أصبح وكيلا لمجلس الأمة الأول، وكانت معرفتى به محدودة أيضا، كما كانت أحاديثى معه عابرة مقتضبة، ولمست خلال هذه الفترة أنه يكاد يكون منصرفاً عن أعمال المجلس، وأنه قليل التردد على مكتبه رغم الأزمات المتتالية التى كانت تتطلب تدخله كعضو مجلس قيادة ثورة، وكصديق لعبد الناصر.

لم يكن هناك ما يبرر انصرافه عن أعمال المجلس وندرة تردده عليه غير ما سمعته في ذلك الحين من أن السادات كان مرشحا لرئاسة المجلس، ثم عاد عبد الناصر وسحب هذا الترشيح، وعهد إلى «عبد اللطيف البغدادى» برئاسة المجلس مما ترك في نفسية السادات جرحاً بالغاً(!!)

كانت شخصية البغدادى طاغية ومؤثرة على سير أعمال المجلس. الأمر الذى لم يترك مجالا لظهور السادات في أى حدث هام من الأحداث التى مرت على المجلس في ذلك الحين.

ثم يروى «الزيات» تفاصيل خلاف دستورى جرى أيامها، وهدد «البغدادى» بإثارة الخلاف في جلسة علنية ثم يستقيل ويعلق الزيات قائلا:

قدرت ما في هذا الأمر من خطورة وانعكاسات على استقرار النظام، وسارعت إلى مقابلة السادات وكيل مجلس الأمة ونقلت اليه هذا الخبر وقلت له إن الأمر يحتاج إلى تدخلك لتدارك ما يسفر عن ذلك من نتائج!!

وكان رده غريباً إذ قال إننى لست طرفاً في هذا الصراع، ولا أريد أن أكون طرفاً فيه، والبغدادى حر في أن يستقيل أو لا يستقيل(!!)

قلت له إن إثارة مثل هذا الموضوع في جلسة علنية ليس من مصلحة أحد، ولا بد من وجود شخصية تحاول أن تطوق الموضوع، وستكون أنت رئيس الجلسة التى يحتمل أن يتحدث فيها البغدادى، وكان رده أعجب فقد سألنى:

- هل أنت مع عبد الناصر أم مع البغدادى؟

وعجبت أن يكون قياس الأمور الخطيرة من جانبه بهذا الميزان - مع أو ضد، ويزول عجبى بعد ذلك من تتابع الأحداث، وخاصة بعد إمساكه بكل السلطات بين يديه. فقد أصبح شعاره: من ليس في ركابى فهو ضدى ولاشئ بين هذا وذاك!!

■■

وأصبح أنور السادات رئيساً لمجلس الأمة من فبراير ١٩٦٤ إلى نوفمبر١٩٦٨. ويقول الزيات عن هذه الفترة:

وثقت علاقاتى معه، خاصة بعد أن عينت بترشيح من جمال عبد الناصر أمينا عاماً لمجلس الأمة:

ويضيف الزيات: «إلى جانب علاقات العمل توطدت العلاقات الشخصية بيننا، وتزاورنا عائليا، حتى لم يكن يمر يوم - خارج العمل - دون أن نلتقى. نلتقى فى منزله فى الهرم أو فى منزلى المتواضع (الدكان كما كان يسميه) فى الدقى..

قامت بيننا علاقة أخوية. بل كان يعتبرنى - كما كان يقول - أقرب اليه من أخويه عصمت وطلعت السادات، لأنه لم يلق - على حد قوله - من أخويه غير المتاعب وعدم الوفاء.

كان يلجأ إلى حتى فى أخص خصوصياته العائلية - ويسألنى الرأى فيها أو فى حل بعض مشكلاتها، يكفى أن أشير تعميماً إلى ذلك دون الدخول فى أية تفصيلات. قال السادات إنه لم يعرف السعادة العائلية إلا يوم أن أنجب «جمال» (الابن الذكر الوحيد) وأنه قاسى أياماً صعبة خوفا عليه، فقد ظل بين الحياة والموت أياماً طويلة فى ناموسية(هكذا كان يقول لى) من الأوكسجين!

وكان- السادات - يكرر القول إن جمال هو امتدادى الوحيد فى الحياة!! كان اليأس يملؤه، ويردد دائماً أمام عبد الناصر يومى قبل يومك ياريس، وصيتك جمال!!

كنت أشعر فى أحاديثه التى كانت تستطيل بيننا بمرارة فى أعماقه. فقد كان يعتقد أنه أحق من غيره من زملائه ومن «البغدادى» الذى تولى قبله رئاسة مجلس الأمة، وكان يسر إلى بنفس المرارة بالنسبة لجميع زملائه. فقد تعرض - على حد قوله - للموت مرات وعاش متنقلا بين المعتقلات والسجون، كان يقول طردت من عملى فى الجيش، وتسولت عيشى، وحرمت من ضروريات الحياة، وكان غيرى ينعم بالبيت المريح وبالأسرة والحياة السهلة، لديهم كل شئ وازدادوا بعد الثورة راحة وتميزاً على تميز وبقى هو فى مكانه.

قلت له مرة: ولكنك الآن رئيس مجلس الأمة، وهذا مركز الرجل الثانى:

رد على: إن مجلس الأمة مجرد ديكور!!

وقلت له إنه يستطيع أن يحول المجلس إلى أكثر من ديكور، وإن هذا هو واجبه وإنه قادر على أن يفعل ذلك، ولكننى كنت فيما يبدو أحمله أكثر من طاقته!

■■

ما أكثر الحكايات التى ملأ بها «عبد السلام الزيات» كتابه عن السادات، وهى كعادة كل المذكرات العربية مكتوبة على طريقة « ماقاللى وقلت له» وكل ذلك يدور ويحدث بين اثنين أحدها مات والآخر هو الذى يروى لنا بعد أن مات الأول وشبع موتاً!!

وهذه احدى حكايات «عبد السلام الزيات» حيث يقول بالحرف الواحد:

فى مناسبة الانتخابات التى جرت.. فى ١٩٦٦ لرئاسة الجمهورية فقد أرسل عبد الناصر كتاباً لرئيس مجلس الأمه يلفت النظر فيه إلى قرب انتهاء مدة رئاسته للجمهورية، ويطلب من المجلس إعمال أحكام الدستور الخاص بترشيح رئيس الجمهورية، وما كاد هذا الكتاب يعلن حتى توالت الوفود على مجلس الأمة وآلاف البرقيات من مختلف الطوائف ومن مختلف أنحاء الجمهورية مطالبة بترشيح عبد الناصر، وفودلا تنقطع ليل نهار!

واحتجب السادات فى منزله بدعوى المرض، وغاب « سيد مرعى» وكيل المجلس عن الظهور فى الصورة وتركونى وحدى أمام هذا السيل من الوفود، ولم ألبث أن فهمت أسباب الاحتجاب، قيل وقتها إن هناك أزمة بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، «عامر» يريد أن يجرى ترشيحه نائباً لرئيس الجمهورية بنفس الطريقة التى يجرى بها ترشيح رئيس الجمهورية والاستفتاء عليه. لاعن طريق التعيين من رئيس الجمهورية! كما أن حسين الشافعى، وكان فى ذلك الحين أمينا عاماً للاتحاد الاشتراكى، كان يرى أن تتوجه هذه الوفود إلى الاتحاد الاشتراكى وليس إلى مجلس الأمة!

وكما يروى «الزيات» فقد آثر السادات كعادته الابتعاد انتظاراً لما يسفر عنه الخلاف، ولم يكن أمامى إلا أن أسعى إلى إجراء اتصال مع عبد الناصر، وعرضت عليه الموضوع، واقتنع بأن المجلس هو المكان الطبيعى، وأن مهمة المجلس فيما يتعلق بالترشيح لا تنتهى إلا بعد الاستفتاء وأداء الرئيس لليمين الدستورى أمامه، وعاد «السادات» و«سيد مرعى» لاستقبال الوفود!!

ثم ينتقل «الزيات» إلى رواية حكاية أخرى كان بطلها السادات فيقول:

فى الإعداد لجلسة أداء اليمين الدستورية - بعد أن وافق الشعب فى الاستفتاء على اختيار عبد الناصر - قال لى السادات إنه يريد أن يكون خطابه فى هذه المناسبة متميزاً عن أى خطاب ألقاه قبل ذلك.

أعددت له الخطاب، لم تكن الكتابة عن عبد الناصر صعبة، ولكن الجديد كان قصة «عبد الناصر» مع الديمقراطية، وكيف اختلف مع الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار فى ٢٧ يوليو ١٩٥٢ بعد نجاح الثورة بأيام قليلة، حول أسلوب الحكم الذى يتعين أن تلتزمه الثورة الديمقراطية أم الديكتاتورية.

واحتوى الخطاب على دفاع عبد الناصر عن الديمقراطية فى هذا الاجتماع .. وانتهت مراسم جلسة أداء اليمين الدستورية، وبارح «عبد الناصر» مبنى المجلس، ورأيت بعد ذلك منظراً مثيراً فقد وقف «عبد الحكيم عامر» مع السادات بعيدا ووجهه محتقن وهو يشوح بيديه ثم ينصرف مسرعاً من مبنى المجلس، ودخلت على السادات فى مكتبه فوجدته فى حالة فزع وتهالك قال:

لقد هددنى عبد الحكيم عامر!! ياريتنى ما قلت هذا الخطاب.. عبد الحكيم غاضب ولن يحضر حفل أم أكلثوم(وكان المجلس قد أعد حفلا كبيراً فى جامعة القاهرة احتفالا بهذه المناسبة فى نفس اليوم).

وكعادته قال السادات: أنا رايح ميت أبو الكوم ولن أعود منها أبداً!!

قلت له: كيف تذهب إلى ميت أبو الكوم وأنت صاحب الدعوة الليلة، هل نلغى الحفل؟!

- قال : أنا مقدرش أواجه عبد الحكيم بعد الآن!!
- قلت له: اتصل بعبد الناصر؟!
- قال لى : حاتصل به من البيت!

وانصرف السادات من المجلس، ولم يتوقف عن الاتصال بى تليفونيا :-

أنا مش عارف اتصل بالريس ولا بعبد الحكيم.

ويكمل الزيات الرواية وما جرى بعدها فيقول :

أشعرنى- السادات - فى أحاديثه بأننى المذنب، وكان الوقت يمر بسرعة، وكنت أعرف أن عبد الحكيم كانت له بطانته ومن بينها عضوان فى مجلس الأمة كانا صديقين لى: كامل عبد الهادى ومحمد عبد الصمد من أعضاء المجلس عن محافظة عبد الحكيم عامر (المنيا)، أخذت سيارتى وذهبت إلى منزل كامل عبد الهادى فى الدقى، وطلبت منه أن يصطحبنى إلى بيت عبد الصمد وهو فى الدقى أيضاً فلم نجده، فقلت لكامل:

- إننى أريد بأى صورة أن أقابل المشير لأمر هام جداً.

وتوجهنا إلى منزل المشير فى الدقى ولم أكن قد زرته فى حياتى، كان المشير يستريح بعد أن يتناول غداءه، وانتظرت فى الصالون الكبير وأنا أتحسب لهذه المقابلة - تمت أو لم تتم - ألف حساب!

وخرج إلى كامل عبد الهادى يدعونى إلى الدخول على المشير فى غرفة ملحقة بالصالون وتركنى مع المشير وخرج إلى الصالون الكبير.

كان المشير شخصية لها طبيعتها الاجتماعية، يمكن أن تقبل عليه من أول لقاء وترتاح إلى الحديث معه، وهو بشوش دائما ومنطلق بلا عقد، قابلته قبل ذلك وسافرت معه مرة فى زيارة لليمن للمشاركة فى الدراسات التى تجرى لتنظيم دولة اليمن بعد الثورة.

بادرنى عبد الحكيم قائلا:

أنا عارف انت جاى ليه.. جمال عارف وكلنا عارفين انك انت اللى بتكتب خطب السادات!!

قلت له: ياسيادة المشير علشان كده أنا جايلك!

حدثنى عن السادات، ولا أسمح لنفسى أن أقول ما قاله. لأننى لا أستطيع أن استشهد به فهو فى رحاب الله، وأكتفى بالقول أن الحديث كله كان يدور على أنه هو - أى المشير - الذى أشرك السادات فى الثورة وفى تنظيماتها وأن أغلب زملاءه كانوا يعارضون انضمامه إلى اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار بسبب ماضيه فى خدمة السراى وفى خدمة النازى، ثم قال:

وأنا عارف السادات مجاش ليه؟!

واستدرك - المشير - قائلا:

لازم أنت لسه ما اتغدتش؟!

فقلت ضاحكا: باين لا حاتغدى ولا حاتعشى بعد كده؟!

وانتهى الحديث بأن وعدنى بأنه سيحضر الحفل وانه سيتصل بجمال لاصطحابه إلى الحفل.

وكما يقول «الزيات» فقد خرج من عند المشير الساعة السادسة مساء ليزف البشرى إلى السادات، وليتوجه بعد ذلك إلى جامعة القاهرة ليشرف على الاستعدادات للحفل.

■■

وينتقل «الزيات» إلى عام ١٩٦٦ عندما زار «السادات» أمريكا فى أول زيارة له وكان رئيسا لمجلس الأمة، ويحكى الزيات:

لم يكن السادات ليبدى رأيا فى مثل هذا الموضوع إلا بعد الرجوع إلى (الريس) وهو اللفظ الذى كان يستخدمه دائما فى حديثه إلى «عبد الناصر» شخصيا أو تليفونياً أو فى حديثه عن عبد الناصر ولم أسمعه طوال سنوات عملى معه يتحدث عن «عبد الناصر» باسم جمال مجرداً..

وبدلا من أن يرفع هو الأمر للرئيس طلب منى أن أعد مذكرة بالموضوع مقدمة منى شخصيا إلى الرئيس، وبعد عدة أيام طلبنى السادات وأطلعنى على تأشيرة «الريس» وكانت التأشيرة «لامانع إذا كان الزيات مطمئنا إلى معاملة الوفد المعاملة المناسبة»!

وجلس الزيات والسادات يعدان أسماء أعضاء الوفد برئاسة رئيس مجلس الامة الذى هو السادات ثم يروى الزيات:

بعد أن أخطرت السفارة الأمريكية بأسماء أعضاء الوفد واتفقنا على موعد السفر طلب منى السادات أن أجرى اتصالات مع السفير الامريكى لسفر السيدة حرمه، وطبيعى أن يأخذ هذا الموضوع وقتاً لأن أساس الدعوة أن يكون المدعو ممن يشغل مركزا حكومياً ولم تكن السيدة حرم السادات تشغل فى ذلك الحين مثل هذا المركز»

واهتم الرئيس عبد الناصر بسفر هذا الوفد، وقرر أن يسافر مترجمه الخاص«سليم رزق الله» ليكون إلى جانب السادات!

ويكمل الزيات:

«وجدت صعوبة فى حجز جناح لنزول السادات وحرمه فى فندق هيلتون واشنطون. الذى كان من المفروض أن ينزل فيه، والأجنحة فى هذا الفندق محجوزة دائما لرجال الأعمال الأمريكيين حتى اتصل بى المدير قبل وصول الوفد بيوم واحد، وأخطرنى أن هناك جناحاً سيخلو، ولكن ذلك لن يكون إلا فى موعد لاحق لوصول الوفد بساعة أو ساعتين، ومهدت الأمر بحيث يبطئ سائق السيارة التى تقل السادات وحرمه من المطار حتى يصلا إلى الفندق بعد خلو الجناح»!!

وقد كان هذا التباطؤ مسار تساؤل السادات بعد أن وصلنا إلى الفندق وعندما أفهمته السبب قال:

- يا محمد انت مابتفوتكش حاجة أبداً!!

وفى اليوم الذى حدد لمقابلة الرئيس «جونسون» ذهبت مع السادات حيث حضرت مع عدد من كبار موظفى البيت الأبيض مراسم الترحيب وأخذ الصور ثم انسحبت ليبقى السادات ومصطفى كامل (السفير المصرى) مع جونسون.

عندما دخلت إلى المكتب البيضاوى كان «جونسون» يجلس على كرسى هزاز!!

سأل جونسون كالعادة عن الرئيس عبد الناصر وعن الأحوال فى مصر.. و.. و..الخ

وأنتهت الرحلة وعاد الوفد البرلمانى برئاسة السادات إلى مصر ويقول الزيات:

«عاد السادات» إلى المجلس، وكان أول شئ يطلبه منى أن أكلف من يبحث له عن كرسى هزاز، مثل الذى كان يجلس عليه جونسون ورأيته فى البيت الأبيض، وانطلق موظفو المشتريات فى المجلس إلى السوق يبحثون عن مثل هذا الكرسى، ووجدوه أخيراً فى محل الغليون فى شارع قصر النيل، وأمر السادات بشراء كرسيين أحداهما للمكتب والآخر للمنزل!!

ولم يهتم السادات - يقول الزيات - بشئ قدر اهتمامه بهذا الكرسى، وكان يفضل دائما أن يجلس طوال وجوده فى مكتبه على الكرسى الهزاز ولا أدرى ماهو مصير الكرسى؟ هل مازال فى المجلس أو انتهى عهده بعد أن مضى راكب الكرسى الهزاز؟».

■■

واقعة أخرى طريفة وتدعو للدهشة يرويها «الزيات» فيقول:

مازلت لا أفهم كيف عاش «السادات» أيام الهزيمة حياته العادية وهو مطمئن كل الأطمئنان لا تبدو عليه أية انفعالات أو أحزان،

أرسل بأسرته إلى ميت أبو الكوم، وظل وحده فى منزله بالهرم، وفى الليلة السوداء ليلة ٦ يونيو ٦٧ صمم على ألا أتركه وحده فى منزله، وكانت هذه الليلة من الليالى التى فرض فيها الإظلام الكامل وحظر سير السيارات فى الطرق

العامة ليلا، لم أبال بهذا وقدت سيارتى إلى منزلى لأطمئن على أسرتى ثم عدت إلى منزله تحت إلحاحه الشديد.

كانت جروحنا دامية، ولكنه أمر بأن تعد مائدة العشاء، وكان الطبق الرئيسى زوجا من الدجاج - قال انه جاء به من البلد - وأخذ يأكل بشهية عجيبة، حتى كاد يأتى على دجاجة من الدجاجتين الكبيرتين، وهو يلح على فى الأكل وأنا أرفض فقد فقدت شهيتى للأكل بل حتى شهيتى للحياة!!

وفى الصباح ارتديت ملابسى ودخلت عليه فى الحجرة، فوجدت أن المدلك الذى يدلكه كل صباح يباشر عملية التدليك كعادته، ليحلق ذقنه بعد ذلك ثم ليباشر رياضته، ويأخذ حمامه الساخن أو البارد - لا أدرى - ويستعد بعد ذلك لتناول وجبة الافطار!

لم يغير نمطاً واحداً من أنماط حياته، وكأن الأحداث الخطيرة التى تمر بها البلاد لا تعنيه فى كثير أو قليل.

ألح على أن انتظر لتناول الافطار ولكننى تناولت فنجانا من الشاى وانصرفت على وعد بأن أعود، واعتذرت بكل الأسباب بعد ذلك عن إجابة دعوته، ولم أره إلى فى مساء ٩ يونيو!!

اتصل بى السادات تليفونياً وطلب منى الحضور إلى منزله فى الهرم لأسمع خطاب عبد الناصر معه، قلت له: إننى عازف عن الخروج!

ولكنه ألح على فى الحضور، وسمعت معه خطاب عبد الناصر الذى أعلن فيه تنازله عن رئاسة الجمهورية، وفاجأنى قبل انتهاء الخطاب بأنه كان مع «عبد الناصر» ظهر اليوم وأبلغه بفحوى الخطاب ونبه عليه بعدم إفشاء ذلك لأحد!

قلت: لقد كنت معك قبل الخطاب وتحدثنا عن كل شئ كان يمكننا أن نتناقش وأن نتحاور وأن نتساءل وماذا بعد التنازل؟!

وتوقف عقلى عن القدرة على التفكير ولم أقل إلا عبارة واحدة:

هذا يعنى أمراً واحَداً هو تصفية الثورة! ماذا أنت فاعل؟

قال: لا أدرى:

اعتقدت ان عبد الناصر أسر له بذلك ليتدبر الأمر وهو رئيس لمجلس الأمة اذا استقال رئيس الجمهورية وجه كتاب استقالته اليه وفقاً لاحكام الدستور، ولكننى لم أسمع منه أيه أجابة!!

ويؤكد «عبد السلام الزيات» أن الولاء الذى كان يظهره السادات لعبد الناصر «لاحدود له» ويضيف الزيات مؤكداً:

«وعلى طول علاقتى بالسادات لم أسمعه سوى مردداً لكل مايقوله عبد الناصر متحمساً لكل قراراته، أيا كانت هذه القرارات .. والأمثلة التى عايشتها كثيرة وشاملة، ولكننى أكتفى ببعض وقائع - بعيدة عن السياسة - ولكنها قد تكون فيها الدلالة على صورة الولاء التى كان السادات يريد أن يكون متميزاً بها لدى عبد الناصر».

زاد السادات قربا إلى «عبد الناصر» وأصبحت زيارة عبد الناصر لمنزل السادات تكاد أن تكون منتظمة، وسألت نفسى بعد ذلك : ألم يكن هذا من بين الأسباب التى حملت عبد الناصر على اختيار «أنور السادات» نائباً لرئيس الجمهورية؟!

كان - السادات - لابد أن يزور بيت عبد الناصر صباح كل يوم. خاصة فى السنة الأخيرة لمرضه، وكان يبادر عبد الناصر بأكلشيه يومى «صحتك ياريس أهم من كل شئ» حتى أصبح يطلق عليه من أسرة عبد الناصر ومن كل من فى منزل عبد الناصر عند وصوله إلى المنزل : صحتك ياريس وصل!!

أذكر فى سنة ١٩٦٩ خلال المؤتمر القومى العام، وبعد عودة «عبد الناصر» من العلاج فى الاتحاد السوفييتى، وكنت أجلس فى منصة الرياسة إلى يسار عبد الناصر بوصفى الأمين العام للمؤتمر، وكان السادات يجلس مع أعضاء اللجنة التنفذية العليا فى الصف الأول من القاعة.

ورغم مرض عبد الناصر فقد بعث الحياة فى مناقشات هذا المؤتمر، وكانت جلساته تطول بالساعات وهو يتحامل على الآم ساقه اليسرى المصابة، ويحاول أن يسكن الآلام المتزايدة بتدليكها بيده اليسرى، ويحافظ على حضور عقله وفكره وكل خلجة فى نفسه الحضور الكامل.

ولم يكن يشغل السادات وهو جالس فى الصف الأمامى إلا أن يرسل لى - لا أبالغ إذا قلت كل خمس دقائق - بورقة «قول للريس أنور بيقولك كفاية».

عرضت ورقة واثنين وثلاثة على «عبد الناصر» ولكن أوراق السادات أخذت تتكدس أمامى وهو يشير على بأن أعرضها، أخذت تتكدس حتى تجاوزت أوراق الأسئلة والاستفسارات وطلبات الكلام من الأعضاء!!

وأسرع السادات إلى عبد الناصر وهو فى طريقه إلى الخروج من قاعة الاجتماعات:

أنا بعت لك ألف ورقة ياريس علشان صحتك! والزيات ما عرضهاش عليك؟!

رد عبد الناصر: الزيات عرضها!!

ثم ينتقل «الزيات» إلى رواية تفاصيل واقعة أخرى أغرب من الخيال فيقول:

حدد لى السادات موعداً للقائه فى منزله بالجيزة ظهر أحد الأيام فى الأشهر القليلة الأخيرة من حياة «عبد الناصر» وانتظرته فى المنزل فلم يصل إلا بعد الساعة الثانية بعد الظهر.

قال السادات أعمل إيه؟! أكل الريس.. الدكاترة الروس واضعين أكل الريس ريجيم صعب!! وبيتصلوا من موسكو يوميا للتأكيد على ضرورة التزام الرئيس بهذا النظام.. أنا وجدت أضمن شئ أن أشرف على تحضير أكل الريس! والنهارده طبخت للريس رز.. هو بيحب الرز، ولكنه ممنوع منه علشان النشا الله يستره «عبد الله» (يقصد الأمير عبد الله المبارك الصباح زوج الشاعرة سعاد الصباح) أحضر أرزاً خاصاً من إيران خال من النشا.. الريس كان مبسوط قوى النهارده علشان أكل رز».

كانت هذه محاولة لرسم صورة عن «السادات»!

■■

كان «أحمد بهاء الدين» شديد الحماس لقيام ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ لكنه فى نفس الوقت كان منزعجاً أشد الانزعاج من ظهور اسم «أنور السادات» مرتبطاً بأحداث هذه الثورة فى أيامها الأربعة الأولى!!

ويعترف بهاء أنه «عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو، وفى الأيام الأولى بين فجر ٢٣ يوليو وغروب شمس ٢٦ يوليو بإبحار السفينة المحروسة حاملة للملك «فاروق»

وأسرته وحاشيته لم نعرف من الذين قاموا بالثورة إلا اسمين فقط ظهراً على مسرح تلك الأحداث وهما: اللواء «محمد نجيب» والبكباشي «أنور السادات».

ولكن ظهور اسم «أنور السادات» على النحو الذى ظهر به فى هذه الأيام الأربعة كان يزعجنى ويثير مخاوفى ويجعلنى أطرح أسئلة كثيرة، فاسم أنور السادات معروف للناس قبل ذلك بعشر سنوات تقريباً، وكان اسمه يظهر فى ملابسات تثير الشك والارتياب!

ويشرح «بهاء» الملابسات التى أثارت الشك والارتياب فيقول إن «أول مرة سمعنا اسمه كان فى حادث عوامه الراقصة حكمت فهمى. حيث ضبط يساعد ضباطاً ألماناً نازيين تسللوا إلى القاهرة وجيوش روميل تقتحم الحدود المصرية، وكان مألوفا فى تلك الأيام أن نرى شباباً وطنياً يهتف ترحيبا بالألمان كراهية فى الإنجليز.

وقد كان «أحمد بهاء الدين» فى تلك الفترة - وكما يقول - «ضد هذا الاندفاع لأنهم لا يدركون معنى انتصار النظم النازية والفاشستية وأنها أعنف وأسوأ نظم الحكم وأكثرها قسوة على مستعمراتها»، وظهور ضابط مصرى «أنور السادات» وليس تلميذاً فى المدارس والجامعات فى موقع الاتصال بجيوش الألمان معناه فى أحسن الاحوال أنه مؤمن بالمبادئ النازية وأنه فاشستى التكوين، وبالتالى فهناك احتمال كبير أن يكون الضباط الآخرون الذين لا نعرفهم بعد من نفس نمط تفكيره.

ويكمل «بهاء» قائلاً: وظهر اسم «أنور السادات» بعد ذلك مرة ثانية باشتراكه فى محاولة اغتيال «أمين عثمان» باشا وزير مالية الوفد ورجل الإنجليز الأول والذى أصبح همزة الوصل بين قيادة الوفد وبين الإنجليز، واغتيال مجموعة من الشباب لعميل الاستعمار أمر وارد وغير مستغرب منهم، ولكن وجود أنور السادات بينهم ضابطاً فى الجيش وأكبر منهم سناً وليس من شلتهم كان مدعاة للاستغراب، وحين تطورت القضية وأصبح معروفاً أن الملك فاروق يحاول أن يساعد هؤلاء نكاية فى حزب الوفد الذى جاء إلى الحكم فى الحرب رغم أنفه!!

وبعد ذلك تردد اسم أنور السادات - همساً وليس رسمياً كالمرات السابقة فى حادث اغتيال «مصطفى النحاس» باشا فى شارع قصر العينى بالمدافع

والرشاشات، ثم محاولة اغتياله مرة أخرى بنسف بيته فى جاردن سيتى بواسطة سيارة لورى محملة بكميات كبيرة من المتفجرات (ثبت بعد ذلك بسنوات وبعد قيام الثورة أن السادات اشترك فعلا فى الحادثين).

وشاعت حكاية أن الملك فاروق قد كون حرساً حديدياً يقوده الضباط وطبيبه الخاص «يوسف رشاد» لاغتيال أعداء الملك وأصبحت على كل لسان، وكان يذكر دائما اسم انور السادات واسم «مصطفى كمال صدقى» كعضوين بارزين فى الحرس الحديدى (وقد ثبت أيضا أن أنور السادات كان فعلا فى الحرس الحديدى).

يعترف «أحمد بهاء الدين» بأن هذه الملابسات كلها التى ظهر فيها اسم «أنور السادات» كانت بالنسبة له أكبر علامة استفهام فى تلك الأيام الأولى من الثورة!

وبعد ذلك عرفت أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة ثم عُرف أن مدبر الثورة وقائدها اسمه «جمال عبد الناصر» وهنا يضيف «أحمد بهاء الدين» قائلا:

– حدثنى إحسان عبد القدوس عن أنور السادات، وعلاقته به قبل الثورة وأنهما صديقان، وبدأ «السادات» يأتى أحيانا إلى مجلة روزاليوسف فى مبناها القديم ليجلس ساعات مع إحسان. وكان بشوشاً يقهقه بضحكة عالية، ويقدمه إحسان لمن يتصادف أن يكون موجوداً، ولكن كنت أتصرف بنفور من التعرف عليه. مفضلا أن أبقى بعيداً عن زعماء المؤسسة العسكرية الذين لم تتضح لنا أهدافهم بعد، خصوصاً بالنسبة لواحد منهم اقترن فى ذهنى بالاتصال بالألمان النازيين والاشتراك فى محاولة اغتيال «مصطفى النحاس» زعيم الحركة الوطنية الشعبية فى ذلك الوقت.

وبعد سنوات قليلة كان قد اتضح تماماً فكر وأهداف ثورة يوليو من إلغاء الألقاب والإصلاح الزراعى إلى إعلان الجمهورية والحياد الإيجابى وتأميم قناة السويس وحرب ٥٦ وانسحاب الإنجليز نهائياً من مصر..

وسط ذلك كله حدثت الواقعة التالية.. يقول «أحمد بهاء الدين»:

«فى سنة ١٩٥٧ على ما أرجح دق جرس تليفونى بالمنزل، وكان المتحدث «أنور السادات» وقال لى إن جمال عبد الناصر قرر تكوين لجنة مصرية للتضامن الأسيوى الأفريقى تساهم باسم مصر فى هذه الحركة الشعبية الواسعة فى آسيا

وإفريقيا، وأنه تقرر أن يكون «السادات» رئيساً للجنة و«يوسف السباعى» سكرتيراً لها، وسرد علىَّ نحو ١٢ اسماً هم أعضاء اللجنة وأنا منهم وأخطرنى بموعد ومكان الاجتماع الأول وبعد أن شكرته وقبل أن يضع السماعة قال لى:

– على فكرة أحب أقول لك إن الرئيس «جمال عبد الناصر» هو الذى وضع اسمك شخصياً بين أعضاء اللجنة كما وضع اسم نجيب محفوظ؟!

قالها – السادات – بلهجة توحى بأنه يظن أننى أعرف «جمال عبد الناصر» شخصياً وهو أمر غير صحيح.

ويروى «بهاء» كيف بدأت اجتماعات اللجنة، ويعترف بقوله «كان أنور السادات يدير جلساتنا ومناقشاتنا بلباقة وصبر، ولم يكن يحاول أن يفرض أى رأى أو أن يوحى أنه موجود كممثل للسلطة، وقد شعرت مع تعاقب الجلسات إنه يميزنى بمعاملة خاصة، فيقترح أن أكلف بكتابة الوثائق أو أن أقوم بهذا العمل أو ذاك.

فى سنة ١٩٥٩ كانت «غانا» هى أول دولة إفريقية تحصل على الاستقلال وأصدر الرئيس «جمال عبد الناصر» قراراً بتشكيل وفد مصرى يسافر ليهنئ الزعيم «نكروما» بالاستقلال، وأيضاً حضور أول مؤتمر إفريقى يحضره كل زعماء حركات التحرر، وكان الوفد برئاسة «أنور السادات» وعضوية «محمد فؤاد جلال» وزير الصحة ود. عبده سلام وأحمد بهاء الدين.

يقول «أحمد بهاء الدين»:

«فى المطار عرفنى أنور السادات» إلى مدير مكتبه ومرافقه المسافر معنا «فوزى عبد الحافظ» وهو الذى ظل مديراً لمكتبه حتى يوم اغتياله بعد ذلك.

وكما يقول «بهاء» فإن السفر يرفع الكثير من التكليف بين رفاق الرحلة، وكان الطريق إلى غانا طويلاً – والطائرات النفاثة لم تعرف بعد، وكان لابد أن نذهب من القاهرة إلى باريس ومن باريس إلى داكار ثم إلى أكرا بعد ١٦ ساعة من الطيران والانتظار فى المطارات!

وبعد عام واحد تكررت نفس الرحلة إلى غينيا وتهنئة الرئيس أحمد سيكوتورى، ويتذكر بهاء قائلاً:

كانت الرحلتان متشابهتان بوجه عام ولكن «السادات» كان حريصاً على دعوتى إلى إبداء رأيى فى كل موقف ونحن نواجه عالماً أفريقياً جديداً... و..

وفى رحلات الطائرة الطويلة كان «أنور السادات» يدعونى دائماً تقريباً إلى الجلوس فى المقعد المجاور له، نتحدث فى كل الشئون السياسية والعامة وما يتصل بالثورة المصرية ومشاكل مصر، ولا استطيع أن أتذكر من هذه الأحاديث الطويلة إلا جملتين اثنتين علقتا بذهنى:

● الأولى ونحن عائدون إلى باريس، ثم يتفرق كل منا إلى مكان وسألته أين ستذهب بعد باريس إلى القاهرة رأساً؟! فرد علىّ قائلاً:

- كلا أريد أن أذهب إلى أى مكان لا أسمع كلمات الاستعمار والإمبريالية وما إلى ذلك، أنا ذاهب إلى النمسا فهى أجمل مكان فى العالم وأحب مكان إلى قلبى.!

وبعد أن صار أنور السادات رئيساً وصارت فيينا محطة له فى كل رحلة تقريباً للقاء برونو كرايسكى، كنت أسأل نفسى هل «كرايسكى» هو الذى خلق لنفسه هذا الدور أم أن حب أنور السادات للنمسا هو الذى وضع كرايسكى على خريطة سياسة الشرق الأوسط!!

والجملة الثانية التى أذكرها من أحاديث الطائرة فى تلك الفترة، أنه كان يروى لى ذكريات ووقائع عن أحداث ثورة ٢٣ يوليو فى بدايتها، وحدثنى عن اجتماعات مجلس قيادة الثورة حين تولى الحكم، والتى كانت تمتد من العصر إلى الصباح الباكر فى مناقشات ومنازعات على كل شيء وأخذ الرأى على كل قرار بالتصويت والأغلبية والأقلية ثم قال لى:

- أنا شخصياً لم أحتمل هذه الاجتماعات طويلاً وكتبت ورقة أعطى بها صوتى لجمال عبد الناصر فى أى موضوع يطرح، وقلت لهم إننى لن أحضر بعد ذلك!

ثم استطرد السادات قائلاً: «جمال عبد الناصر هو قائد الثورة ومدبرها وعقلها بلا منازع ففيم هذا الجدل العقيم بالعشر ساعات أحياناً؟! هل حدث فى التاريخ أن قامت ثورة بأخذ أصوات الأغلبية والأقلية!! والقرارات الحاسمة التى تواجه الثورة تحتاج إلى رد فعل سريع من رجل واحد وليس بقضاء الأسابيع والشهور فى مناقشات وأخذ الأصوات بالأقلية والأغلبية».

ويكمل «بهاء»: «كانت أحاديثه معي على أية حال في تلك الفترة حافلة بالثناء على شخص «جمال عبد الناصر» والاستشهاد بأقواله ومواقفه، والهجوم على أعضاء مجلس الثورة الآخرين الذين اختلفوا مع «جمال عبد الناصر».

كان - السادات - يقول من حين لآخر خلال هذه الرحلات الأربع ذهاباً وإياباً كل واحد يريد أن يحكم، وكلها أطماع شخصية، أنا لم أختلف مع «جمال عبد الناصر» أبداً لأنني الوحيد الذي لا يريد شيئاً، لقد اشتغلت بالسياسة قبل الثورة بعكسهم جميعاً، وعرفت الأحزاب ومارست العمل السري والعلني وحوكمت وسجنت وطردت من الجيش، أما الآن فقد حققت الثورة ما كنا نكافح من أجله فإنني لا أريد أكثر من أن أكون مستريحاً وألا أقوم إلا بما يطلب مني فقط.

وتلت ذلك - كما يقول بهاء - مرحلة أخرى كان السادات فيها رئيساً لمجلس الشعب ويسكن في ڤيللا في شارع الهرم غير بعيدة عن منزلي في الدقي وكان كثيراً ما يطلب مني الحضور إليه فأذهب وأجده جالساً تحت نفس الشجرة في الحديقة ونظل نتكلم ونتناقش ساعات طويلة، وهي الڤيللا التي انتقل اليها بعد الثورة من شقته السابقة في المنيل، وكانت لها حديقة كبيرة وفيها جاموسة يشرب من لبنها، وكان يقول دائماً إنه يحب أن يشعر حتى وهو في القاهرة بأنه في قريته في الريف!

■■

ثم جاءت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، وكان بهاء من أكثر المتحمسين لقضايا الوحدة والعروبة، وكان كما يقول يعرف معظم الزعماء السوريين معرفة حميمة، ويؤكد بهاء: «كان أنور السادات يعرف بالطبع من لقاءاتنا في حديقة بيته معرفتي الخاصة بسوريا وبغيرها من البلاد العربية ورجالها وتياراتها الظاهرة والخفية».

وفي إحدى المرات كان «بهاء» في فندق شبرد - الذي كان يموج بزعماء سوريا ووزرائها وبشتى الزعامات العربية التي جاءت إلى دولة الوحدة «ونودي عليه في الميكروفون ليذهب ليتلقى مكالمة تليفونية، وكان المتحدث هو السادات، الذي اقترح على «بهاء» أن يذهب إليه في بيته إن لم يكن مشغولاً!

ويكمل بهاء: «دخلت إلى حديقة بيت أنور السادات» وهو جالس على مقعده المفضل وجلست على مقعدى المألوف وسألنى السادات بطريقة عفوية وكأنه لا يهتم كثيراً بما يسأل عنه - وقد كان يتقن هذا الأسلوب كثيراً، حتى لا ينتبه محدثه فى غمرة التفاصيل إلى ما يهمه من الحديث عن الأخبار والإشاعات التى تخرج من فندق شبرد وتملأ القاهرة!

وعند نقطة معينة من حديث بهاء ثار السادات ثورة عارمة، وكانت ثورته أكبر من الموضوع حديث المناقشة وكان تعليق بهاء هو قوله: «وانتبهت لأول مرة إلى أن هذا الرجل القادر على الهدوء والصمت، وإبداء عدم الاهتمام والرغبة عن أى منصب له وجه آخر فى باطنه.. إنه مثل الجميع له طموحات سياسية ولكنه يحاول تحقيقها بصبر وهدوء وبإظهار الزهد فيها».

وقد تركت أنور السادات ليلتها متوقعاً ألا يعود إلى الاتصال بى لكننى تبينت بعد فترة قليلة أنه تصرف معى كما كان دائماً، وكأن هذا الحوار لم يقع على الإطلاق.

■■

ومضت السنوات وعلاقاتى مع السادات رتيبة - ما زال الكلام لبهاء - أراه كلما طلبنى فى أوقات غير متقاربة، نتحدث - أو بالأحرى أتحدث أنا - بصراحة كاملة عن كافة الأمور العامة مهما كانت دقتها! وذلك أن «السادات» كان من عادته فى ذلك الوقت أن يستمع أكثر مما يتحدث، وهو بالتأكيد ممن يحسنون الاستماع وعدم إظهار مشاعرهم أو النطق إلا بما يريد أن يقوله فقط!

ولذلك عندما صار رئيساً للجمهورية، وكان بعض أهل السلطة يبدون دهشتهم وأحياناً استنكارهم من مصارحتى الكاملة للسادات، كنت أقول لهم: إن السادات يعرف آرائى بالتفصيل فى كل الأمور والسياسات والاتجاهات جيداً! ولو قلت له أى شىء يخالف معتقداتى المدونة لديه، لنزلت من عينيه، ولم يصدقنى. فالأحسن أن يكرهنى إذا شاء ويعتبرنى صادقاً!!

ثم يروى «بهاء» حادثة توقع أنها سوف تترك فى السادات أثراً سلبياً نحوه، كان ذلك بعد هزيمة ٦٧ وكان بهاء نقيباً للصحفيين، وارتفعت أصوات النقد فى

الصحافة المصرية. الأمر الذى انتهى بصدور قرار من «عبد الناصر» - كما يقول بهاء - بفرض الرقابة على الصحف... و... وكما تصاعدت حملة الصحف على هيكل «والامتيازات التى تنفرد بها الأهرام»!! و... و...

وقرر عبد الناصر أن يعتبر «على صبرى» مشرفاً على جريدة «الجمهورية»، والسادات مشرفاً على مؤسسة «أخبار اليوم» ومؤسسة دار الهلال لحل كل مشاكلها. ويروى بهاء: «واتصل بى يوماً السادات وأبلغنى بذلك وأنه منذ الآن قد خصصت له دار أخبار اليوم مكتباً سوف يتردد عليه، وقال لى إنه يرجو أن أدبر له مكتباً فى دار الهلال التى أرأسها لكى يتردد عليه ونعرض عليه مشاكلنا، ووجدت فى ذلك تفسيراً لقرار عبد الناصر «غير ما فهمته» فمعنى تجهيز مكتب هو الإشراف على المؤسسة، ووجود «أنور السادات»، فى المؤسسة سيلغى وجودى أتوماتيكياً وتستغل العناصر إياها وجود سلطتين، وأجبت أنور السادات بسرعة:

- مكتبى تحت أمرك وهو الوحيد اللائق بك فى دار الهلال!!

وقال لى السادات: مش معقول ياأحمد! أنت بذلك لا تريدنى فى دار الهلال!

قلت له: سيادتك تعلم أننى كثيراً ما وسطتك لدى الرئيس عبد الناصر لكى يعفينى من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال وأن يجعلنى مشرفاً على تحرير مجلاتها فقط وتتذكر أنه عندما رفض ذلك أكثر من مرة بحثت عن وظيفة فى اليونسكو ووجدتها، وكنت على وشك الحصول على إجازة سنتين أعيشهما فى باريس فراراً من مشاكل الإدارة فلما وقعت الحرب عدلت عن المشروع!

واسترسلت فى الأمر فقاطعنى (السادات) قائلاً:

- طيب، أجل حكاية المكتب دى لحد ما نتقابل!

ولم يعد - السادات - إلى هذا الحديث معى بعد ذلك قط، لم يدخل دار الهلال أبداً، واكتفى بالمكتب الذى أعدته له أخبار اليوم، وكان يذهب إليه كل جمعة، وتصورت بعدها حين رأيت اهتمامه بالذهاب إلى مكتب أخبار اليوم واتخاذ قرارات فيها، أن ما بدر منى لا شك قد ترك فى نفسه أثراً سلبياً!!

■■

ثم أصبح «السادات» رئيساً للجمهورية، وتلك حكاية أخرى تختلف عما سبقها من حكايات!!



السادات يلعب بالبيضة والحجر !!

في كل الحالات كان السادات مختلفاً ومتميزاً ويستولى على سامعيه ومشاهديه!!

كان السادات «متحدثاً ومتكلماً له حضور مؤثر و«كاريزما» تلفت الانتباه!!

ان السادات الذى كان يتحدث أمام الملايين وعلى الهواء مباشرة ليس هو نفسه السادات الذى يتحدث فى اجتماع مغلق مع مجلس وزرائه مثلا أو مع رئيس تحرير.

والسادات الذى يتحدث مع صحافة العالم ليس هو نفسه الذى يتحدث مع صحافة مصر!!

والسادات الذى يتحدث «تليفزيونياً» بالساعات ليس هو السادات الذى يتحدث تليفونياً وبالساعات أيضاً!!

فى حوارات السادات التليفونية يتحدث على راحته تماماً، فلا أضواء ولا تصفيق ولا عيون الملايين تتابعه وترصد إيماءاته ولفتاته أو كلمة أو جملة ربما تفلت منه فتقيم الدنيا ولا تقعدها!!

وبعيداً عن السياسة والكلام الكبير ماذا كان يقول السادات فى حواراته التليفونية؟ وكيف يمكن الاطلاع على نصوص هذه المكالمات!!

ذات مرة كتب الاستاذ الكبير «محمد حسنين هيكل» يقول: «من حسن الحظ أن الذين كانت فى يدهم مفاتيح القوة والسلطة كانوا يضعون تليفون السادات تحت المراقبة كوسيلة من وسائل مراقبة الرئيس «أنور السادات» نفسه!!

■■

كان هيكل يقصد بالتحديد مجموعة ١٥ مايو(على صبرى، سامى شرف، الفريق أول محمد فوزى، شعراوى جمعة.. الخ) ويضيف مؤكداً: «لابد أن أعترف بالفضل لهم، ومع أنى كنت احتفظ فى مذكراتى بإشارات سريعة إلى الأحاديث التليفونية الهامة فإن العثور على التسجيلات فيما بعد أعاد رسم الصور أمامى بجميع تفصيلاتها.

فى ٣مارس سنة ٧١ كان السادات قد عاد من زيارة سرية هامة لموسكو لم يكن يعلم بأمرها أغلب قيادات الدولة حتى رئيس الوزراء وقتها د. محمود فوزى هدد بالاستقالة، وكان منطقه حسب كلام هيكل - إذا لم يكن رئيس الوزراء موضع ثقته لمعرفة السر فإن الواجب تجاه المسئوليات العامة يقتضى مجئ رئيس وزراء يتمتع بقدر اكبر من الثقة!!

وعقب عودة «السادات» من موسكو اتصل بعد ظهر ٣ مارس بالاستاذ هيكل تليفونياً، وكان نص الحديث ضمن عدة ملفات لتسجيلات تليفونه يصل عدد صفحاتها إلى (٣٢١٩ صفحة)، وفى كتابه «اكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة» يورد هيكل حوار السادات التليفونى معه وكما تم تسجيله ممن كانت فى يدهم مفاتيح القوة والسلطة كما يلى:

■ الرئيس السادات : أهلا يا محمد... ازى الحال؟!

● هيكل: الحمد لله... حمد الله على السلامة. إنت أخبارك إيه؟!

■ الرئيس السادات: أنا بقى لى يومين ما قريتش أخبارك ، أنا من يوم، ما مشيت ماخدتش جرايد الصبح وامبارح بالليل جيت متأخر فمعنديش فكرة الدنيا فيه ايه:

● هيكل : بقى ده كلام؟

■ الرئيس السادات : والله.

● هيكل : بالطريقة دى بتضحك عليه!

■ الرئيس السادات : وحياة ربنا يا محمد ما قريت حاجة خالص!!

● هيكل: طب قل لى أخبارك إيه؟

■ الرئيس السادات : يعنى.. إيه اخبار الدنيا أولا:

● هيكل: لا... إيه اللى معاك ، الأخبار عندك أنت (ضحك) بقى ده معقول؟

■ الرئيس السادات: اللى عندى أنا يعنى!

● هيكل : آه

■ الرئيس السادات: يعنى انت عارف الله يرحمه (يقصد الرئيس عبد الناصر) هم كانوا إيه بيغيظوه ويفلقوه، قمت أنا رحت ما خلتش لهم، لعنت سنسفيل أبوهم - يقصد السوفييت - وحطيت لهم صورتهم بصراحة قدامهم.. و.و.و يعنى تسع ساعات يا محمد، ثلاث ساعات ونصف فى أول يوم وخمس ساعات ونصف فى تانى يوم، ما فى غير الروح، وصلت معاهم للروح!!

● هيكل: يانهار!!

■ الرئيس السادات: والله يامحمد!

● هيكل: وبعدين؟!

■ الرئيس السادات: وبعدين خدنا شوية حاجات مش بطالة:

ثم راح السادات يروى تفاصيل أكثر فقال:

أنا اشتبكت مع «كوسيجن» (رئيس الوزراء السوفييتى وقتها) اشتباك أسود واشتبكت مع «جريتشكو» (وزير الدفاع) قلت له انت أصل لو انضربت لك مدرسة وانضرب لك مصنع مكنتش تتكلم الكلام اللى انت بتقوله، ده كلام مش كلام عسكريين ده قفل «بريجنيف» بقى كان ممتاز يا محمد أكثر من ممتاز وبعدين ميل على واحنا خارجين قال لى: على مهلك علينا شوية إحنا كل اللى أنت عايزه هانبعتهولك!!

● هيكل: إيه ده، دمهم تقيل قوى!

■ الرئيس السادات: لكن فى النهاية يعنى الواحد كان ممكن يقلب الترابيزة على دماغهم!

● هيكل: «لا، مفيش داعى، لا !»

ويرصد هيكل ملمح هام فى شخصية السادات فيقول: «كان هناك معيار لحالته النفسية يعكس نفسه فى الطريقة التى يلقى بها تحية الصباح أو يردها،

وحينما يكون راضياً وسعيداً فإن تحية الصباح عنده كانت تتراواح ما بين «صباح الفل» أو «صباح الورد» أو «صباح القشطة». وحين تستبد به المشاكل والهواجس فإن تحية الصباح عنده تتراوح ما بين «صباح الخير» «صباح النور» وأحيانا يبلغ السوء مداه فإذا هو يرد تحية «صباح الخير» قائلا: «ومن أين يأتى الخير، هذا صباح الزفت والقطران.»

وفى نص تسجيل حرفى لحوار آخر بين السادات وهيكل يوم ٥ أبريل ٧١ سوف تجد للسادات ملامح أخرى لشخصية ابن البلد، وجاء الحوار كما يلى:

الرئيس السادات : ياباى يا محمد، بس لو يصدقوا الأمريكان.. هما غايظينى، وبعدين النهارده كان يوم صعب. كله سفراء، شفت سفير إيران، بعثت له للشاه يعنى النهارده قلت له يتحرك تانى، هو كان اتحرك فى المرة اللى فاتت، قلت له لا اتحرك تانى!

● هيكل: بعثت له شعراً، لا نثراً ؟!

الرئيس السادات : حا اعمل إيه بقى يا محمد؟ قلت للسفير النهارده أنا حاأبعث للشاه رسالة نصفها الفوقانى عربى ونصفها التحتانى فارسى علامة على إننا حضارة واحدة ومصير واحد، بعدو. كده جه السفير الإنجيلزى كان بيسلم رسالة من هيث!

وبعدين جالى السفير الأفغانى، كان جايب عينات رخام من الضريح بتاع «جمال الدين الأفغانى»، ده ضريح صممه ظاهر شاه - ملك أفغانستان وقتها - بنفسه، وأنا سنة ١٩٥٥ هناك، الملك ورانى التصميم اللى هو عمله وقال لى حنفذه، واتنفذ فبعت لى بقى صورة الموقع كله، والشارع اللى قدام الضريح مباشرة، وفى وسط جامعة كابول سموه شارع «جمال عبد الناصر» الرخام الافغانى طبعا أنت عارف أحسن رخام فى العالم. بعتولى النهارده ١٥ عينة وبيقولوا بقى ايه؟ إنهم عاوزين يشتركوا فى ضريح الريس برخام أفغانى، فبعتوا العينات، فأنا قلت للجماعة ابعتوه للست والولاد يشوفوه (يقصد حرم الرئيس عبد الناصر وأولاده).

● هيكل: طيب والله دى حاجة ظريفة، رخام وجوابات نصفها عربى، ونصفها فارسى.

الرئيس السادات: يعنى حعمل ايه يا محمد. ما أنا بألعب «بالبيضة والحجر».

■■

إن تعليق الاستاذ هيكل على حديث السادات التليفونى وقوله والله دى حاجة ظريفة.. رخام وجوابات نصفها عربى ونصفها فارسى وراءها قصة مثيرة ودراما تستحق القراءة!!

إن السادات كما يؤكد «موسى صبرى» تعلم اللغة الفارسية، وكان يتلقى دروسها من أحد محررى صحيفة الجمهورية، وخاطب شاه إيران فى أول لقاء له فى اجتماع المؤتمر الإسلامى فى الرباط باللغة الفارسية، واستشهد بقول فارسى مأثور، وكان السادات فى ذلك المؤتمر ممثلا لمصر نيابة عن الرئيس جمال عبد الناصر، وكانت العلاقات سيئة بين مصر وإيران!

لقد كان جلالة الملك الحسن الثانى «ملك المغرب» أحد شهود تلك الواقعة المثيرة، وقد رواها فى مذكراته «ذاكرة ملك» حيث يقول

لم تكن للسادات ملكة الخطابة التى كان يتميز بها«جمال عبد الناصر» غير أنه حينما كان يتناول الكلمة فى مؤتمر من المؤتمرات كان الصمت يخيم على القاعة وينصت اليه الحضور حتى فى حالة عدم استيعاب الحضور ما كان يقوله دائما. أذكر على سبيل المثال ما حدث سنة ١٩٦٩ خلال انعقاد مؤتمر القمة الإسلامى ذلك أن مشادة كلامية وقعت بين أنور السادات وشاه إيران وكان «السادات» قد تطرق إلى العلاقات التى كانت تربط إيران مع إسرائيل على شكل قنصليات اقتصادية وتجارية.

ورد عليه الشاه الذى كان رجلا حساساً وصعب المراس بجفاء ولهجة قاسية، وأدرك السادات إلى أنه ذهب إلى حد بعيد، فأخذ الكلمة من جديد وأثار الحديث عن أعمال والد الشاه وأعمال الشاه نفسه لصالح القضية العربية، وختم تدخله مستشهدا ببيتين من الشعر الفارسى نطقهما باللغة الفارسية.

يضيف الملك الحسن: وحينما التقيت بالشاه فيما بعد توجهت اليه بالسؤال التالى:

ماذا كان ياصديقى العزيز يود السادات قوله فى البيتين من الشعر الفارسى؟!

فكأن جوابه (أى الشاه) كما يلى:

اسمعوا: إن الأمر فى غاية البساطة، فإما أنا فارسى ولم أفهم لغتى، أو أن ما نطق به السادات لم يكن لغة فارسية!!

ويختتم الملك الحسن شهادته قائلا: «وعلى أية حال لقد تصرف السادات بلباقة، حيث إن تلك المشادة العابرة والعنيفة طواها النسيان بعد خمس دقائق.»

انتهى ماروإه الملك الحسن، لكن للقصة تفاصيل أخرى سجلها وكتبها الكاتب الصحفى البارز «أمير طاهرى» أحد الخبراء فى الشئون الإيرانية .

تناول «أمير طاهرى» فى دراسته الهامة قصة السادات والشاه والعلاقة السرية مع أمريكا وإسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ إلى ما بعد سفر السادات إلى القدس. وحسبما نشرته مجلة «المجلة» (١٢ مارس ١٩٨٣) كتب «أمير طاهرى» يقول: فى الأساس كان الشاه يأمل فى الاجتماع بعبد الناصر فى قمة الرباط لإجراء مصالحة معه بطلب من العاهل السعودى الراحل الملك فيصل إذ إن هزيمة حزيران «يونيو» ١٩٦٧ قد «هدأت» من اندفاع عبد الناصر بعض الشئ حسب ما ذكره بعض المستشارين للشاه واعتبر الشاه آنذاك أن الوقت حان لاستئناف العلاقات مع مصر وتوطيدها بعد قطيعة ونزاعات وخلافات مريرة دامت عقدا كاملا من الزمن.

كان الشاه يكره عبد الناصر شخصيا، ومثل هذه العواطف الشخصية كانت تلعب دورا كبيرا فى صياغة أو تكوين آراء الشاه وحكمه الشخصى على الزعماء والمسئولين الذين كان يتعامل معهم.

وعندما أعلن «عبد الناصر» أنه لن يحضر مؤتمر الرباط تنفست وزارة الخارجية الإيرانية الصعداء - حسبما يقول أمير طاهرى- إذ إن كراهية الشاه لعبد الناصر كانت ستهدد أعمال المؤتمر بالفشل فى حال حضوره، وقد عقدت بعد الحريق المتعمد الذى شب فى المسجد الأقصى بالقدس المحتلة.

فى هذه الاجواء سافر الشاه إلى الرباط لحضور المؤتمر، وهناك لمح الملك الراحل فيصل إلى أن الشاه يمكن أن يجتمع بنائب الرئيس المصرى «أنور السادات» لتحسين العلاقات بين البلدين، وهى عملية كانت قد بدأت بفضل الوساطة السعودية، وكان الشاه حذرا متربصاً بالفرص. وفى الجلسة الختامية

للمؤتمر القى خطابا طويلا عرض فيه تقديم المساعدات المالية والدبلوماسية إلى مصر المهزومة «شرط أن تكون القاهرة قد تعلمت «أمثولتها»!!

واستنادا إلى الدبلوماسيين الإيرانيين الذين حضروا الجلسات المغلقة للمؤتمر فإن الجميع شعروا بان الشاه كان يحاول فى الواقع تصفية الحسابات القديمة مع عبد الناصر «الذى كان متغيبا ومعتل الصحة»!!

وعند ذاك نشبت العاصفة - كما يقول أمير طاهرى - إذ انتصب «السادات» واقفاً وقائلا: إن مصر لا تستجدى أى إحسان لكون الشرف العربي يأبى ذلك. إن الشعب المصرى وحكومتة سيتحملان عبء الهزيمة ومسئولية النصر فى المستقبل وحيدا إذا اقتضى الأمر.

ثم التفت السادات ناحية الشاه والقى على مسامعه شعرا بالفارسية من تأليف «سعدى» الشاعر الإيرانى الذى عاش فى القرن الثانى عشر فيه ما معناه:

«من يعش بثمار أعماله وعرق جبينه لاحاجة أن يستجدى حاتم طى..»

وأدرك الشاه وأعضاء الوفد الإيرانى المرافق له ماذا كان يقصد السادات من كلامة، وإذا بالشاه ينتفض ويقف بشكل مفاجئ ويقول لرئيس المؤتمر الملك الحسن الثانى:

هل هذا المؤتمر منتدى شعرى؟! لو كنت أعلم أن بيننا هنا شعراء، لكنت قد جلبت بعضا منهم معى من إيران لأن لدينا الكثيرين منهم.

وبدا الأمر بالنسبة إلى الحاضرين وكانه صدع جديد فى العلاقات المتوتره بين إيران ومصر، ولم يدر بخلد أحد أن هذه المواجهة ستكون على العكس، بداية لصداقة جديدة طويلة الأمد بين الشاه والسادات!!

وحسبما يقول الكاتب الصحفى الايرانى «أمير طاهرى» فإنه عندما عندما عاد الشاه إلى المقر المخصص له «وبخ وزير خارجيته إرد شير زاهدى» على عدم إعلامه مسبقاً بأن السادات خطيب مفوه بالفارسية ويجيد الشعر القديم وقال له:

لابد أنه - أى السادات - رجل مثير للاهتمام فى أى حال، قم بترتيب الاجتماع الذى طلبه أخونا الملك فيصل.

وبالفعل اجتمع السادات والشاه بعد ساعات قليلة، أولا بحضور الملك فيصل، وبعد ذلك اقتصر عليهما لمدة ساعتين من دون مستشاريهما، وإن لم يكن ما حدث بينهما حباً من النظرة الأولى، فقد كان بالتأكيد من المعركة الأولى.(!!)

لقد رصد الكاتب الكبير «أحمد بهاء الدين» بدقة بالغة صورة كاملة لعلاقة السادات وشاه إيران، قال السادات لبهاء فى أحد لقاءاتهما:

أتعرف أننى أعتقد من زمان أن مثلى الأعلى بين كل زعماء العالم الثالث هو شاه إيران.

ويضيف «بهاء» كان السادات يسألنى بروح من الإعجاب الهائل عن شخص لم يكن يعرفه فهو لم يره إلا فى مؤتمرالرباط أيام عبد الناصر وتشاجرا وتبادلا الإهانات فى جلسة واحدة عامة للمؤتمر وانتهى الأمر!!

وعندما سأل «بهاء» عن سر هذا الاعجاب الشديد بالشاه قال السادات:

زعماء عدم الانحياز بتوعك الذين ملأوا الدنيا ضجيجا منذ سنوات نهرو، ونكروما وسوكارنو - وحتى عبد الناصر وحتى تيتو اللى لسه عايش.. أين هم الآن راحوا فين؟! اللى مات واللى انهزم واللى راح فى انقلاب واللى انكمش داخل حدوده زى تيتو، واحد فقط من هذا الجيل وهذه المرحلة كلها باقى على مقعده بكل سلطانه وهيلمانه والدنيا تسعى اليه «هوشاه إيران» والسبب بسيط، كل هؤلاء تصوروا ان فى العالم قوتين عظميين هما روسيا وأمريكا وحاولوا التعامل معهما على قدم المساواة، والحقيقة غير ذلك تماما، فهناك دولة عظمى واحدة هى أمريكا، ورسيا ليست حتى دولة عظمى ثانية. إنها تأتى بعد أمريكا بعشر أو بعشرين درجة، شاه إيران هو الوحيد الذى أدرك هذه الحقيقة قام عمل إيه قعد على حجر أمريكا!!

ومسك فى هدومها! واديك شايف: «كل أصحابك راحوا والشاه عملته أمريكا كل اللى هوه عايزه».

لقد جرى هذا الحوار بين بهاء والسادات فى أوائل عام ١٩٧٤ وعقب مقابلة بهاء لشاه إيران ونشر بهاء لما جرى بينهما على صفحات الأهرام.

وقبل ذلك بسنوات طويلة وكان السادات أيامها رئيسا لمجلس الأمة سافر على رأس وفد مصرى كبير إلى كوناكرى عاصمة غينيا لتهنئة الرئيس سيكوتورى بالاستقلال، وفى طريق العودة وفى الطائرة دعا السادات «بهاء» للجلوس معه وقال السادات له:

إننى أريد أن أقضى أسبوعاً فى مكان لا أسمع فيه بعد أيامنا فى «كوناكرى» كلمة واحدة من كلمات «استعمار» و«إمبريالية» وسود «وبيض» وتفرقة عنصرية وأنا ذاهب إلى النمسا، إن النمسا أجمل مكان فى نظرى وريف النمسا والطبيعة الغنية الخضراء هناك كأنها علاج بالنسبة لى.»

ولم يتغير رأى السادات فى إعجابه بالنمسا حتى بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية، وفى إحدى المرات وبعد عودته من زيارة «كرايسكى» مستشار النمسا التقى مع «بهاء» الذى قال له فى شئ من الحدة عندما وصل الكلام بين السادات وبهاء عن الانفتاح الاقتصادى:

قال السادات: هوه كرايسكى مش اشتراكى، ورئيس الحزب الاشتراكى فى النمسا؟! مش حكومة النمسا اشتراكية؟

قال بهاء: نعم!

ورد السادات بنفس الصوت المرتفع الضيق الصدر:

انت مش رحت النمسا؟! شفت الفراخ المشوية اللى بياكلوها فى المطاعم الريفية خارج فيينا الفرخة فيها أد إيه؟! أهو أنا عايز أعمل مصر اشتراكية زى اشتراكية النمسا ويبقى الناس تأكل فراخ زى فراخ النمسا!!

■■

وحسب شهادة «احمد بهاء الدين» مفكرنا الكبير قوله « كان من خصائص الرئيس السادات التبسيط الشديد للمسائل الاقتصادية التى كان لا يفهم فيها كثيراً ويضيق صدره بالبحث فى تفاصيلها، وكان يفاجئك فى هذا المجال بمقارنات غاية فى الطرافة والتبسيط والبعد عن الحقائق المعقدة»!!

وهناك عشرات الأمثلة والحكايات والوقائع التى يرويها أحمد بهاء الدين تدليلا على ما يقول، وأتوقف أمام واقعة بالغة الدلالة، ومؤداها أن السادات طلب من بهاء أن يكتب له خطابه الذى سوف يلقيه بمناسبة افتتاح البرلمان بعد تجربة المنابر، وأنه سيصدر قراره بأن تتحول المنابر إلى أحزاب واعترض بهاء وطالت المناقشة بين السادات وبينه وأخيراً قال «بهاء» له:

سوف أفترض أننى على خطأ وأن الدستور يسمح بقيام أحزاب. فأين ياريس النص فى هذا الدستور على تحديد عدد الأحزاب بثلاثة فقط ؟ وأين النص الذى

يسمح لى بتكوين حزب رابع أو يمنعنى من ذلك؟! إننى متمسك ياريس بأنه لابد من تعديل دستورى ينص على كل ذلك أو بتعديل أسرع وأبسط ينص فقط على حق تكوين الأحزاب، وقانون ينظم القواعد الخاصة بذلك!!

وأنهى الرئيس السادات الحوار الطويل- كما يقول بهاء- بعد منتصف الليل بأن قال لى: ياأحمد لازم تكون عرفت طريقتى!! طريقتى أن أعلن قرارى وبعد كده نشوف، إذا كان عايز تعديل نعمل تعديل، واذا كان عايز قانون نعمل قانون، لأنى لو قعدت أدرس فى كل قرار علشان يطلع ما يخرش الميه، يبقى عمرى ماحااطلع قرارات!!

وقال السادات لبهاء: كفاية أعلن فى الخطاب قيام الأحزاب وبعد كده نشوف إيه اللى يحتاجه الموقف.

ولم يقتنع السادات بمنطق بهاء عندما قال: إن خطابا للرئيس ولو تحت قبة البرلمان لا يقيم حقاً دستورياً غير موجود وإن «ممدوح سالم» رئيس الوزراء ورئيس منبر مصر لو أعلن تحويله إلى «حزب مصر» فإن من حق أى مواطن أن يقوده إلى النيابة العامة، وإن ممدوح سالم لايستطيع أن يدافع عن نفسه وحزبه مستنداً إلى خطاب ألقاه رئيس الدولة حتى ولو ألقاه تحت قبة البرلمان وصفق له النواب حتى الصباح!!

وفى مناقشة أخرى حول الدستور قال السادات له:

- يا أحمد.. عبد الناصر وأنا آخر الفراعنة، هوه عبد الناصر كان محتاج لنصوص علشان يحكم بيها، والا أنا محتاج لنصوص؟!»

وعبر عشرات اللقاءات بين الأستاذ أحمد بهاء الدين والرئيس السادات يرسم «بهاء» صورة عن قرب ليوم عمل فى حياة السادات فيقول:

لا أكاد أذكر أننى رأيته يوماً جالساً فى مكتبه، ولا أكاد أذكر أننى رأيته يوماً وأمامه فى الحديقة أو فى الصالون أى أوراق أو ملفات. إنما كان يدير الدولة كلها بالتليفون فقط!!

وكنت ذاهباً اليه ذات مرة فى المعمورة واستبقانى مدير مكتبه «فوزى عبد الحافظ» فى غرفته فترة، إذ كان هناك وزير جديد أتى ليحلف اليمين لإنه كان فى

الخارج، وأظن أنه كان الوزير «عبد الفتاح عبد الله»، وطلب إلى فوزى عبد الحافظ أن أنبه الرئيس إلى كذا وكيت، وكانت أشياء هامة تتعلق- ان لم أكن مخطئا - بأحداث عربية تهم مصر، وسألت «فوزى عبد الحافظ» دهشاً:

هل توقفت عن إعداد النشرة اليومية التى تقدم الرئيس من أيام عبد الناصر صباح كل يوم وفيها أهم الأنباء؟

وقال لى فوزى عبد الحافظ: «إزاى ؟! احنا بنعمل النشرة كل يوم وأحسن من الأول»!!

وقام وأخرج لى كمية من هذه النشرات للتدليل على أنه وجهازه يقومان بواجبهما ثم استطرد قائلا:

لكن انت عارف الرئيس من زمان مالوش خلق على القراية ودلوقتى بقيت مشاغلة كثيرة جداً، أنا باحطله التقرير على الكومودينو جنب السرير كل يوم، لكن يفضلوا يزيدوا لحد ما يبقوا عشرين تقرير والرئيس ما فتحهمش فيقول لى: شيلهم بقى ، لازم الحاجات اللى فيهم بقيت قديمة!!

فآخذ النشرات وأبدأ من اليوم التالى فى وضع النشرات اليومية الجديدة !!

ثم يروى «أحمد بهاء الدين» هذه الواقعة التى تلخص تلخيصاً دقيقاً وممتازاً منهج عمل الرئيس السادات وأسلوبه فيقول:

كنا فى حديقة بيت الجيزة تحت الشجرة المعتادة وأمامه مائدة عليها جهاز راديو، وكان قد أدلى قبل ذلك بأيام بحديث إلى الصحفى اللبنانى المرحوم «سليم اللوزى» صاحب مجلة الحوادث، وكانت الصحف اللبنانية أيامها تشن حملات عنيفة على السادات، ونشر «سليم اللوزى» فى حديث السادات قوله له : «أنا لم أقرأ الصحف اللبنانية منذ ستة أشهر» وجاء ذكر هذه الجملة فقلت له ضاحكا:

لابد أن سليم اللوزى قد اتغاظ جداً!!

وقال لى السادات : أنا لم أقصد أن أغيظه أو أغيظ الصحافة اللبنانية، ولكنى فعلا لم اقرأ صحيفة لبنانية واحدة منذ ستة أشهر ولا أعرف ماذا تقول!!

ورأى السادات الدهشة المرتسمة على وجهى فاستطرد قائلا:

امال إيه اللى موت «عبد الناصر»؟! كان بعد ما يشتغل ١٨ ساعة فى اليوم وييجى ينام، مش يسمع موسيقى أو يأخذ حاجة مهدئة ، كان منبه إنهم يحطوا له

جنب السرير كل الجرائد العربية المليانة شتيمة فيه، كان يقرأ السم الهارى ده قبل ما ينام!! وطبعا ده مش نوم!!

وتانى حاجة موتته «المدعوق ده» - وأشار السادات بيده إلى الراديو- ثم استطرد قائلا : كان حافظ مواعيد نشرات الأخبار بتاعة العالم كله، سواء كان لوحده أو قاعد معانا، كل شوية يفتح الراديو ويقول: لما نسمع أخبار لندن ! لما نسمع أخبار دمشق! لما نسمع بغداد! لما نسمع موسكو! لما نسمع صوت أمريكا!! أنا بقى على عكسه تماماً! لما يقولولى إن جرائد بيروت بتهاجمك أقول لهم مش عاوز أشوفها! طيب ما أنا عارف أنا بعمل إيه وهم بيقولوا على إيه.. إيه الفايدة بقى إنى أضيع وقتى وأحرق دمى واقرأ الكلام الفارغ اللى بيقولوه.»

وفى أحد اللقاءات الأخرى بينهما فوجئ بهاء بالسادات يقول له:

أنا لما قلت مرة أن عبد الناصر كان زى الوتر المشدود، متوتر دائماً وينشر التوتر حوله ! افتكرونى بهاجم عبد الناصر، لكن هوه كان كده صحيح، لازم يتابع أهيف حاجة تحصل !! إذا قامت حريقة فى كام كيس قطن فى شونة بنك التسليف فى قرية كذا، لازم يصحوه من النوم وسط الليل!! وينزل من حجرة نومه إلى مكتبه فى الدور اللى تحت ويبتدى يضرب تليفونات ! تليفون للمحافظ! وتليفون للمطافى! وتليفون للعمدة! وتليفون للشرطة! وبعدين ما يصدقهمش، فيضرب تليفون «لمصطفى أمين» فى أخبار اليوم و«لهيكل» فى الأهرام علشان يشوف معلومات الجرائد زى معلومات الادارة ولا لأ ؟!

ويفضل كده كأنه بيقود معركة ستالنجراد لحد وش الصبح لما يقولوا له ان الحريقة انطفت !! هو ده شغل رئيس جمهورية ورئيس دولة عنده مسئوليات محلية وعربية وعالمية؟! أنا طريقتى غير كده! أنا عامل مؤسسات، وكل واحد يشيل مسئولياته، وفيه رئيس وزارة وفيه وزراء ومحافظون..»

ويعلق الاستاذ «أحمد بهاء الدين» على كل ما سمعه من السادات بكلمات ذكية: «كانت مقارنة صريحة للغاية ولا أقارن هنا بين طريقة الرئيسين، ولكن المؤكد فى تقديرى أن المبالغة فى كل طريقة خطأ، مبالغة أى رئيس دولة فى تتبع التفاصيل بالصورة الكاريكايترية التى رسمها السادات ، أو المبالغة فى عدم متابعة المشاكل الداخلية بالدرجة الكافية.»

كان الكاتب الكبير «أحمد بهاء الدين» (رحمه الله) فى زيارة للرئيس السادات، فى استراحة كنج مريوط التى لم يكن قد زارها أبداً واستقبلته السيدة «چيهان السادات» بترحيب حقيقى ومؤثر حسب ما يقول الأستاذ بهاء، وراحت تسأله عن زوجته والأولاد فى ألفة إلى أن قال لها السادات:!

أحمد سوف يتغدى معنا عليك إكرامه بعد هذه الغيبة!!

وانصرفت السيدة جيهان وراح السادات وبهاء يتحدثان، وطال الحوار وتشعب واحتد إلى أن «صفق السادات» بيديه وطلب إلى الشخص الذى حضر أن يبلغ «الست» أن تعد لنا الغذاء بعد حوالى نصف ساعة!!

ويكمل الأستاذ «بهاء» ما حدث فيقول :

تناولت الغذاء مع الرئيس وحرمه ، وكانت أول مرة أتناول معه فيها طعام الغداء فى هذا الجو الخاص، ليس فى سفر ولا فى حفل، وقد جاءوا اليه بأرنب مسلوق وبجواره قطع من الخضر المسلوقة أخذ يأكلها بيديه دون أى شئ آخر (!!) رغم أنه كانت هناك مائدة عامرة بالنسبة لثلاثة أشخاص فقط:

وأشارت السيدة جيهان السادات إلى «طاجن مكرونة» وقالت لى (بهاء):

تصور إنه لا يريد أن يغير الأرنب المسلوق أبداً، هذه المكرونة أحضرناها خصيصاً من الخارج لانها مصنوعة من السليليوز - أى أنها صناعية ليس فيها أى دقيق أو نشا أو أى مادة غذائية، وهى لذيذة جداً ومع ذلك رفض أن يذوقها .

وقلت للسيدة جيهان: أنا مستعد أن آكل الطاجن كله على أى حال !!

وضحكت وقالت إنها ستشاركنى فيه!

وبشهادة الاستاذ «أحمد بهاء الدين» فإن السيدة جيهان «لديها ضعف نحو الطعام الجيد تستسلم له أحيانا وتقاومه فى أغلب الأحيان حتى لا يزيد وزنها، وحتى تحتفظ بطاقتها وحيوتها الشديدتين».

■■

والآن كيف كان يسير العمل اليومى ؟!

فى شهادته المهمة يرسم الاستاذ « محمد حسنين هيكل» الصورة على النحو التالى، وكما جاءت فى كتابه «خريف الغضب» فيقول:

كانت قواعد فى رئاسة الجمهورية منذ أيام «عبد الناصر» تجرى على أن الرئيس يتلقى كل يوم أربعة ملفات أساسية يدور حولها نشاطه اليومى.

الأول ملف من وزارة الخارجية يحوى أهم البرقيات الشفرية والتقارير الواردة من سفراء مصر فى كل أنحاء العالم.

والثانى تقرير من وزارة الداخلية عن حالة الأمن العام فى البلاد.

والثالث من المخابرات يضم نشاطها فى الأمن الداخلى والخارجى وأعمال مكافحة الجاسوسية، وعادة فإن المخابرات العسكرية كانت تضيف إلى هذا التقرير ملحقاً حول الموقف على حدود الدولة وتحركات القوات والنوايا المحتملة لأعدائها وغير ذلك من المعلومات ذات الطابع العسكرى.

وكان التقرير الرابع من وزارة الاقتصاد ويحوى أرقاماً عن الأحوال المالية والاقتصادية بما فيها حالة الاحتياطى فى البلاد، وكانت وزارة التموين تلحق بهذا التقرير كل المعلومات المتاحة عن أوضاع الاستهلاك والأسعار والمخزون السلعى من كل الاحتياجات الاساسية!

وكانت هناك ملفات لا تجئ يومياً وإنما تجى كل بضعة أيام، خاصة بالتحديد بأحوال الإنتاج الصناعى والزراعى، كذلك وزراة الإرشاد تقدم للرئيس تقريراً كل أسبوع عن أهم اتجاهات الرأى العام.

كانت هناك إضافات اخرى غير ذلك، فقد كانت هيئات التخطيط فى وزارة الخارجية والاقتصاد تبعث إلى الرئاسة بتصوراتها لخطى أى مرحلة قادمة إلى جانب أن مجموعة الوزارات التى يتصل عملها بنشاط وفود ذاهبة من مصر أو وفود أجنبية قادمة اليها، كانت تبعث إلى أجهزة الرئاسة بما لديها من تقديرات ومعلومات. خصوصاً إذا كان على الرئيس أن يشترك بنفسه فيما تجريه من مفاوضات.

ثم يعترف «هيكل» بقوله:

كان هذا يشكل شحنات ضخمة من الأوراق تصل إلى الرئاسة كل يوم، وهى لا تصل صماء وإنما تصل مع توقع رد عليها أو إشارة أو توجيه!

وفوق ذلك ففى أيام جمال عبد الناصر كان ذلك كله يرد ومعه أكوام ضخمة من الصحف العربية والأجنبية، وكان جمال عبد الناصر يتابع بصفة خاصة صحف بيروت، ويعتقد أنها فى ذلك الوقت تمثل وجهات نظر قوى عربية تؤثر على ساحة العمل العربى العام.

وكان «جمال عبد الناصر» يستطيع أن يستخلص من حرية الصحافة اللبنانية أو على الأصح من تنوع واختلاف القوى التى تساند كل صحيفة ، نتائج تدخل فى حساباته، وكانت كومة الصحف التى تذهب إلى مكتبه كل يوم تضم معظم الجرائد والمجلات الصادرة فى انجلترا وأمريكا بالتحديد.

بهذه السطور حاول «هيكل» أن يرسم ملامح صورة ليوم عمل فى حياة الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» ثم ينتقل «هيكل» إلى الحديث عن يوم عمل فى حياة الرئيس« أنور السادات» ، فيقول هيكل:

وعندما بدأ «أنور السادات» يتلقى هذا الطوفان من الأوراق فقد صاح منذ أول يوم:

أبعدوا عنى كل هذه الأوراق، إن هذا التل من الورق يمكن أن يخنقنى تحته!!

واتذكر مرة - مازال هيكل يروى - أننى رأيت سكرتيره السيد «فوزى عبد الحافظ» قادماً نحوه يحمل مجموعة من الملفات، وكنت معه على ظهر الباخرة الصغيرة الراسية أمام شاطئ استراحة القناطر وفوجئت بالرئيس الجديد يصيح فى سكرتيره وهو مازال بعد على سلم الباخرة:

أرجع بهذه الحمولة كلها !!

ثم التفت - السادات - إلى يقول :

إنهم يريدون أن يقتلونى بهذا الورق كله كما قتلوا به جمال عبد الناصر!

وربما كان السادات على حق فى أن «جمال عبد الناصر» كان يقرأ كثيراً، وكان بعض مايقرأه لايساوى الوقت الضائع فيه، ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن أنور السادات لم يكن يقرأ ما كان يتحتم عليه أن يقرأه !

كان أنور السادات بطبيعته لا يملك جلداً كبيراً على العمل، وفى كل الأحوال فقد كان يكره مجرد رؤية الأوراق الرسمية، ومما يلفت النظر أنه لا توجد صورة له قط بين كل آلاف الصور التى نشرت له تمثله جالساً على مكتب.

ظهرت له صور كثيرة تحت الاشجار، فى الحدائق، أو وهو يمارس رياضة المشى أو الجرى أو السباحة أو وهو فى صالون من صالونات بيت أو قصر أو استراحة يستقبل زائراً أو يشارك فى مناسبة اجتماعية، بل وظهرت له صور يحلق ذقنه ويغسل أسنانه ، ولكن لم تظهر له صور على مكتبه الرسمى أو على مكتبه فى بيته !!

وعلى أى حال فإن «جيهان» حاولت لبعض الوقت أن تعوض قصوره. فقد أصبحت قارئة نهمة لبعض الأوراق، وكانت تهتم كثيراً بتقارير مراقبة التليفونات وتقارير المخابرات وتقارير اتجاهات الرأى العام، لكنها بالطبع لم تكن تقرأ - ولا كان مطلوباً منها أن تقرأ - التقارير الخاصة بالسياسة الخارجية أو الأقتصاد. وكان نشاطها هذا مفيداً فى بعض الأحيان، خصوصاً وأن أنور السادات لم يكن يستقر فى مكان.

■■

وابتداء من صفحة ٣٠٧ يصف «هيكل» برنامج الحياة اليومية للرئيس السادات على النحو التالى فيقول :

كان - السادات - يستيقظ فى الصباح متأخراً ما بين الساعة التاسعة والتاسعة والنصف عادة - وعندما يفتح عينيه كان يمد يده إلى مائدة بجوار سريره فيتناول ملء ملعقة من العسل مزجت بقليل من رحيق الملكات ، ثم كان يطلب فنجانا من الشاى الساخن يحتسيه بعد العسل والرحيق.

ثم تأتيه صحف الصباح القاهرية ، فيلقى نظرة عليها مركزاً اهتمامه على ما يتصل به: العناوين الكبيرة المتصلة بأخبار نشاطه فى اليوم السابق، ثم صوره ثم يدخل خبير التدليك الخاص به (كان للمدلك الخاص بالرئيس السادات وضع رسمى فى البروتوكول، وقد دهش أحد سفراء مصر فى عاصمة أوربية حينما وجد إلى جواره على مائدة عشاء رسمى شخصاً من حاشية الرئيس لا يعرفه، وعندما سأل عنه اكتشف إنه المدلك الخاص للرئيس.)

ويقول «هيكل» إن التدليك ثم الحمام يكون قد استغرق أكثر قليلا من ساعة وبعدها « تجيئه صينية الإفطار، وهى مكونة عادة من طعام خفيف يحتوى على بعض الجبن والخبز الخالى من أى سعر حرارى والمصنوع من دقيق مستورد من سويسرا.

كان هذا الدقيق الخالى من السعرات الحرارية يستخدم فى صنع كل أنواع الفطائر والحلوى التى تقدم للرئيس السادات بما فيها الكنافة، وحتى المكرونة أيضاً خالية من أى نشويات، وكان الرئيس السادات يقبل عليها ويسميها ضاحكا «مكرونة خشب.»!!

بعد ذلك يشير هيكل إلى ان السادات كان يشرب «الفودكا» بانتظام وكان السادات حسب رواية هيكل – ولا دليل عليها – يعتقد ان هذا القليل من الفودكا الذى يشربه قبل الظهر هو خير منشط لعمله الذى كان يبدأ فى العادة على شكل مقابلات (اثنين أو ثلاث فى اليوم) تبدأ فى الثانية عشرة وتستمر لساعتين..

وعندما تصبح الساعة الثانية والنصف أو الثالثة بعد الظهر يفرغ الرئيس السادات من العمل شاكيا فى العادة من أنهم يريدون قتلى بكل هذا الذى يضعونه على كتفى وتعود الفودكا مرة ثانية إلى الظهور!

وتنتهى هذه الفترة فى الساعة الرابعة أو الرابعة والنصف يتناول فى نهايتها غذاء خفيفاً مكوناً فى العادة من بعض شرائح صدر الدجاج أو اللحم البارد، وطبق من السلطة أو طبق من الخضروات الطازجة بدون أية توابل ، ويأوى إلى فراشه لينام، ويستيقظ فى العادة ما بين الساعة السابعة والسابعة والنصف شاعراً بالجوع ، فيطلب فنجاناً من الشاى بالنعناع ثم يطلب عشاءه ، وهو فى معظم الأحيان من اللحوم المسلوقة أو المشوية، إلى جانب بعض الأرز أو المكرونة الخالية من النشويات ، ثم يتناول طبقا من الحلوى المصنوعة من الدقيق الخاص الخالى من أى سعر حرارى، ثم يبدأ فى إجراء بعض اتصالات تليفونية مع بعض المسئولين المصريين أو مع بعض المسئولين الأجانب. خصوصاً فى الولايات المتحدة (يكون الوقت فى الولايات المتحدة ساعتها حوالى الظهر) ثم يختم اتصالاته التليفونية بتلقى مكالمات من رؤساء تحرير بعض الصحف المصرية من المقربين منه ، يسمع منهم ما لديهم من أخبار ويزودهم بما لديه من توجيهات !

ثم يكون البند التالى من برنامجه هو طلب كشف أفلام السينما الجاهزة للعرض فى صالة السينما (كانت هناك صالة سينما فى كل بيت من بيوته أو استراحة من استراحاته ، وكانت الأفلام ترسل اليه حتى قبل عرضها على رقابة

الأفلام، لأنه كان يعتبر السينما تسليته الأساسية) وعادة ما كان يلقى نظرة على كشف الأفلام ثم يخط بالقلم إشارة إلى اثنين أو ثلاثة منها، وفى نحو الساعة العاشرة مساء يتوجه إلى صالة السينما ومعه من يتصادف وجوده من أفراد أسرته أو من أصدقائه، ويبدأ عرض الفيلم الأول، وأحيانا يأخذ معه قليلا من شطائر الجبن أو اللحم ، وبعد منتصف الليل بقليل (يكون الفيلم الأول فى العرض الليلى قد انتهى ويبدأ عرض الفيلم الثانى) يشعر من حول الرئيس بأنه بدأ يغفو، لكنه يغالب النوم لبعض الوقت، ثم فجأة ينهض واقفاً طالباً من الآخرين جميعاً أن يظلوا حيث هم وألا يقطعوا مشاهدتهم للفيلم الذى يرونه، وينصرف هو إلى غرفة نومه لينام ، وهكذا ينتهى برنامج يوم من أيامه العادية.

كان البرنامج يختلف فى شهر رمضان. لأن الرئيس لم يكن يتناول المشروبات فيه، كما أنه كان يصوم أيامه كلها.».

انتهى ما كتبه «هيكل»!

■■

ليس سراً أن الكاتب الكبير الاستاذ « موسى صبرى» كان قريباً جداً من الرئيس السادات. بحيث شاهد ما يصلح لأن يكون رؤية عن قرب ليوم فى حياة السادات، حيث يقول :

كان السادات يتبع فى حياته اليومية برنامجاً ينفذه بكل دقة ولا يمكن أن يحيد عنه ، كان يستيقظ فى الثامنة من الصباح ، ثم يجرى بعض التدريبات الرياضية السريعة ويأخذ دشاً ثم يحلق ذقنه بيده ، وكان يفضل استخدام الصابون والفرشاة والموس، ولا يحب الآت الحلاقة الكهربائية.. وبعد ذلك يتناول إفطاره الخفيف مع الشاى من طعام ريفى خفيف «الشعرية» وخلال ذلك يقرأ الصحف، وكثيراً ما كانت السيدة قرينته تقرأ له العناوين الكبيرة والمقالات الهامة.. وكانت هى تستيقظ من الرابعة صباحاً وتمضى وقتها فى التحضير لرسالة الماجستير وللمحاضرات التى تلقيها كمدرسة فى الجامعة !

ثم يبدأ السادات فى إجراء بعض الاتصالات التليفونية برجال الدولة أو بشخصيات سياسية عالمية فى الخارج ثم يقرأ تقارير الدولة الهامة التى لم يكن قد انتهى من قراءتها فى المساء (!!)

ثم يبدأ لقاءاته الرسمية فى الساعة الحادية عشرة من الصباح وتستمر حتى الثانية بعد الظهر.. وهنا يخلع ملابسه ويرتدى الزى الرياضى لكى يمارس رياضة المشى ما يقرب من ساعتين كاملتين (!!) وكان يشاركه المشي «عثمان أحمد عثمان»، وفى بعض الأيام «أنيس منصور» فى الأعوام الثلاثة الأخيرة، أو قرينته السيدة جيهان السادات، وفى الأشهر الأخيرة قبل وفاته كانت لا تفارقه!!

وبعد المشى يدلك جسده أحد ضباط الحراسة الرياضية (وقد كان مدلكاً لجمال عبد الناصر) ثم يأخذ دشاً وينام لكى يستيقظ حوالى السادسة ويتناول غداءه فى ملابسه المنزلية وقد وضع «كنبة» فى حجرة نومه بالقناطر التى كان يقضى بها معظم أيامه تشبه المصطبة فى القرية، ويبدأ من السابعة فى مباشرة أعماله بقراءة التقارير والاتصال بالمسئولين ثم يشاهد الفيلم السينمائى الساعة الحادية عشرة أو يستمر فى العمل وكان ينام حوالى الواحدة صباحاً !!

أما إذا كانت لديه اجتماعات أومقابلات يمكن أن تتصل حتى الرابعة أوالخامسة بعد الظهر فإنه كان يمارس رياضة المشى فى الصباح بعد استيقاظه، وكان يقول لى إن المشى يعطيه طاقة تنشطه على العمل دون أن يشعر بأى إجهاد!

ويؤكد «موسى صبرى» على أنه لم يكن من طبيعة السادات أن يغرق نفسه فى التفصيلات اليومية، كان يترك ذلك لمساعديه ولرئيس الوزراء والوزراء المختصين.. كان يرى أن مسئولية رئيس الدولة هى فى وضع الاستراتيجية وتحديد الخطوط العريضة فى السياسة الداخلية والخارجية.. ولذلك كان لا يقرأ إلا التقارير الهامة، وفى جلساته مع المسئولين كان لا يضيع وقته فى غير موضوع الاجتماع الا عندما ينفرد بمسئول أو اثنين بعد انتهاء العمل، وتكون لديه فرصة للراحة، فقد كان يتحدث فى الآداب والتاريخ.. ويروى ذكرياته الشخصية فى فجر حياته.. ومع عبد الناصر!

وهو محدث لبق .. يعرف كيف يروى القصة ويعرف كيف يستولى على لب سامعيه وماذا يخفى ؟! وماذا يظهر ؟ وكيف تكون متعة الرواية وكان يمزج فى حديثه بين أسلوبين : الأسلوب الشعبى الريفى واللغة العربية السليمة التى كان

متمكناً منها بسبب حفظه للقرآن وتلاوته كاملا ولاكثر من مرة وخاصة فى شهر رمضان.

السادات كما عرفه موسى صبرى باختصار هو «إنسان فى جوهر تصرفاته .. وكان غولا سياسياً فى قراراته.. وكان استاذاً فى فن التعامل مع الواقع.

ومرة قال للقيادات الفلسطينية: اللى بتعملوه ده لعب عيال، أنا كنت بأعمله وأنا سنى عشرين سنة، المطلوب استراتيجية عسكرية تعرف كيف تنتصر فى معركة عسكرية تاريخية!!.

■■

«سامى شرف» مدير مكتب جمال عبد الناصر عرف السادات عن قرب شديد نائباً ثم رئيساً للجمهورية، وعمل معه حتى وقعت أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ والصراع على السلطة، شهادة سامى شرف سجلها بدقة الأستاذ «عبد الله أمام» فى كتابه المهم «عبد الناصر كيف حكم مصر».

يقول سامى شرف: أنا أعلم أن أنور السادات مختلف عن جمال عبد الناصر، ولكنى أردت منه بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية وأنا وزير رياسة الجمهورية أن يحدد طبيعة وأسلوب ونظام العمل معه كرئيس للجمهورية!!

كنت قبلها قد قلت له فى لقاء بقصر القبة بأنى أقترح أن يختار هو رجله وأنا جندى أعمل فى أى موقع لمعاونته لكنه رفض وقال لى: «أنا لا أستغنى عنك أبداً»!

وفى أول لقاء بعد توليه تحدثت معه عن أسلوب العمل قائلاً:

– سيادتك تعلم أننا نعمل ٢٤ ساعة فى الأربعة وعشرين ساعة ولا ينقطع العمل فى المكتب! وسيادتك تعلم أن أى معلومات تصل إلى المكتب فى أى وقت لابد أن تكون على علم بها، وهذا يعنى أن أوقظك من النوم!!

فقال السادات: لا. أنا شىء والرئيس جمال عبد الناصر شئ آخر!! من الساعة التاسعة مساءً لا تتصل بى، ويوم الخميس والجمعة أجازة!!

فوجئت بهذه الإجابة فقلت له:

– أريد استيضاحين على وجه التحديد، الأول: الساعة التاسعة مساءً فى القاهرة تعنى الساعة الثانية بعد الظهر فى واشنطن، وحسب دراستى من قبل

فى البيت الأبيض لأنى أخذت كورس هناك أعلم أن القرارات تصدر فى البيت الأبيض ما بين الساعة الواحدة والثانية بعد الظهر، ولو فرض أنه صدرت قرارات من الحكومة الأمريكية فى مسألة تتعلق بمصر أو مصر طرف فيها أو مسألة عربية متعلقة بأية قضية عربية والقضايا العربية مثارة باستمرار ماذا يكون التصرف؟

قال السادات لسامى شرف: بعد الساعة التاسعة مساءً لا اتصال بى!!

فقلت له: الاستيضاح الثانى وهو عن أجازة الخميس والجمعة، هذه أيام أجازتنا نحن كعرب، ولكن العالم كله أجازته السبت والأحد وبهذا نواجه أربعة أيام بها لخبطة فى العمل هى الخميس والجمعة والسبت والأحد .. لو ظهرت مسائل متعلقة بمصر أو بالعالم العربى يومى الخميس والجمعة ماذا تقول ؟!

فكان رده : تصرف !!

وتصادف فعلا – والكلام لسامى شرف – ما استدعى أن أتصل به بعد التاسعة مساء فى بعض المسائل ولكنه كان يقول لى :

– تصرف أنت !!

ويروى « سامى شرف» لعبد الله إمام كيف انه أثار مع الرئيس السادات موضوع كيفية عرض بريد الرئيس عليه، وكان رد السادات عليه أن يمر عليه كل يوم صباحاً ويقول لى ماذا عندك واذا كان فيه شئ يحتاج القراءة يرسله له !! وعندما قال «سامى شرف» له : إن هناك قرارات جمهورية لابد أن يراها فمن الجائز أن يعترض عليها أو يعدل فى بعضها !!

قال السادات له : لا مانع !!

لكن الشئ الذى استجد أنه بعد أسبوع كان البريد والتقارير من المفروض أن تعرض يومياً ، كنا مع الرئيس جمال على البريد المكتوب بانتظام مرتين وثلاثة فى اليوم ، مع أنور السادات كنت أرسله مرة واحدة فى اليوم، كنت أجمع حصيلة المعلومات الموجودة والتقارير والدرسات وتبوب وتلخص بقدر الإمكان وترسل له فى نهاية اليوم فى الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر أفاجأ بحقيبة سفر كبيرة مرسلة إلى المكتب من بيت أنور السادات وبها البريد كما هو ، بعض

منه ذو طابع سرى ، كنا معتادين أن نرسل مظروفاً للرئيس مكتوب عليه سرى للغاية ومغلق والرئيس يفتحه ويقرأه ويغلقه بالسلوتيب مرة أخرى ويعيده إلى، لكن هنا المظاريف عادت مرة أخرى كما هى بدون أن تفتح ولاتقرأ بعد أسبوع من إرسالها.

ذهبت اليه فى اليوم التالى وقلت له: «جاءتنى حقيبة بها مسائل كنت أتوقع فيها تعليمات وقرارات، فيه قرارات جمهورية لم توقع وقرارات تعيين سفراء لنا فى الخارج لم توقع ، البريد المطلوب التوقيع عليه لم يوقع قال السادات:

بالنسبة للقرارات المحتاجة لتوقيع اختمها بالخاتم!!

قلت: هناك أشياء لابد أن توقع بواسطة سيادتك ؟!

قال: اجمعها كل «أسبوعين.. ثلاثة وأحضرها لى أمضيها، لكن القرارات الروتينية اختمها أنت »!!

ولابد أن يكون «سامى شرف» قد أصابته الدهشة البالغة وربما المفاجأة من كلام السادات له .

فقد عاش «سامى شرف» بجوار عبد الناصر الذى كان يدمن تفاصيل التفاصيل فى كل شئ .

ان سامى شرف نفسه يروى واقعة تدعو للغرابة البالغة حيث يقول:

لوحظ فى الفترة من سنة ١٩٥٨ حتى ١٩٦٢ زيادة النشرات التى تصدر عن ما يسمى بالحزب الشيوعى المصرى. وكان التوقيع الذى يوجد فى المنشورات يحمل اسم «الرفيق خالد» واهتم بما يكتبه ، وأراد أن يعرف من هو الرفيق خالد! وكلفت الأجهزة أن تتابع الموضوع ، وتعرف من هو الرفيق خالد، وللأسف الشديد لم تستطع أن تصل إلى معرفته، وجاءت معرفته بواسطة الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً !

استدعى - الرئيس - فى يوم من الايام فى نهاية ٦٣ أحد الأشخاص وكان لدى الرئيس انطباع قوى أنه يعرف من هو الرفيق خالد، وقال له سوف أسألك سؤالا واحداً وتجيبى عليه بحكم العلاقة التى تربطنا وبحكم الوطنية ومصريتك، وثق ان الغرض ليس أن تفشى أسراراً أو أن تكشف عن شخص قد يكون عزيزاً عليك، ولكن أرجوك أن تكون صادقاً معى كما كنت صادقاً طوال عمرك !

اندهش هذا الشخص وقال : اسأل ياريس ما هو السؤال ؟!

فسأله الرئيس: من هو الرفيق خالد ؟

وحسب رواية سامى شرف فإن الرئيس قبل أن يستدعى هذا الشخص قد ظل شهرين(!!) يحلل ويقرأ كتباً وأبحاثاً ودرسات لخمسة أشخاص بعينهم، الدكتور فؤاد مرسى واحد منهم، ووصل - الرئيس - إلى قناعة شخصية أن الرفيق خالد قد يكون هو الدكتور «فؤاد مرسى» نتيجة قراءة واستنتاج ولكنه أراد أن يقطع الشك باليقين وأن يؤكد هذا الاستنتاج من شخص يعلم تماماً أنه يعرف من هو الرفيق خالد، وصدق ظنه واستنتاجه !!

■■

فى عام ١٩٤٣ وفى معتقل الزيتون شاهد «موسى صبرى» للمرة الأولى المعتقل السياسى أنور السادات واشتركا معاً فى محاولة للهروب.. و.. لقد كان «موسى صبرى» عبر سنوات طويلة قريباً من السادات فى كل حالاته فكيف رآه؟!

يقول موسى صبرى : كان السادات يحب التعبيرات الريفية الشعبية، فبدلا من أن يصف شخصاً بالغباء يقول عنه إنه «جحش» وبدلا من أن يصف شخصاً بالرعونة يقول عنه «إنه يطجن.. ده تور مالوش وتد» وكان يصف المرأة التى تهوى الشقاق والنكد بانها «حيزبونة».. ومرة شكوت له من مظاهر الفساد وأن أحد الوزراء حصل على كابينتين فى المعمورة وكابينة ثالثة فى المنتزة فكان تعليقه: «نتانة تعمل إيه فى البشر» ؟! وكان يصف أحد السياسيين الذين لا طعم لهم ولا رائحة ويدعون العلم بما لا يفقهون.. كان يصفه بأنه «زى تور الله فى برسيمه».

وكان السادات يستخدم هذه التعبيرات وهو معتدل المزاج، ولكن كانت للسادات غضباته المفزعه داخل منزله، وفى الاجتماعات السياسية الضيقة.. وهو إذا غضب فإن صوته الجمهورى يعلو ويطلق اتهاماته الهادرة!!

ويضيف «موسى صبرى»: كان السادات شخصية بالغة التعقيد ليس من السهل فهمها فى حين يبدو «مظهره» الخارجى فى منتهى البساطة بل الطيبة التى تصورها البعض سذاجة، وكثيراً ما احتار المقربون إلى السادات فى استنتاج قراراته أو فهمها، وفى بعض الأحيان كان السادات يترك المتحدث اليه

ساعة أو ساعتين دون أن يعلق هو بكلمة واحدة ، ولا يفهم المتحدث أبداً أثر كلماته على السادات !

وكان يحب مجالسة نفسه كثيراً، وكانت تمر عليه ساعات طويلة فى بعض الأحيان وبلا لقاء مع أحد وهو جالس وحده فى حديقة الاستراحة يفكر ، وكان يفضل الإقامة معظم الوقت فى استراحة القناطر لأن حولها فضاء كبيراً من الزرع، وهو يحب الهواء الطلق، وقد وضع كنبة فى حجرة نومه بالقناطر التى كان يقضى بها معظم أيامه تشبه المصطبة فى القرية.

ويضيف موسى صبرى: قال لى فوزى عبد الحافظ: كان الرئيس يصل إلى ميت أبو الكوم متعباً ومرهقاً وآثار ذلك بادية عليه، وبمجرد أن ينام ليلته الأولى، يصحو نشطاً فتياً وكأن عمره نقص عشر سنوات، وكثيراً ما كان يطوف الحقول فى المساء وهو يرتدى الجلباب القروى فى الليالى المقمرة ثم يجلس متربعاً تحت شجرة أمام الترعة ويمضى متأملاً منتعشاً بالساعات حتى يحين موعد نومه.

■■

وكان السادات حريصاً فى طعامه حرصاً بالغاً خاصة بعد أن أصيب بالذبحة الصدرية مرتين، وعرف كل شئ عن أمراض القلب، وكان يتحدث عن أنواع هذا المرض بإفاضة العارف، ولذلك فإن وجبته الوحيدة لم تخرج عن اللحم أو الطير المسلوق أو المشوى مع قليل من الفاكهة، وكانت أكلة الفول والطعمية – رغم ضررها على صحته – من أشهى الأكلات لديه، ولذلك كان يتناولها بين الحين والحين مع المهضمات!

وكان البطيخ ضاراً بصحته ويسبب له الإسهال فامتنع عن تناوله تماماً وعاش حياته منذ أول نزلة معوية من البطيخ منذ أكثر من عشرين عاماً دون أن يأكل منه قطعة واحدة، وكان يصاب بارتفاع الحرارة المفاجئ بعد الإرهاق.

أما عن هوايته الأولى فهى عنايته الكاملة بملابسه منذ فجر شبابه فى المعتقل عام ١٩٤٣ وكان مفصولاً من الجيش وهو برتبة اليوزباشى، لم يكن يملك فى المعتقل إلا قميصين وبنطلونين كاكى (من ملابس الجيش) وكان يقوم بغسلهما وكيهما وكان يضع البنطلون تحت مرتبة السرير حتى يحتفظ برونقه.. وعندما

كان يرتدى القميص والبنطلون مع الصندل كان فى قمة الأناقة، وكنت تتصوره كأنه من أبناء الارستقراطيين، وظهر ذلك أيضاً عند محاكمته فى قضية أمين عثمان، لم يكن يملك إلا «بدلة واحدة» وكانت الموضة حينئذ هى القميص الأبيض المنشى فى ياقته العريضة، وكان يظهر فى قفص الاتهام وكأنه نجم سينمائى بسبب العناية الدقيقة بملابسه!!

وليس صحيحاً على الإطلاق أنه كان يُفَصل «بدله» فى روما أو باريس أو لندن لدى أشهر الحائكين، كان «سويلم» الترزى المصرى هو الذى يُفَصل له ملابسه وكان السادات يعتنى بالبروفة ويبدى ملاحظات لا نهاية لها، وكان يستدعى السيدة «چيهان» لترى البروفة ولكنه لا يأخذ بملاحظاتها!! وحدث مرة واحدة أن اشترت له السيدة چيهان بدلتين جاهزتين من لندن ولم يعجبه التفصيل ولا الألوان.

■■

«السادات» الذى عرفه «أنيس منصور» حاجة تانية خالص!!

إنه ليس السادات الذى عرفه هيكل أو موسى صبرى أو أحمد بهاء الدين!

اقترب أنيس منصور من «السادات» محاوراً وناصحاً وصديقاً وكاتباً وصحفياً وصاحب مئات النوادر والحكايات، وذلك ما يستحق أن يوضع بين دفتى كتاب!

وحتى يروى كاتبنا الكبير أنيس منصور حكايته مع السادات وحكاياته عن السادات.. أرصد فى هذه السطور ملامح بسيطة من الحكاية، وقد رواها أنيس على مراحل متعددة، ومقالات وكتب متفرقة.

إن «سادات» أنيس منصور «سادات» مختلف عن كل ما عرفناه!!

■■

«أى إنسان هو ثلاثة أشخاص!

أنت كما ترى نفسك

أنت كما يراك الناس

وأنت كما تحب أن تكون».

بهذه الرؤية الفلسفية يحدد الكاتب الكبير «أنيس منصور» صورة السادات كما رآها ولمسها وعاشها عن قرب وطوال سنوات!

ويقول «أنيس»: «أسئ فهم الرئيس السادات كثيراً، فهو قادر على أن يمزج هذه الصور بعضها ببعض، وقادر على إخفائها تماماً، فهو مثل كل أبناء الريف بسيط وصبور وقادر على إخفاء ما يريد ويسرف فى ذلك، بل إنه يقول كل شئ حتى يخيل إليك أنه لم يعد لديه شئ، ويخفى كل شئ حتى تتصور أنه لا يريد أن يقول شيئاً.

وأول ما تلاحظه على الرئيس السادات هذه البساطة أو هذه التلقائية فى الحديث، ويكون انطباعك عنه أنه رجل فطرى ريفى.. فهو يضع على لسانه ما يخفيه فى قلبه، ولكن ليس هذا صحيحاً دائماً، فكثيراً ما أعلن شيئاً وأخفى أشياء كثيرة.

ولقد جرت ووقعت أشياء من هذا القبيل فى الأيام والأسابيع التى سبقت حرب أكتوبر عام ٧٣، فقد تأكدت إسرائيل أن مصر سوف تقوم بهجوم مفاجئ يوم أول أكتوبر، وبدأ الروس يرحلون رعاياهم من مصر وسوريا، وانزعجت «جولدا مائير» رئيسة الوزراء الإسرائيلية، وتأكد لديها أن الحرب آتية لا ريب فيها، لكن «ديان» وزير الدفاع أكد لها أن ذلك مستحيل!

وفى الساعات الحاسمة تلقت «جولدا مائير» رسالة من مصدر موثوق به أكد فيها أن مصر تستعد للحرب، واستخف «ديان» بالرسالة أو بالتحذير، وقال لمائير: «إن مثل هذا المصدر الموثوق به سبق له أن حذرنا كثيراً من هجوم يقوم به السادات، ولكن السادات يغير رأيه كثيراً».

ثم يروى أنيس منصور «كيف خدع السادات إسرائيل وكذب عليها؟»، فيقول: «كان الرئيس السادات» قد التقى بوزير خارجية إحدى الدول ونقل إليه همومه الخاصة، وقد غلفها بكثير من الخدع السياسية، وقد رسم كل هذه الخدع فى نبرة صوته وملامح الأسى والخبث الريفى، حتى كاد الرجل أن يخرج المنديل من جيبه خشية أن تنزل دموع الرئيس السادات»، ثم قال له السادات:

– بصراحة أنا أريد أن أطلعك على سر.. ولولا أنك صديق وصديق لمصر ما أقدمت على ذلك، إننى سأذهب إلى الأمم المتحدة فى أكتوبر القادم، وسوف أعرض قضيتى على العالم كله، وسوف ألقى اللوم كله على أمريكا، وبعد إلقاء الخطاب سوف أعود إلى مصر دون أن التقى بالرئيس الأمريكى!

وبسرعة انتقلت كل هذه المعلومات إلى مخابرات أمريكا وإسرائيل، واجتمعت عقول المخابرات لتنتهى إلى هذه النتيجة: إذن ليس معقولاً أن يذهب السادات إلى أمريكا فى الوقت الذى تحارب فيه الجيوش المصرية، فلا حرب فى أكتوبر!!

كان هذا بالضبط مارواه السادات لأنيس منصور الذى يروى هذه الواقعة:

قال لى «موشى ديان»: إن السادات خدعنى شخصياً، فقد زار السادات أحد أصدقائى من الأطباء الأمريكان الذين تخصصوا فى القلب، وشكا له السادات من آلام فى صدره، وكشف عليه الطبيب وقال له:

- سيدى الرئيس قلبك مثل ساعة سويسرية تدق بانتظام، قلب شاب فى العشرين!

وضحك الرئيس السادات قائلاً (للطبيب):

- أنت مثل «جمال عبد الناصر» لم يصدق أننى أصبت بأزمة فى القلب، فأرسل لى الدكتور «محمد عطية» ليتأكد من ذلك، وكان يعتقد أننى أتظاهر بالمرض هرباً من المشاركة السياسية أو التورط السياسى! لكن قلبى كما ترى نهاراً، أما فى الليل فهو يوجعنى ويخنقنى، ولذلك أنا لابد أن أستريح ثلاثة شهور على الأقل، هذه نصيحة الأطباء المصريين، وأن يكون ذلك فى أسوان أو على ضفة قناة السويس، هذا حلم حياتى، ولكنى لا أستطيع أن أحقق الحلم قبل عامين(!!) يكون فيهما الجيش المصرى قد استعد، والرأى العام العربى والعالمى أيضاً.

ويقول ديان لأنيس منصور: وقد تلقيت مكالمة تليفونية طويلة بهذا المعنى فى أواخر سبتمبر، وتأكدت من أنه لا حرب مهما كانت هذه التحركات العسكرية.

■■

وكتب أنيس منصور يقول:

ومنذ طفولته كان الرئيس السادات يرى أنه سوف يكون شيئاً هاماً!! فكان يقارن نفسه بالزعيم الهندى «غاندى»، وكان يمسك الماعز ويمشى بها فى شوارع قرية ميت أبو الكوم، وكان يعجب بـ«كمال أتاتورك» الذى أنعش آمال الشعوب الإسلامية فى النهضة والاتجاه إلى الغرب، وكان يتخيل نفسه «هتلر» أيضاً، وقد

أعرب عن إعجابه بهتلر فى خطاب بعث به لصحيفة «واشنطن بوست» وأعاد نشره الكاتب اليهودى «سول بيلو» الحائز على جائزة نوبل فى الأدب فى كتابه «القدس، ذهاباً وإياباً».

وفى التسجيل الذى أجرته إحدى محطات التليفزيون الأمريكى مع الصحفى البريطانى «دافيد هيرست» وأثار غضب الرئيس السادات فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى ميت أبو الكوم، وطرد على أثره مندوب التليفزيون الأمريكى قال «هيرست»:

– «إن الرئيس السادات لا يريد السلام حقاً، إنه رجل مسرحى استعراضى نازى، ومن أشد المعجبين بهتلر وله خطاب معروف».

والرئيس السادات كما عرفه أنيس منصور يفضل الوحدة – أى يفضل العزلة – أى أنه شعبى جماهيرى يتصل بالناس ويعيش بهم ومن أجلهم، وفى نفس الوقت يفضل أن يكون بعيداً، ولذلك لا يبقى فى بيته إلا أياماً قليلة جداً من كل سنة!

ففى الشتاء يذهب إلى أسوان والقناطر واستراحة الهرم أو فى استراحة عثمان أحمد عثمان فى الحرانية، وفى الصيف يسافر إلى المعمورة وكينج مريوط، وهو معذور فى ذلك فبيته فى الجيزة ضيق جداً! وأصوات الطباخ والسفرجية ترن فى كل غرفة، كما أنه على مسافة قصيرة من السفارة السوفيتية التى تتنصت عليه، ثم إن اعتبارات الأمن ترى ضرورة تنقله من مكان إلى مكان.

ومعروف عن الحراسة الخاصة للرئيس السادات أنه عندما ينتهى من رياضته اليومية يدخل إلى غرفته فلا يخرج إلا فى اليوم التالى (!!) ويندهش الحراس وسكرتاريته الخاصة: كيف أنه هكذا لا يغير حياته، ولا يضيق بها، ولا يشعر بالملل!!

وهو يظل يشرب فى أكواب صغيرة طوال اليوم ويدخن البايب.. ثم يشرب كوباً من أملاح الفواكه قبل أن يقوم برياضة المشى، عملاً بنصيحة طبيب ألمانى، فقد قال له: إن هذه الأملاح تقضى على الحموضة وتساعد على إذابة الدهون أو الكوليسترول فى الدم، وهو ما يجب أن يتفاداه كل مصاب بالقلب!

ثم يتذكر «أنيس منصور» إحدى الوقائع الطريفة والمثيرة أيضاً فيقول:

«أذكر أن الرئيس السادات دعانى إلى العشاء فى الإسماعيلية.. وكنا ثلاثة هو والمهندس عثمان أحمد عثمان وأنا.. وجاء الطعام وكان مكوناً من سلطة وقطعة واحدة من اللحم (!!) وقطعة واحدة من الخبز وقطعة جبن وبرتقالة، هذا كل العشاء(!!).

فقلت له: سيادة الرئيس هذه هى المكافأة التى ينالها رئيس جمهورية فى قمة كفاحه؟ فقط هذا؟!

وضحك مهدداً: إذا لم تسكت فسوف أجعلك تتعشى معى مرة أخرى!

ويضيف «أنيس منصور»:

ولأن السادات كان حريصاً جداً على الذى يأكله ويشربه كان يقول: إننى فى كل مرة ألتقى بالرئيس «تيتو» (رئيس يوغسلافيا) أندهش كيف أنه يأكل الكافيار وهو ملئ بالكولسترول ثم يشرب الفودكا والسيجار، وقد جاوز الثمانين.. لابد أن أعرف كيف يعيش هذا الرجل؟! هذا عجيب!!

وقد لاحظ الرئيس السادات أيضاً أن مناحم بيجين (رئيس الوزراء الإسرائيلى) عندما تناول الغداء معه فى شرم الشيخ قد أكل كمية كبيرة من اللحم والخضروات، وقال (السادات): كيف يفعل ذلك وهو مصاب بالقلب ثم هذه الأعباء السياسية الضخمة والمناورات الحامية فى إسرائيل؟!

■■

والسادات الذى عرفه أنيس منصور واقترب منه يرى نفسه بسيطاً فى حياته، وفى علاقاته مع الناس، ويرى أن البساطة هى أن يكون مع الناس، وأن يستمع إليهم، ولو كان للاستماع مسابقة لفاز الرئيس السادات بكبرى الجوائز، فلديه هذه القدرة العجيبة على أن يستمع لأى أحد ولأى موضوع.

ويخيل إلى من ينظر إلى عينى الرئيس السادات أنه لا يتابعه، لأن نظرات الرئيس السادات ليست مركزة، فهو لا يركزها فيمن يتحدث إليه، إنما هى ذات طابع شامل أو طابع كاسح، فهو ينظر إليك وإلى كل ما حولك ومن حولك فى وقت واحد!

وقد وصفها عيزرا فايتسمان فى مذكراته بأن نظرة السادات حادة. قلقة. عامة. غير مريحة وغير مشجعة أيضاً.

ولذلك يصفه بعض المؤرخين السياسيين بأنه صاحب نظرة حالمة، وأنه من الساسة الحالمين، أو أصحاب الرؤى والخيال والفلسفة، والسادات مؤمن بالعبارة التى قالها «ماوتسى تونج» (الزعيم الصينى): «إنه لا ثورة بغير شعر! أى بغير فن وذوق وخيال وإبداع».

والذى يرى الرئيس السادات بالجلباب والشبشب والعباءة يخيل إليه أنه وضع هذه الأشياء هكذا، دون تفكير. أبداً، إنه يختار ملابسه جيداً، وهو يقول لخادمه.. هات الجلباب الفلانى الموجود فى الدولاب بين البدلة الرمادى والبدلة الزرقاء.. وهات الشبشب البنى وليس الأسود لأن الأسود له أطراف حادة وهكذا!!

وكذلك يختار ملابسه ويطلب من الترزى التفصيلة التى تعجبه ويعرف أماكن ملابسه تماماً، وهو الذى اختار ملابس وتفصيلات الحرس الجمهورى، وبدلة التشريفة العسكرية!

وكان الرئيس السادات شديد الملاحظة، فكان يروى الأحداث هكذا، كان ذلك يوم الخميس ٤ مارس، لا يوم الأربعاء ٥ مارس ظهراً، وقابلت «د. محمود فوزى»، وكان يرتدى بدلة رمادية، واندهشت أنه يرتدى جورباً أحمر اللون، وسألته إن كان قد فوجئ بهذه الزيارة.. فقال: نعم لقد كنت نائماً وطلبت ألا يوقظنى أحد.. ولكن عندما عرفوا بقدومك أيقظونى بسرعة.. ولكن لماذا ياسيادة الرئيس؟!

فضحك الرئيس السادات وقال: «فقط لأن جوربك أحمر.. ثم إن القميص قد سقط منه زرار.. هاها.. هاها».

فى يوم نشرت «أخبار اليوم» صوراً للرئيس السادات وهو يحلق ذقنه بالقميص وبنطلون البيجامة، وصورته وهو يركب بسكليت.. وهو على الأرض يقوم بحركات رياضية.. كجزء من نشاطه اليومى.. طبعاً لابد أن يكون الرئيس قد وافق على التقاط المصور «فاروق إبراهيم» لهذه الصور، ولابد أن يكون إبراهيم سعدة «رئيس التحرير» قد استأذن الرئيس فى نشرها!

وذهبت إلى الرئيس فى القناطر الخيرية، فوجدت السيدة «چيهان السادات» والمرحومين «همت مصطفى» و«سعد زغلول نصار» وكانت «چيهان السادات» غاضبة من هذه الصور وبادرتنى بسؤالها:

- إيه رأيك أنت؟!

قلت لها: مافيش فيها حاجة.. إن رؤساء أمريكا ينشرون صورهم وهم يلعبون ويصطادون السمك.. ولعل الرئيس السادات يريد أن يقول: إن حياته بسيطة، وإنه إنسان عادى جداً، أو أنه فى صحة جيدة!

- لا لا.. ياأنيس.. لا.. الناس انزعجت لما شافت الصور.. صورة وهو على الأرض.. كيف تنشرها «أخبار اليوم»؟! الصور أساءت للريس جداً.. لا لا لا ياأنيس، ما تقولش كده للريس! اسأل «همت» واسأل «سعد»!

قالت همت: أنا رأيت الصور في الصباح فانزعجت وتصورت أن سيادة الرئيس حصل له حاجة!!

وقال سعد زغلول: المراسلون الأجانب هلكونى مكالمات.. إيه ده.. إيه اللى حصل.. إيه يعنى؟!

وتركتها وذهبت للرئيس، وكان جالساً على «المرجيحة» الموجودة فى الجنينة.. وصافحت الرئيس وجلست وسألنى:

- أخبارك إيه.. هنكتب إيه؟!.. قابلت مين؟! سألت بيجين حيعمل إيه؟! قل لى؟!

وفى هذه اللحظة جاءت السيدة جيهان السادات «غاضبة» وقالت لى:

- كل الناس مش موافقين على نشر الصور، مافيش غير أنيس!

قلت: أنا قلت للهانم ياريس إن الصور مافيش فيها حاجة، ونحن نرى رؤساء أمريكا يلعبون ويسبحون، وهى أشياء عادية جداً فى الدنيا، وقلت لها لعل الرئيس يريد أن يقول إن حياته بسيطة جداً!!

قاطعتنى جيهان السادات: اسمع «همت» بتقول إيه؟! وسعد زغلول التليفونات مبطلتش.. اسألهم ياأنور!!

وتضايق الرئيس السادات جداً، وأمر بعودة «همت مصطفى» للتليفزيون، وكانت مندوبة للعمل فى سكرتارية الرئيس لشئون الإعلام، وانتقل «سعد زغلول نصار» إلى العمل فى الحزب الوطنى، وبعد ذلك إلى استراليا!

وقال الرئيس لزوجته أمامى: إنها حديث الناس ليوم واحد، وبعد ذلك سوف يجد الناس أشياء أخرى، لا تشغلى بالك!!

- كيف لا أشغل بالى؟! إن هذه الصور فضيحة. كارثة!

وتضايق الرئيس جداً.. وانصرفت السيدة جيهان السادات غير راضية عن الذى قلت، والذى قاله.

■■

وكان لحكاية هذه الصور حكاية أخرى عاشها المصور العبقرى «فاروق إبراهيم»، والاستماع لشهادته ضرورة أيضاً.

صباح السبت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٨١ صحا الناس فى مصر وهم غير مصدقين ما يرونه على صفحات أخبار اليوم!!

فوجئ الناس بصور مثيرة للرئيس السادات وهو نائم على ظهره ممداً ذراعيه بجواره، وأخرى وهو ينظف أسنانه بالمعجون، ثم وهو يجلس وحيداً يشاهد فيلماً سينمائياً لأسمهان! ثم وهو يتمشى فى حديقة بيته!! ثم وهو يقرأ الصحف بالبيجامة فوق سريره! و... و...

كانت صور السادات صدمة مذهلة للرأى العام وقتها، كان صاحب هذه الصور الفريدة والنادرة المصور الفنان العبقرى «فاروق إبراهيم»!

غضب الكل من هذه الصور إلا السادات نفسه الذى صاح فى وجه المنتقدين والمعارضين وعلى رأسهم السيدة جيهان السادات قائلاً:

- أنتم ماتنفعوش تقعدوا معايا!!

ومضت ١٧ سنة على هذه الحكاية المثيرة، لكنها تجددت بصدور كتاب «أنور السادات حياته بالصور»!!

هذا السجل - الذى صدر عن مؤسسة «الأهرام» بمقدمة للأستاذ الكبير إبراهيم نافع، ثمرة إبداع مجموعة متميزة من المصورين الفنانين، منهم المصور الفنان «فاروق إبراهيم» الذى كان هو المصور الخاص للرئيس أنور السادات، والذى أبدع كافة الصور الشخصية للسادات وأسرته فى هذا السجل، أما باقى الصور الواردة فيه فهى بعدسات المصورين الفنانين «مصرف، أحمد سعد الله، أحمد مصطفى، أحمد مهدى، إميل كرم، أنطون ألبير، حسن التونى، عبد الستار يوسف، فتحى حسين، محمد رشوان، محمد القيعى، محمد لطفى، محمد مصطفى، محمد يوسف، مكرم جاد الكريم، المهدى خلف» أبدع الفنان «ماهر الدهبى» تنسيق وتبويب هذه الصور الرائعة فكانت بمثابة متحف حى من الصور.

لكن تبقى صور «فاروق إبراهيم» حكاية صحفية مثيرة كان بطلها الرئيس السادات ونجمها فاروق إبراهيم، وهى تستحق القراءة.

كانت فكرة جريئة ومرعبة!!

هكذا يصف الفنان المصور «فاروق إبراهيم» ما طاف بعقله يومها، إنه ببساطة يحلم ويتمنى أن يقوم بتصوير حياة الرئيس السادات اليومية، ثم يضعها فى كتاب بالكاميرا فقط.

لكن هل يوافق الرئيس السادات على هذه الفكرة؟!

جلس فاروق إبراهيم وكتب للرئيس السادات خطاباً يشرح فيه ما يريده بالضبط، وكانت المفاجأة التى أذهلت «فاروق» هى ترحيب السادات بالفكرة. بل وتحدد أول موعد لبدء التصوير، وكان فى استراحة الهرم.

يقول «فاروق إبراهيم»:

استقبلنى الرئيس أنور السادات قائلاً: إزيك.. وفوجئت بقدمى ترتعشان.. رغم أنى كنت أصوره على فترات لأخبار اليوم ورأيته مرات كثيرة قبل ذلك، لكن هذه أول مرة يتم الحديث بيننا بمفردنا ووجهاً لوجه.

وشعر الرئيس بذكائه الشديد بارتباكى وتزاحم الأفكار والخواطر داخل رأسى فجذب كرسياً وجلس.. ووجدت نفسى اقترب منه وأصوره، ثم وجدت نفسى ارتعش مرة أخرى وأتردد فى الحديث إليه، وهنا قال لى:

على فكرة الكاميرا دى نوعها إيه؟.. دى ألمانى مش كده؟

وسألنى إيه رأيك فى اللايكا.. مش كاميرا كويسة؟ الألمان دول ممتازين، عباقرة، لكن المصريين برضه أذكياء يا فاروق، وأخذ يضحك بصوت عال حتى أذاب شعور الرهبة تماماً من داخلى.

ووجدت نفسى أقول له: ممكن تقف هنا ياسيادة الريس، فقام على الفور، وقلت له سيادتك كده متكتف، ممكن تقعد براحتك على السور ده؟ وجلس ببساطة على السور.. وشعرت بفرحة غامرة، والتقطت له مجموعة من الصور الطبيعية التى لا يراها الناس.. ومنذ ذلك الحين بدأت ألتصق بالرئيس، وفى أحد الأيام فوجئ «فاروق» بسكرتارية الرئيس تطلبه وتبلغه بأن الرئيس يريده فى الساعة الثامنة من صباح الغد بالقناطر الخيرية، ويقول: فى الساعة السابعة وصلت واستقبلونى بقولهم إن الرئيس ينتظرك، ادخل فوراً، واقتادونى إلى الدور العلوى، وفوجئت بالرئيس السادات يجلس فى السرير بالبيجاما، ويغطى ثلثى جسمه بلحاف.. وكنت فى آخر مرة صورته مع الأحفاد أثناء لحظات مرح ولهو بالعجل والمراجيح، وناولته الصور بيدى، فأخذ يتفحص الصور صورة بعد صورة، ويقول لى: صباحك هايل.. آه، ها، ها، ها.. يجنن عظيم.. حلوة قوى.. وسجلت جميع ابتساماته وانفعالاته وهو يرى صوره مع أحفاده وهو على السرير بالبيجاما.. وهنا بادرنى فوراً بقوله: من الآن سنبدأ فى أحداث اليوم بالكامل.

وبدأ فى قراءة الصحف وسجلت المشهد، ثم خرجت لأعبئ أفلاماً جديدة، وانتظرت حتى يخرج من السرير ويلبس وعندئذ أصوره خارج الحجرة، وفوجئت بعد دقائق بالرئيس ينادينى، ودخلت لافاجأ به فى الحمام، يقف أمام المرآة يغسل أسنانه.. وكان يرتدى الملابس الداخلية فقط وقال لى: دى ياسيدى أول حاجة بأعملها باغسل أسنانى.. اتفضل سجل، واقتربت منه وصورت نصفه العلوى وهو يستعمل فرشاة الأسنان، وفجأة زعق فىّ بصوت عال: مالك كاتم على نفسى كده؟ ما تصور من بعيد ياأخى. قلت له ولكن اللقطة من بعيد ستشمل كل جسمك ياسيادة الرئيس، فرد قائلاً ياابنى طيب ما أنا واقف طبيعى كده.. ما أنا بادخل

الحمام كده كل يوم.. مش انت عايز حياتى الطبيعية زى ما هى ولا عايز تزويق وتزييف؟ ياابنى أنا فلاح، وعندما أوافق على حاجة تبقى تاخذها على طبيعتها.

وذهلت لهذه الصراحة والتلقائية والشجاعة، وبدأ الرئيس يغسل وجهه ثم يحلق ذقنه.. وبدأ يتوضأ للصلاة، وكنت أطلق اللقطات وأنا غير مصدق لما أفعله.

وخرج الرئيس وارتدى الروب وأدى الصلاة، وبدأ بعد ذلك يرتدى بنطلون البدلة، ثم القميص وذهب ليحضر الكرافتة، وأفاجأ بأنه يضع الكرافتات على شماعة مكسورة ومربوطة بخيط ومعلقة على الشباك.. وسجلت اللقطة الغريبة ووجدته ينظر فى مرآة، موضوعة بمفردها.. ولم يكن بالحجرة دولاب، فقلت له.. ييجى إخواننا الشيوعيين بقى كده ويشوفوا رئيس الجمهورية ممكن يعيش فى بيت شكله إيه وشماعة ومراية متواضعة إزاى؟

وهنا قال لى على الفور: «ياشيخ اتلهى»!! تعرف تجيب مراية زى دى دلوقت.. وأخذ يحدثنى عن صناعة المرايات الجديدة.

وأثناء هذا الحديث كان يختار الكرافتة ويربطها ثم يلبس حذاء برقبة «بوت» ويغلق السوستة ثم يلبس جاكيت البدلة.. وبدأ ينظر فى المرآة ويمشط شعره بالفرشاة، وأمسك بمقص وأخذ يقص الزائد من شاربه ويمشطه.. وعندما انتهيت من تصوير هذه اللقطات قال لى اخرج انت بره بقى، وتصورنى وأنا خارج من أوضة النوم بوجهى.. وبعدين تصورنى بظهرى وأنا أدخل الأسانسير.. وتنزل تجرى تأخذنى وأنا خارج من الأسانسير.. وبعد كده نروح على المقابلات مباشرة.. شىء عجيب، سيناريو مسلسل بالصور يرسمه لى، وكان يستعمل بعض الألفاظ الفنية والسينمائية فيقول خذ بقى «الشوت ده».. وكنت أنفذ كل ما يقوله، وأنا سعيد لتسهيل مهمتى.

انتهيت من التصوير وعدت إلى بيتى الساعة ١١ مساء، شعورى بالرعب أطار كل رغبة لى فى النوم، أعدت التفكير والتصوير لشريط أحداث اليوم، ووجدت نفسى أترك بيتى واتجه إلى معملى الخاص، وظللت أحمض وأطبع جميع الأفلام.. وعندما رأيت الصور امتلأ قلبى بالرعب.. إن الرئيس تساهل فى تلك

اللقطات على اعتبار أنه يتصرف بشكل طبيعى كما يحدث فى حياته اليومية، لكنه عندما يرى صوره مجسدة على ورق مطبوع ومسجل فإنه سيغير رأيه على الفور، وسيأمر باعتقالى.. وفى هذه اللحظة قمت بتجميع صور الأيام الماضية وهو يمارس الرياضة والسباحة وغيرهما لأضع فى وسطها صور الحمام وصور السرير حتى أخفف تأثيرها عليه.. وذهبت إليه فى الصباح، وكنت مستعداً لأن أعطيه كل الصور ليمزقها..

ذهبت حوالى الساعة ١٢ ظهراً، وظللت متواجداً حتى أنهى الرئيس مقابلاته حوالى الساعة الثانية، وبدأ التمشية الساعة ٢,٣٠، كان لا يتناول طعام الغداء، وكان معتاداً على التمشية فى بدلة بچاكيت صوف بكم طويل، لكنه فى هذه المرة يرتدى بدلة جديدة سويتر من قماش قطيفة.. وبينما أنا أمشى بجواره فى الطريق قبل التصوير قال لى: بيتكلموا عنك كويس، بيقولوا إنك ولد كويس، قلت: شكراً يافندم، وعلى فكرة أنا أحضرت لسيادتك آخر صور عملناها - قلتها وأنا أرتعد - فقال لى: اتركها إلى أن ننهى التمشية!

وبدأ المشى ومعه المهندس عثمان أحمد عثمان.. بعدها عاد ودخل الحمام وتوضأ ثم صلى المغرب، ثم خرج لتناول وجبته الرئيسية، البديلة عن وجبتى الغذاء والعشاء.. وقبل تجهيز الأكل نادى قائلاً: «هاتولى الصور اللى جابها فاروق النهارده».. ووجدت الساعى يشدنى من يدى ويقترب بى من باب مفتوح قليلاً بجوار الرئيس لنسمع تعليقاته، كنت خائفاً. لكننى سمعته يقهقه.. هاهاها، اكسلنت، هايل. شوف ياعثمان شوف الولد.. فاروق دا نموذج للشباب المصرى الممتاز.. شوف لما أعطيناه الفرصة.. إيه الفرق بينه وبين أى مصور أمريكانى ولا أوروبى؟! رد عليه المهندس عثمان قائلاً: دا فاروق ابننا ياريس، ودا من الكوادر الكويسة.

عشرات التفاصيل والحكايات المثيرة والمدهشة يرويها «فاروق إبراهيم» فى الكتاب الممتع والجميل «صور وأسرار من حياة الكبار» الذى صاغه وأعده برشاقة الزميل الكاتب الصحفى «أمير الزهار»، الذى يكمل قائلا:

كان الاستاذ إبراهيم سعدة رئيس مجلس إدارة مؤسسة أخبار اليوم حالياً قد عين منذ شهور قليلة - فى ذلك الحين - رئيساً لتحرير أخبار اليوم.. وبدأ فى تحرير باب جديد بالصفحة الأولى عنوانه «قصة مصورة»، وفكرت فى الأمر لماذا لا أعرض عليه أن ننشر بعض الصور على أمل أن تدفع مسألة الكتاب، وبالفعل عرضت مجموعة كبيرة من الصور عليه، وأعجب الاستاذ إبراهيم بالصور للغاية.

تفاصيل ما جرى بعد ذلك يرويها الأستاذ والكاتب الكبير «إبراهيم سعدة» قائلاً:

«كان تعيينى رئيساً للتحرير لم يمر عليه أكثر من ثلاثة شهور، وفوجئت بفاروق إبراهيم يدخل ومعه عدد رهيب من صور الرئيس السادات - وكنا جميعاً فى أخبار اليوم نعلم أنه حاصل على منحة تفرغ لعمل كتاب عن الريس - وذهلت عندما رأيت الصور، قال لى: اتفرج، لم يقل لى إنه يريد النشر، كان ينتظر أن يأتى الاقتراح منى، وللحقيقة كانت الصور مبهرة جداً، الريس يحلق ذقنه، نايم على الأرض، راكب دراجة، يلعب يوجا، وبيعمل مش عارف إيه وإيه.. قلت لفاروق لكن أنت عامل الصور دى علشان الكتاب طبعاً، قال أيوه. قلت يعنى مبدأ النشر مسموح به من الريس. قال: آه.. قلت: طيب.وأنا رأيى ننشر بعضها فى أخبار اليوم، وفى هذه الحالة احتاج منك أن تحكى لى كل شىء يتم فى حياة الرئيس خلال اليوم.

تركنى فاروق أكتب الموضوع، ودخل على الأستاذ مصطفى أمين بالصدفة وللحقيقة أنه أنقذنا من خطأ رهيب، المهم ذهل مصطفى أمين أيضاً، لكنه سأل: هل أخذت رأى الرئيس السادات فى هذا النشر؟ قلت: لا، والريس من الأساس موافق على التصوير وعلى النشر. قال مصطفى أمين: لا ياإبراهيم رأيى استأذنه أولاً.. وهنا تخوفت: لو سألت الريس ربما يقول لا هذه صور للكتاب ونحرم من نشر خبطة صحفية بكل المقاييس. لكننى على كل حال اقتنعت وطلبت.. الرئيس السادات.

قلت ياسيادة الريس فاروق ابراهيم ورانى مجموعة صور هايلة، وأنا شايف إنها ممكن تعمل ستورى (قصة خبرية) ممتازة عن يوم فى حياة سيادتك، قال الرئيس: آه هو حيعملها فى كتاب (!!)، قلت له لكن لو نشرناها لسيادتك فى أخبار اليوم برضة تعمل بروموشن (دفعة) للكتاب. ثانياً: مش كل الناس حتشوف الكتاب، خصوصاً أنهم يقولون إن الطبعة الأولى ستكون بالإنجليزية، يعنى الطبع ممكن يستغرق ربما سنة أو أكثر، قال الرئيس: مافيش مانع. قلت تحب أعرض على سيادتك الصور تختارها وتلقى نظرة على الموضوع، وهنا رد قائلاً: هى الصور مش صورى؟ - قلت: آه - مش أنا اللى ظاهر فيها؟ - قلت: أيوه - وأنا عارف أن هو بيصورنى ولا كان مخبي الكاميرا.. حتورينى إيه؟

قلت: لكن قصة أحداث اليوم فى حياة سيادتك. قال الله، هوه برضه مش قالك كل اللى شافه وحكى لك أنا بأعمل إيه بالضبط؟ ولا قالك حاجات إضافات كده؟ لو قالك إضافات ندبحه، نقطم رقبته.. توكل على الله. ويضيف إبراهيم سعدة: كانت مفاجأة مذهلة للناس، حاجة غريبة جداً على الشعب المصرى، وكنت أنا حاالتفصل، وحكاية مصيبة، والصيادون بقى فى الماء العكر والمتربصون ومستشارو السوء قالوا: ياريس احنا من الصبح التليفونات لم تتوقف، والصحافة الأجنبية «هايجة» جداً - رغم أنهم يعلمون أن هذا أمر معتاد، بل محبب جداً فى الخارج - قالوا إن الأجانب يتساءلون: إزاى رئيس مصر نايم على الأرض، وإزاى؟! وإزاى؟! وإزاى؟!

وكان رد الرئيس: انتم رأيكم كده؟ قالوا أيوه ودى غلطة كبيرة وقع فيها إبراهيم سعدة، والظاهر ان فاروق يتاجر بالحاجات دى وبشهرتك ياريس... و... و... فقال الرئيس بحسم: إذا كان دا رأيكم فأنتم ما تنفعوش تقعدوا معايا.. اللى يقعد معايا لازم يكون تفكيره أكبر من كده، وذهبت إليه مدام چيهان، وكانت ثائرة جداً، وقالت له أساتذة الجامعة كلموها، إزاى رئيس البلد يتعمل فيه كده؟ وإزاى وإزاى؟ كان حاضراً الأستاذ أنيس منصور وحكى لى هذا المشهد وقال إنه طوال الفترة التى عاشها مع الريس - وكان أقرب صحفى فى مصر إليه - عمره

ما شاف الريس وهو يعنف السيدة چيهان بهذا الشكل، قال لها: أنا قرأت الموضوع واخترت الصور.. انتم ما بتشفوش الصحافة العالمية؟ والموضوع ده مش عاوزه يتفتح تانى خالص!

وحالفنى الحظ، وأنقذت من احتمال كان مؤكداً بفصلى.. أما فاروق فأخذوا يتصيدون له بطرق غير ماشرة، وقدروا يبعدوه، عن الرئاسة(!!).

■■

هذه باختصار حكاية صور خاصة جداً هزت الرأى العام فى مصر ذات صباح ولا تزال مثار دهشتهم!!



وزراء الســادات بدايــة ونهايــة !

ابتكر الرئيس الراحل «أنور السادات» أسلوباً سياسياً انفرد وتميز به طوال سنوات حكمه.

كان من مفردات الأسلوب الساداتى المفاجأة، الصدمة، الدهشة، المباغتة، المكر، الدهاء، المناورة!!

كان السادات بحق وكما وصفه خبراء السياسة الدولية : رجل الصدمات الكهربائية والمفاجآت السياسية!!

ذات يوم ذهب «د. على لطفى» وزير المالية إلى الرئيس السادات ليعرض عليه عدداً من الملفات والموضوعات الهامة والخطيرة ، ابتسم السادات سعيداً وراضياً ومرتاحاً لما قاله د. على لطفى ثم قال له:

استمر يا على برافو!!

وفى اليوم التالى مباشرة كان د. على لطفى يقرأ نبأ خروجه من الوزارة!!

كان السادات عاشقا للمفاجآت والصدمات!!

وهذه تجربة بعض الوزراء الذين عملوا بالقرب من السادات!

■■

«إسماعيل فهمى» و«محمد ابراهيم كامل» اثنان من ألمع وزراء خارجية مصر.

كلاهما كانت له بصمته ومكانته أثناء تولى المنصب، وكلاهما أيضا شغلا الناس طويلا بسبب استقالتيهما !!

والاثنان شاهدان على تجربة عصر السادات والسياسة الخارجية!

عندما توفى الرئيس «جمال عبد الناصر» فى ٢٨ ستمبر ١٩٧٠ كان «إسماعيل فهمى» يشغل منصب سفير مصر فى النمسا، وفى عام ١٩٧١ استدعاه «محمود رياض» وزير الخارجية وقتها وعرض عليه أن يشغل منصب وكيل وزارة الخارجية لمساعدته فى إعادة تنظيم الوزارة!!

وحسب ما يقول إسماعيل فهمى نفسه : «كان من غير المتوقع أن يوافق السادات على هذا التعيين وهى مسألة حساسة نوعاً لأنها كانت تعنى أننى سوف أرقى قبل زملاء أقدم وعلى أية حال قبل السادات توصية محمود رياض.»

وفى مايو ١٩٧٢ عقد مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية فى الأهرام ندوة هامة شارك فيها عشرات المثقفين، وحضر إسماعيل فهمى هذه الندوة بصفته وكيلا لوزارة الخارجية، وكان أبرز ما قاله إسماعيل فهمى فى الندوة: «من المتعين أن يعاد تقييم الموقف الكلى فى الشرق الأوسط، وأنه لا يمكن أن تظل مصر تتذبذب فى حالة اللا سلم واللا حرب التى تحفها المخاطر» وقال أيضاً «وأنه يجب على موسكو أن تفهم أننا لن نقبل هذا الوضع إلى ما لا نهاية.»

ثم يضيف إسماعيل فهمى : «حاز النشر المزيد من الاهتمام لأنه كان هناك افتراض عام بأن اشتراكى فيها كان يمثل موقفاً رسمياً للحكومة، فلم يكن أحد يستطيع التصديق حقاً بأن كلمات تختلف عن الموقف المعلن للحكومة يمكن أن تقال علناً إلا بموافقة السادات. ولم أكن حتى ذلك الوقت قد قابلت السادات(!!)

وافترض السوفييت أيضاً أن الندوة تمت بإيحاء من الحكومة وقدموا احتجاجاً رسمياً، ونجم عن هذا أن قرر الدكتور «مراد غالب» وزير الخارجية تقديم مشروع قرار جمهورى للرئيس السادات ليوقعه مفاده إعفائى من مسئولياتى كوكيل للوزارة للشئون الخارجية على أن أظل فى الوزارة سفيراً. ويمكن فهم موقف الدكتور «مراد غالب» بعد أن قضى سنوات كثيرة كسفير لمصر فى موسكو وكان

يعتبر نفسه أحد أعمدة العلاقات المصرية السوفيتية، وعلى أية حال فعندما قدم «الدكتور غالب» القرار للسادات لتوقيعه رفض الرئيس أن يوقعه ، وكان السادات قد قرأ حينذاك ما قلته فى الندوة وأعجب فيما يبدو بالأفكار التى طرحتها وكانت النتيجة ليست فقط عدم إعفائى من مسئولياتى، ولكن أيضا بدأ السادات فى تنفيذ بعض المقترحات التى طرحت فى الندوة كان هذا على الأقل تقدير الدكتور «محمود فوزى» الذى كان نائباً للرئيس فى ذلك الوقت.

ويضيف إسماعيل فهمى قوله : وبدأ السادات فى استشارتى بشأن بعض القرارات، وكان يحدث هذا من خلال أطراف ثالثة وليس بصفة شخصية مباشرة، وعلى سبيل المثال أراد السادات معرفة وجهة نظرى فيما يتعلق بالرجوع عن تأييد مصر لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، وكان قد قرر هذا من قبل ولكن لم يصرح به علناً، وكان يمكن لمثل هذا الرجوع أن يمثل تصلباً فى الموقف المصرى وكما طلب منى - السادات - أعددت مذكرة للرئيس السادات أعرض فيها الموقف الكلى وأطرح الاختيارات المختلفة المتاحة لنا وعواقبها المحتملة، وفى النهاية نصحته بأنه لا ينبغى الرجوع فى تأييد مصر للقرار ٢٤٢ وقد قبل السادات الذى لم أكن قد قابلته حتى ذلك الوقت توصيتى.

وفى إبريل ١٩٧٣ قرر السادات إعادة العلاقات الدبلوماسية مع «بون» (عاصمة ألمانيا الغربية وقتها) واختار «اسماعيل فهمى» ليكون سفيراً لنا فى بون وطلب إسماعيل فهمى مقابلة الرئيس ليودعة قبل سفره ولم يستجب السادات فى البداية لأنه كان مشغولا جداً وحسب ما يقول إسماعيل فهمى- قررت أن أغادر البلاد دون المقابلة الرسمية المعتادة. على أية حال قرر السادات على حين فجأة استقبالى وذهبت للقائه فى القناطر وقضيت معه ساعتين ونصف بدلا من الدقائق القليلة المعتادة فى مثل هذه الزيارات الرسمية. وكان هذا أول لقاء لى بالسادات، وقد تميز اللقاء بالصراحة التامة من الجانبين وأدهشتنى الصراحة التى تحدث بها السادات معى.. و..و..الخ .

وفى نهاية اللقاء تناول السادات الغرض الذى أتيت من أجله لمقابلته وهو تعيينى سفيراً ولكن بدلاً من توجيه تعليمات لى طلب منى أن أؤجل سفرى حتى يتم تشكيل الوزارة الجديدة .

وبعد هذا اللقاء بفترة قصيرة أعلن عن تشكيل الحكومة الجديدة ، ولدهشتي اكتشفت أنني عينت وزيراً للسياحة(!!) وكدبلوماسي محترف شعرت بالاستياء، فلم تكن السياحة مسألة أهتم بها بصفة خاصة أو أعرف الكثير عنها !! وقررت رفض هذا التعيين، وسعيت للقاء السادات مرة أخرى، وسمح لى بمقابلته، ولكن عندما وصلت إلى هناك اكتشفت أنني لست وحدى، بل دعا السادات لا نعقاد الوزارة الجديدة بأسرها فى نفس الوقت، ووجدت نفسى فى موقف حرج للغاية لأنه سوف يكون من الصعب جداً رفض التعيين أمام الجميع،

وتبادل السادات كلمات قليلة مع كل وزير متحدثا عن واجباتهم الجديدة ، وعندما أتى دورى لم يقل شيئا عن السياحة (!!) وقال فقط إننى سوف أكون مستشاره فى القضية القومية ومبعوثه الخاص في مهام خاصة !

واستبقانى السادات لفترة وجيزة عقب الاجتماع وقال لى :

إن تعيينى وزيراً للسياحة كان مجرد غطاء وذريعة لإبقائى فى القاهرة وقال إنه لم يستطع أن يعيننى وزيراً للخارجية لأن وزير الخارجية فى ذلك الوقت كان فى نيويورك حينذاك، وانه لا يعفى أحداً من منصبه أبداً بينما هو فى الخارج!

وهكذا بين إبريل وأكتوبر ١٩٧٣ كنت أقوم بدور مزدوج كوزير للسياحة ومستشار للرئيس السادات، ويتعين على أن أعترف بأننى أحببت منصبى فى وزارة السياحة على الرغم من عدم رغبتى فى قبوله فى البداية .

وقبيل حرب اكتوبر عينت فى منصب القائم بأعمال وزير الخارجية وعضو فى وزارة الحرب المحدودة العدد ، لأقوم بدور وزير الخارجية الذى كان يحضر جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك، وبصفتى هذه أرسلنى السادات لأتباحث مع نيكسون (الرئيس الأمريكى) وكيسنجر (وزير الخارجية الأمريكى) فى أواخر اكتوبر فى أول اجتماعات حاسمة بعد الحرب، وبينما كنت فى طريقى إلى واشنطن أعفى السادات وزير الخاجية وعيننى فى منصبه!!

وكان من المتعين أن أبقى فى هذا المنصب لأحاول تشكيل السياسة الخارجية لمصر فى الاتجاه الذى رأيت أنه ضرورى كما شرحت فى الندوة حتى اضطررت إلى الاستقالة بسبب قرار السادات بالسفر إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧، وكانت

السنوات الأربع منذ تعيينى وحتى استقالتى سنوات حاسمة لمصر وللشرق الأوسط، إذ كانت سنوات محملة بفرص كثيرة وتقدم عظيم .

وفضل إسماعيل فهمى تقديم استقالته مكتوبة وكما قال للسفير الأمريكى «أيلتس» إننى لو تحدثت إلى السادات نفسه فالاحتمال ببقائى كان ٥٠٪ ولكن أيلتس لم يوافقنى قائلا: كلا فاحتمال الضغط عليك بالذهاب معه سيكون ٩٥٪.

واستمر السادات فى طريقه!

وكان لابد من البحث عن وزير خارجية جديد !!

■■

وكان هذا الوزير هو «محمد إبراهيم كامل» والذى كان قبلها مباشرة يشغل منصب سفير فى ألمانيا .

ووقتها جرت حادثة طريفة، وكان برنامج الزيارة يتضمن زيارة السادات لمقر الرئاسة ثم زيارة العمدة فى قصر بلدية ميونيخ !

وحسب ما يقول إبراهيم كامل: «فقد أعدت خطبتان ليلقيهما الرئيس السادات فى مناسبتين مختلفتين، وأعدت الفقرة الأولى فى كلتا الخطبتين باللغة الألمانية بناء على تعليمات الرئيس، وكان سكرتير الرئيس الخاص «فوزى عبد الحافظ» هو المكلف بحمل أوراق الرئيس ونظارته وغليونه !

وفى مقر رئاسة الوزراء أنتهى رئيس الوزراء من خطاب الترحيب بالرئيس وترك له المنصة، نقدم الرئيس «السادات» ومن ورائه سكرتيره الخاص الذى سلمه النظارة والخطبة التى سيلقيها، كانت القاعة قد سادها سكون عميق بعد انتهاء التصفيق فى انتظار سماع خطاب الرئيس .

كان مدير المراسم الألمانى يقف بجوارى عندما انطلق صوت الرئيس السادات الموسيقى العميق وهو يلقى خطابه قائلا: عزيزى السيدة العمدة !!

نظر إلى مدير المراسم وهو منزعج إلا أنه لم يكن هناك ما يمكن عمله بينما استمر السادات فى خطابه إلى نهايته دون أن يشعر بشئ غير عادى وانطلق فى نهايته تصفيق مهذب !!

لقد قدم «فوزى عبد الحافظ» بطريق الخطأ - للرئيس الخطاب غير المناسب ولم يفطن الرئيس للأمر، فقد ألقى الخطاب الذى كان مفروضاً أن يلقيه ترحيباً بالعمدة أمام رئيس الوزراء!!

■■

وجرت الأيام والاسابيع ليفجر السادات قنبلته الشهيرة بمبادرة السفر إلى إسرائيل التى هزت الدنيا كلها ، حيث تابعها العالم بدهشة وحيرة وقلق!

كان «محمد إبراهيم كامل» سفيرنا فى بون يتابع بقلق مبادرة السادات بالسفر إلى القدس، واتصل به السفراء العرب يستوضحون الأمر لكنه لم يكن يملك المعلومات الكافية، وعندما اتصل بوزير الخارجية «إسماعيل فهمى» فى تونس حيث كان يحضر مؤتمر وزراء الخارجية العرب لم يجده !! وتوالت الأحداث بسرعة !!

ويقول محمد ابراهيم كامل: «بعد ظهر يوم السبت ١٩ نوفمبر علمت باستقالة وزير الخارجية «إسماعيل فهمى» فزاد قلقى إذ كانت تربطه بالسادات علاقة وثيقة واستنتجت على الفور أن مبادرة السادات لم يسبقها الإعداد الكافى على الأقل فى نظر إسماعيل فهمى وهو دبلوماسى محنك، ولم تمض ساعات حتى أعلنت استقالة وزير الدولة للشئون الخارجية.. «محمد رياض» و«تعززت شكوكى» و...

وسافر السادات إلى القدس !! ثم يضيف إبراهيم كامل

بعد ظهر يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٧٧ غادرت وزوجتى مطار فرانكفورت الدولى على طائرة مصر للطيران للإعداد لزيارة المستشار هلموت «شميدت» الرسمية لمدة يومين فى القاهرة ابتداء من ٢٧ ديسمبر.. وتأخر وصول الطائرة ، فوصلنا إلى مطار القاهرة فجر يوم ٢٣ ديسمبر وتوجهنا إلى منزل زوج شقيقة زوجتى السيد «أحمد خيرت سعيد» الذى كان نائباً لوزير الخارجية فى عهد عبد الناصر للإقامة معهما حتى تنتهى زيارة المستشار الألمانى ثم نعود إلى بون !

واتصلت تليفونياً بوزارة الخارجية لتحديد موعد مع الدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية ثم بالرئاسة لتحديد موعد مع الرئيس السادات ، بعد الظهر - ١٩٧٧/١٢/٢٥- توجهت لزيارة والدتى فى حى الزمالك، وعدت إلى

منزلى فى حوالى الساعة الخامسة والنصف فوجدت البيت مليئاً بأفراد العائلة والأصدقاء وهم فى حالة انفعال!!

أخبرتنى زوجتى أن الراديو والتليفزيون قد أذاعا نبأ تعيينى وزيراً للخارجية خلفاً للوزير السابق «إسماعيل فهمى» تلقيت فى البداية هذا النبأ بدهشة لم تلبث أن حل محلها شعور بالغضب بسبب إهمال السادات لأخذ رأيى فى تولى هذا المنصب خاصة فى الظروف الدقيقة وغير العادية التى خلفتها مبادرته، وزادنى غضباً أننى شعرت بأنى وقعت فى فخ لافرار منه !! إذ كان من المستحيل على بعد أن أذيع النبأ على العالم كله أن أرفض المنصب ، أو أستقيل منه حتى قبل أن أتولاه لاعتبارات تتعلق بعلاقتى الشخصية بالسادات والتى ترجع إلى أكثر من ثلاثين عاماً، ولاعتبارات وطنية من الناحية الثانية، إذ إن رفضى للمنصب بعد إعلان تعيينى سيظهر كحلقة جديدة فى سلسلة الاستقالات التى بدأها اسماعيل فهمى وتبعها « محمد رياض» ويوجد انطباعاً سيئا ويشكل لطمة للسادات تمس اعتباره الأدبى ويشكك فى حكمة الخطوة التى أقدم عليها، ويؤكد المخاوف من أن الرأى العام المصرى لا يسير وراء الرئيس (!!)

ويضيف محمد إبراهيم كامل متسائلا:

فى الحقيقة لا أدرى حقيقة موقفى فيما لو عرض على السادات منصب وزير الخارجية وقبل إعلان ذلك على الملأ - هل سيكون بالرفض أو القبول ؟! على أى الأحوال كان ذلك سيتوقف على شرحه لى للموقف ولخطته !المهم أننى سأكون فى موقف أسهل للاعتذار عن عدم قبول المنصب مما يتيح له اختيار شخص آخر دون أن يتعرض لمهانة استقالة ثلاثة وزراء خارجية الواحد تلو الآخر !

«وزاد من المى شعورى بأن زوجتى لم تكن مرتاحة إلى هذا المنصب الجديد، وهى وإن لم تفصح عن ذلك صراحة إلا أننى كنت أشعر بما ينتابها من إشفاق على وخاصة وأن حالتى الصحية كانت سيئة بسبب إسرافى فى التدخين الذى لم أفلح فى الاقلاع عنه رغم الحاح الأطباء».

بعد نصف ساعة رن جرس التليفون وكان المتحدث ممدوح سالم رئيس الوزراء الذى طلب منه التوجه لمقابلته فى مقر مجلس الوزراء، ويضيف محمد

إبراهيم كامل: «عبرت له عما أشعر به من ضيق من جراء هذا التعيين دون استطلاع رأيي فذكر أنه يقدر ذلك، ولكن الموقف على كل حال لا يحتمل إلا القبول وذكر لى أن الرئيس السادات تكلم عنى فى مناسبات عديدة أمامه ممتدحاً كفاءتى ووطنيتى وأنه يشاركه فى هذا الرأى وتمنى لى التوفيق!!»

فى ذلك الوقت كانت أنظار الدنيا كلها تتجه إلى الإسماعيلية حيث مباحثات الرئيس السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجن، ووصل محمد إبراهيم كامل فى طائرة هليكوبتر حربية إلى الإسماعيلية. وسألت «الدكتور عصمت عبد المجيد» أن يلخص لى ما دار فى مؤتمر القاهرة التحضيرى للسلام الذى دعا اليه الرئيس السادات والذى تعدد فى فندق مينا هاوس ولم يحضره غير الجانب المصرى والإسرائيلى والإمريكى حيث رفضت كل من سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية حضوره. وما كاد يشرع فى الحديث حتى استدعيت لمقابلة الرئيس السادات الذى كان ينتظرنى فى حديقة الاستراحة جالساً يستمتع بدفء الشمس الساطعة، وقد رحب بى بحرارة وذكر أنه لم يكن يعلم بوجودى وكان يظن أنى مازلت فى بون.

وعاتبته على تعيينى وزيراً للخارجية دون أخذ رأيى وعبرت عن عدم ارتياحى للاشتراك فى المباحثات التى ستبدأ فى غضون ساعة دون أن يكون لدى أية خلفية عنها أو معرفة بجدول أعمالها والمواضيع التى ستناقش ، فرد قائلا إنه سمح لنفسه بتعيينى دون سؤالى لأنى بمثابة ابنه (يكبرنى السادات بتسع سنوات) وأنه اختارنى لأنه يريد شخصاً يثق به تماماً ويتصف بالوطنية والشجاعة وقال إننى لو علمت عدد الذين كانوا يتهافتون على التعيين فى هذا المنصب لما أسفت»!!

حتى تلك اللحظة لم يكن «محمد إبراهيم كامل» قد حلف اليمين بعد، وكانت دهشته بالغة عندما علم «أن السادات يعتزم أن يشارك فى مراسم حلف اليمين مناحم بيجن وبعض أعضاء الوفد الإسرائيلى كتعبير عن روح الود والسلام..»

يقول ابراهيم كامل: «صدمت من الذهول وطلبت من حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى أن يبلغ السادات أن مثل هذا لم يقع فى العالم من قبل وأن

هذه عملية لا شأن للإسرائيليين بها وأنى على كل حال لن أقوم بحلف اليمين أمامهم مهما حدث !!

وعاد حسن كامل ضاحكا وأخبرني بأن الرئيس وافق على رأيي وعدل عن فكرته، وذهبت معه إلى غرفة الاستقبال حيث كان يجلس السادات مع مناجم بيجن وبعض معاونيه. فاستأذن منهم وتوجه إلى ركن من الغرفة ووقف على يمينه السيد حسنى مبارك وعلى يساره السيد «ممدوح سالم» وقمت بحلف اليمين».

كان للرئيس السادات رؤيته التى تصادمت مع رؤية محمد ابراهيم كامل وكان كل منهما على قناعة تامة بهذه الرؤية، وأخيراً قرر الوزير الاستقالة وذهب لمقابلة السادات فى استراحة (فى ١٦ سبتمبر١٩٧٨) ودار حوار طويل بينهما سجله محمد إبراهيم كامل فى مذكراته وكان رأى السادات النهائى : أنا أعلم ما أفعله وسأمضى فى مبادرتى إلى النهاية !

قال الوزير : إذن ارجو أن تقبل استقالتى!

قال السادات : كنت أعلم من البداية أنك تلف وتدور لتقول هذا فى النهاية !!

■■

ثم نأتى لوزير آخر كان على موعد مع القدر والحظ وهو الدكتور بطرس غالى صاحب التكشيرة التى لاتفارقه أبداً !

اوعى تصدق هذه التكشيرة على وجه د. بطرس غالى!!

هذه التكشيرة التى لازمته أستاذاً جامعياً، وكاتباً قديراً، ووزيراً لامعاً، وأخيراً سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة !!

إن «د. بطرس غالى الذى نعرفه ليس هو بطرس غالى الذى يكتب عن نفسه وعن الآخرين بكل الجرأة والصدق وخفة دم ابن بلد حقيقى، فالقفشة والنكتة والموقف الطريف عند أطراف أصابعه، ويجيئ فى مكانه الصحيح من أخطر وأعمق شهادة مصرية صدرت عن مبادرة الرئيس السادات وسفره إلى القدس وماتلاها من تداعيات.

مذكرات «د. بطرس غالى» شهادة هامة وجادة وصادقة تعرى وتكشف الكثير. السطور التالية زيارة لمذكرات د. بطرس «طريق مصر إلى القدس» ، وهى زيارة

فيها المتعة والإثارة والتشويق أيضاً، والمثير أن يكون د. بطرس غالى هو بطل تلك الحكايات كلها !

من أول لحظة أو صفحة يستولى عليك د. بطرس غالى بحكاياته ونوادره وقفشاته وسخريته اللاذعة وخفة دمه، وبساطته وعمقه وصراحته ولن يتسرب إليك الملل أو الزهق وأنت تقرأ مشوار د. بطرس غالى الذى لخصه فى ٣٥٦ صفحة!!

تبدأ مذكرات د. بطرس بيوم الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ١٩٧٧، وكان - كما يقول - يوما عاديا فى حياته فقد بدأ بالذهاب إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية التى شارك فى تأسيسها عام ١٩٦٠، ثم ذهب الى «الأهرام» لوضع اللمسات الأخيرة فى عدد مجلة «السياسة الدولية» ثم توجه لمطار القاهرة لاستقبال زوجته التى كانت عائدة من إيطاليا !

وفى المطار لمحته الصحفية الأستاذة «هدايت عبد النبى» فركضت نحوه منفعلة وهى تقول له :إن رئاسة الجمهورية تبحث عنك فى كل مكان، وأضافت : ألف مبروك يادكتور على الوزارة! وعندما وصلت زوجة بطرس غالى ولاحظت التعبير الذى على وجهه اعترف لها بأنه مهدد بمصيبة ستقلب حياتها رأساً على عقب !

ويقول د. بطرس: لماذا اختارنى السادات ؟! لم أكن أعرف !! كنت قد التقيت به فى بداية الثورة عندما كان واحداً من أعضاء المجموعة الداخلية لمجلس الثورة، وجمعتنا المنصة معاً فى برنامج للاحتفال بيوم الأمم المتحدة فى أكتوبر ١٩٥٤ قال لى - أنا لا أعرف شيئا عن الأمم المتحدة !

وقرأ الأسئلة التى كان متوقعاً منا أن نناقشها وألقى بها جانباً وهو يقول إنه لن يجلس للامتحان كتلاميذ المدارس . لكن عندما بدأ البرنامج أجاب السادات عن الأسئلة باطلاع واسع وبعمق. كان الرئيس السادات شديد الذكاء ولكنه غالبا يريد أن ينفى دهاءه وحدة ذهنه. كان يقرأ كثيراً على الرغم من شهرته بأنه لا يجد أبداً وقتاً للقراءة، وكنت على امتداد السنوات قد نشرت فى الصحف اليومية والمجلات المتخصصة كثيراً من المقالات عن القضايا الكبرى فى السياسة الخارجية المصرية، ولم يكن لى غير اتصال محدود بالرئيس السادات، ولكنى كنت أعرف أنه قد قرأ مقالاتى، وتساءلت عما إذا كان الرئيس قد اختارنى لهذا المنصب تمهيداً لتعيينى وزير دولة للشئون الخارجية.

وفى يوم حلف اليمين واجهت بطرس غالى مشكلة قال عنها : كانت مشكلة بسيطة، بدا لى أنها بالغة الأهمية : هل أظل مرتديا نظارتى وأنا أتلو القسم أم أخلعها ؟! بينما كنت أفكر فى هذه المعضلة، وجدت نفسى واقفاً أمام رئيس الجمهورية ونظارتى فى مكانها، إلى يمين الرئيس السادات كان يقف نائب الرئيس «حسنى مبارك» والى يساره ممدوح سالم رئيس مجلس الوزراء، خلعت نظارتى، وتلوت اليمين متمهلا وعدت إلى مكانى.

والطريف بعد ذلك أن الوزراء بدأوا يستعدون لالتقاط الصورة التقليدية ويقول د. بطرس : كان الزملاء الجدد يقومون بمناورات استراتيجية مدروسة لشغل موقع ظاهر فى الصورة وبسبب عدم انتباهى وجدت نفسى فى بقعة متواضعة فى الصف الأخير جوار فضيلة الشيخ «محمد متولى الشعراوى».

■■

وألقى السادات خطابه الشهير فى ٩ نوفمبر بمجلس الشعب والذى أعلن فيه من مبادرته بالسفر إلى إسرائيل! ويقول بطرس غالى : كان الرئيس عرفات أول من انفجر بالتصفيق لهذه الكلمات ولم يكن عرفات ولا زملائى ولا أنا قد فهمنا ما قاله الرئيس !! كان اعتقادى أن الرئيس أحرز كسباً دعائياً، ولكن الحديث عن عزمه على الذهاب إلى إسرائيل لا أساس له من الواقع.

وبعد أسبوع بالضبط طلب ممدوح سالم منه أن يتوجه لقصر العروبة لمقابلة النائب ، ثم يقول د. بطرس : «وبعد دقائق قليلة دخل «مبارك» مبتسما وودوداً وقال: «إن الرئيس السادات معجب بكتاباتك الفكرية والسياسية ويعرف اتصالاتك بالدوائر الدولية ولذا قرر أن يكلفك بعمل هام وسرى، فهو يطلب منك إعداد الخطوط العامة لكلمة يلقيها يوم الأحد المقبل فى إسرائيل!! أمام الكنيست» !! وكانت دهشتى مزدوجة. فلأول مرة أعرف أن الرئيس السادات يعتزم فعلا الذهاب إلى إسرائيل!

وكان مبارك قد أوضح لى أن مبادرة السلام هذه من جانب الرئيس لا تعنى التخلى عن أية حقوق تتعلق سواء بقضية الفلسطينيين أو بالأراضى العربية التى تحتلها إسرائيل منذ ١٩٦٧ وأن الكلمة يجب أن تعبر عن ذلك بوضوح!

كتبت بعض الملاحظات على قطعة ورق صغيرة ومرت بذهني أسئلة عديدة ولكني فضلت الاكتفاء بالاستماع وقال نائب الرئيس إن المسودة يجب أن تعد باللغة الإنجليزية، قلت: إن الإنجليزية هي لغتي الثالثة بعد العربية والفرنسية، ولذا فإنني أطلب مساعدة أحد زملائي للتأكد من سلامة اللغة، ووافق نائب الرئيس، ولكنه كرر التشديد على ضرورة السرية!!

لكن أغرب ما لاحظه د. بطرس غالي أثناء الطيران إلى إسرائيل أن السادات كان هادئاً ومرتاحاً كما لو كانت هذه رحلة عادية، كان يتحادث في غير كلفة مع صديقه عثمان أحمد عثمان يتبادلان النكات ويضحكان في سعادة، وخطر لي أن هدوء السادات هو مشهد متعمد، فكيف لا يمتلئ أي شخص بالانفعال وهو في بداية هذه الرحلة التي لا يصدقها العقل ؟!

ثم يروي بطرس غالي هذه الواقعة: «ذهبنا إلى المسجد الأقصى حيث صلى الرئيس ومرافقوه ووقفت على مقربة منهم، بينما كان المصلون ينحنون ويركعون أمام عظمة العلي القدير، ولا أستطيع أن أصف الانفعال الذي غلبني في هذه المناسبة في هذا المكان المقدس، كنت على وشك البكاء، وللتغلب على ذلك أرغمت نفسي على التفكير في الحذاء الذي تركته خارج المسجد وما يمكن أن يحدث إذا لم أجده في الكومة الكبيرة الموجودة هناك ؟! كما لم أستطع أن أبعد التفكير في الملك «عبد الله بن حسين» ملك الأردن الذي قتله أحد الفلسطينيين في عام ١٩٥١ أثناء دخوله المسجد الأقصى للصلاة، وكانت تهمته هي التعاون مع إسرائيل والرئيس السادات يغامر بالتعرض لنفس المصير»..

ثم يقول د. بطرس: «ذهبنا إلى كنيسة القيامة حيث رحب الأنبا باسيليوس المطران القبطي المصري للقدس ترحيبا حاراً بالسادات، وألقى خطبة نارية هاجم فيها الاحتلال والممارسات الإسرائيلية بشدة واكتسى وجهه باللون الأحمر وارتعشت يداه بالانفعال، وكانت لحيته البيضاء تتحرك وهو يتكلم بصوت جهوري كما لو كان يوقظ جمهوراً واسعاً بخطابته، واستمع الرئيس السادات إلى المطران بلا انفعال» !

ومن المواقف الطريفة ذات الدلالة التي واجهها د. بطرس غالى هذا الموقف الذى يرويه بقوله : - لاحظ بيجين أن «السادات» يدعونى أحيانا «بطرس» وأحياناً أخرى «بيتر» أخذنى «بيجين» جانباً وسألنى: لماذا لك اسمان ؟ أجبت بأن السادات يدعونى بيتر - وبطرس هى الصيغة العربية لاسم الحوارى بيتر- عندما يكون راضيا عنى، وعندما لا يكون راضيا تماماً عن سلوكى يدعونى بطرس!

وأعجب بيجين بذلك وبدأ يطبق نفس الشئ بطريقته الخاصة، وهوكان يعرف أن الكلمة اللاتينية «بيتروس» تعنى الحجر أو الصخرة، ولذا فعندما كان بيجين يضيق بمقاومتى لدبلوماسيته يدعونى بيتر، وعندما يرضى عنى يدعونى بطرس! ولم يلبث السادات أن أدرك أن بيجن قلب معنى التسمية التى يتبعها هو رأساً على عقب، وأخذ يستمتع بمداعبة بيجين بشأنها كأنها نكتة مستمرة!!

■■

عشرات المواقف الصعبة واجهت مسيرة د. بطرس غالى، لكن بعض المواقف جديرة بالوقوف أمامها بالتأمل ، وربما بالدهشة أيضا!

صباح الاثنين ٧ يناير ١٩٨٠ وصل رئيس الوزراء الإسرائيلى «بيجين» إلى أسوان، وعقد مع السادات قمة ناجحة، لكن د. بطرس غالى كان محل هجوم الصحافة، فالعرب يعتبرونه خائنا، والإسرائيليون يعدونه عامل تصدع لعملية السلام.. ومع ذلك كان حماسه للسلام بغير حدود ! وكاد يدفع ثمن هذا الحماس غاليا، والحكاية مثيرة وتثير الدهشة !!

يقول د. بطرس:« تلقيت مكالمة هاتفية من إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام الذى أبلغنى أن السادات غاضب جداً من التصريح الذى كنت قد أدليت به لإذاعة مونت كارلو واستنكرت فيه موقف الإسرائيليين السلبى من الفلسطينيين، وأن معاهدة السلام ستكون « طلقة فشنك» مالم تحل المشكلة الفلسطينية.

وطلب الصحفيون الإسرائيليون عقد اجتماع عاجل معى وأبلغونى أن «بيجين» طلب من السادات أن يتخلص من الوزير بطرس غالى «الذى تعتبر سياسته عقبة أمام عملية السلام»، وقالوا إن السادات وعد بشد أذن الوزير وإبعاده عن عملية السلام وأنه سيتم استبعادى فى التعديل الوزارى الذى سيجرى بعد أيام (!!)

وفى المطار، بدا أن تصريحات الصحفيين لها أساس يبررها، فلم يوجه بيجين إلى التحية، والتفت السادات بعيداً وتظاهر أنه لا يرانى، وقد لاحظ ذلك زملائى ومرافقو السادات، وفى قاعة المطار جلست بمفردى يحوطنى الصمت، ولاحظت جيهات السادات أننى جالس وحدى ودعتنى بعطف إلى الجلوس بجوارها وسألتنى: دكتور غالى لماذا تتباعد عنا بدرجة كبيرة ؟!!

ثم يقول د. غالى : اقتربت من الرئيس وقلت بهدوء: «لقد أحاط بيجين الصحافة علما بأنك قدمت تنازلات جديدة من أجل الإسراع بعملية التطبيع بين مصر وإسرائيل.. وأن الخطوط الجوية سوف تبدأ رحلاتها بين البلدين.. غير أننا لم نحقق أى تقدم فيما يتعلق بالمشكلة الفلسطينية»!!

وقاطعنى السادات بصوت غاضب وعال : لقد تعين على أن أقدم هذه التنازلات لكى أحد من الأضرار الناجمة عن تصريحاتك الأخيرة للصحافة الدولية، لقد جاء بيجين لمقابلتى صباحاً، ولم يكن قد نام طول الليل، وهو متكدر للغاية وشاحب الوجه جداً ، وهو يشعر بالإساءة نتيجة لتصريحاتك الغبية، وقد اضطررت إلى تهدئته وتقديم تنازلات للتعجيل بعملية التطبيع . توقف عن الإدلاء بتصرحات للصحافة إننى أطلب منك التوقف عن إعطاء أحاديث صحفية والإدلاء بتصرحات.

وبسرعة غيرت موضوع الحديث وسألت:

- هل انتهيت من قراءة تقريرى الطويل عن الموقف بشأن مصر والموقف العربى الجديد ؟!

وتغير مسلك السادات فوراً، فقد ابتسم، واختفى غضبه: نعم انتهيت من قراءة التقرير وأهنئك إنه ممتاز، إنك علامة حقيقى، لقد عرفت أنه من المفروض أن تسافر إلى القاهرة مع زملائك إلا أن بوسعهم الانتظار تعال معى، ولنبحث تقرير الموقف معاً(!!)

ويضيف د. بطرس غالى: «وطوال الساعتين التاليتين بحثنا - السادات وأنا - تقريرى صفحة صفحة، لقد كان نصاً أمضينا فى إعداده - مساعدى المقربين لى

وأنا - ثلاثة أشهر، ففى ٦٠ صفحة حلل التقرير إسهامات مصر فى العالم العربى والأزمة التى نجمت عن عملية السلام وموقف مصر تجاه هذا الموقف الجديد. وقد علق السادات على التقرير بتذييلات وشروح كثيرة وقام حتى بتصحيح الأخطاء المطبعية والأخطاء النحوية وقال مبتهجا:

- لقد نسيت قواعد النحو يابطرس.

وأصبح المزاج هادئاً ووديا، وبدا السادات كما لو كان قد نسى لومه لى، ووعده لبيجين بإبعادى عن عملية السلام، غير أننى كنت أعرف السادات جيداً، فإن هذا الاجتماع الودى لا يعنى شيئا، وأعرف أنه عندما تتطلب مصالحه ذلك لن يتردد فى استبعادى من الوزارة، أو على الأقل من فريق التفاوض.

وبعد أيام كانت زوجة بطرس غالى تزور السيدة جيهان السادات ورآها السادات فقال لها: «قولى لبطرس اقفل بقك، وتوقف عن الإدلاء بتصريحات»!!

وفى مباحثات الحكم الذاتى (سبتمبر ١٩٨١) حدث شجار حول نص البيان المشترك ويحكى بطرس هذه الواقعة ذات الدلالة:

«همس كمال حسن على فى أذنى بحلول وسط وقلد صوت السادات: يابطرس بطل تغيظ الإسرائيليين» (!!).

■■

يروى «عثمان أحمد عثمان» قصة اختيار السادات له وزيراً، والقصة كلها لا تخلو من دلالات مهمة، وقد رواها «عثمان أحمد عثمان» قائلاً:

«فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣، كانت قلوب كل المصريين، وعقولهم مشدودة إلى ما يجري في منطقة القنال من معارك لم ينطفئ لهيبها خاصة بعد الثغرة التى لم تتضح أبعادها في ذلك الوقت..

كان قلبي منقبضاً وأعصابى مشدودة، وبينما أنا على ذلك الحال إذ بجرس تليفون منزلي يدق في الساعة السادسة مساء، وعندما تلقيت المكالمة وجدت من يستدعيني لمقابلة الرئيس السادات فى نفس الليلة الساعة الثامنة والنصف مساء بقصر الطاهرة - أى بعد ساعتين ونصف».

وراح «عثمان أحمد عثمان» يتساءل بينه وبين نفسه عن السبب الذي يمكن أن يستدعيه الرئيس السادات من أجله في هذا الوقت، وكان من ضمن ما تصوره هو أن الموقف العسكري قد يستدعى إقامة عدد من قواعد الصواريخ أو المطارات أو دشم الطائرات!

ويعترف «عثمان» بأنه تمنى فى داخله لو أن السادات كلف أحداً غيره بهذه المهمة وذلك حتى لا يراه في تلك اللحظات العصيبة ثم يضيف «عثمان» قائلاً:

«ولكن مادام قد استدعانى كان لابد أن استجيب، وقبل أن أذهب إلى المقابلة أصدرت تعليماتى باستدعاء جميع المديرين من منازلهم، وطلبت منهم عدم مغادرة الشركة تحت أى ظرف، وأن يضعوا جميع أفرع وإدارات وأقسام الشركة فى حالة طوارئ كاملة إلى أن أعود».

وصلت إلى قصر الطاهرة في الثامنة إلا ربع، والتقيت «بحسن كامل» رئيس ديوان رئاسة الجمهورية في ذلك الوقت فسألته عن سبب استدعاء الرئيس لي فوجدته لا يعرف، ثم قابلت بعد ذلك «فوزي عبد الحافظ» مدير مكتب الرئيس ووجهت له نفس السؤال فلم أجد عنده أى جواب، وفهمت أنهما يتكتمان الخبر، ولا يريد أى منهما أن يقول لى شيئاً، ولذلك فضلت ألا أتحدث مع أى منهما في ذلك الموضوع إلى أن حان موعد المقابلة.

يضيف «عثمان أحمد عثمان»:

دخلت إلى مكتب الرئيس في الثامنة والنصف تماماً فوجدته يرتدي الزي العسكري وهذا أمر طبيعي، والمفاجأة كانت غير طبيعية، كنت أتصور أنني سأجده مشدوداً بسبب ما كان يحدث ولكنني وجدته في قمة السعادة والراحة النفسية وهدوء البال والضمير الذي لم أجده عليه منذ سنوات واستقبلني ضاحكاً مهللاً كعادته كلما رآني: أزيك ياأبو عفان!!

كان ما يدور في رأسي شيئاً مختلفاً تماماً عما يدور فى فكره وخابت كل توقعاتي ووجدت الرئيس يفاتحنى فى أمر تعمير منطقة القناة. وكانت مفاجأة أخرى وبهت مما سمعت، كان كلامه غريباً جداً بالنسبة لى.

واستمرت المقابلة ساعة ونصف ساعة كاملة تحدث الرئيس فيها عن تصوراته لإعادة الحياة إلى منطقة القناة، وكان فى منتهى قوة الأعصاب وصلابة الإرادة والثبات لدرجة أنه راح يتحدث معي في أدق التفاصيل... و...

وطوال ذلك الحوار لم يتطرق ذهنى إلى أكثر من أنه يكلفنى بهذه المهام كشركة مقاولات خصها بذلك الشرف العظيم، ووعدت الرئيس بأننا نتمنى من الله أن نرتفع إلى مستوى ثقته فينا، ونحقق آماله فى إعادة تعمير منطقة القناة!

وقال لي الرئيس: هيا ياعثمان!

تصورت أن المقابلة قد انتهت فقلت:

- أتركك بخير ياسيادة الرئيس!

وضحك وهو يقول: بعد أن تحلف اليمين!

قلت: أي يمين ياسيادة الرئيس؟!

قال: أصدرت قراراً بتعيينك وزيراً للتعمير!

وكانت مفاجأة أخرى بالنسبة لى، مفاجأة سعيدة لا أتمناها لذلك قلت:

- إنني أستطيع أن أقوم بهذا الدور على أحسن ما يكون وأنا خارج الوزارة ياسيادة الرئيس!

قال: إن تعمير القناة يحتاج إلى وزير ياعثمان!

وحاولت أن أعتذر عن المنصب بطريقة أخرى فقلت:

- ليس لى بالعمل الحكومي سابق خبرة، وكل خبرتي أننى مقاول فقط!

ولكن الرئيس قطع علىّ خط الرجعة عند ما قال:

- سوف أساعدك!

وفي تلك اللحظة لم أجد بدا من أن أقول:

- أنا لا استطيع أن أرد لك طلباً ياسيادة الرئيس وكل ما أملكه من إمكانيات هى رهن إرادتك التى هى رهن لإرادة مصر!

وهكذا ذهب «عثمان أحمد عثمان» إلى حيث كان مقرراً لحلف اليمين، وعندما سأل «السادات» على مصور الرياسة لكي يلتقط الصور تبين إنه ذهب إلى منزله، ويقول «عثمان أحمد عثمان» :

وفى تلك اللحظة عرفت أن كلا من «حسن كامل» و«فوزى عبد الحافظ» لايعرفان شيئا بالفعل عن سبب المقابلة كما قالا لى، لأنهما لو كانا يعرفان ما كان المصور انصرف فى الوقت الذى لا يزال ينتظره عمل يستدعى بقاءه.

طلب الرئيس من مكتبه استدعاء المصور فوراً وانتظرت معه فى مكتبه حتى حضر، وحلفت اليمين دون أن أعرف ماذا سأفعل !

كان القرار مفاجأة كاملة بالنسبة لى!!

بعد أن حلفت اليمين الدستورية أمام الرئيس ، غادرت رياسة الجمهورية إلى مقر مجلس الوزراء لمقابلة الدكتور «عبد القادر حاتم» نائب أول رئيس الوزراء، حيث كان الرئيس «السادات» يتولى الوزارة بنفسه فى تلك المرحلة فاستقبلنى بترحاب شديد مهنئاً ومتمنياً لى التوفيق فى منصبى الجديد وقال لى :

إنه كان يعرف منذ فترة طويلة أن الرئيس «السادات» سيصدر قرار تعيينى وزيراً للتعمير، وكنت قد قلت إن أحداً فى الرياسة من كبار المسئولين لم يكن يعرف، وبعد أن أبدى لى استعداده للتعاون معى ومساعدته لى فى أداء مهمتى تركته وانصرفت لأجد زملائى فى « المقاولون العرب» فى انتظارى ، كانوا قد عرفوا الخبر من الإذاعة فراحوا يهنئوننى بثقة الرئيس !

ويضيف «عثمان أحمد عثمان» قائلا :

اعتبرت القرار تكليفاً وطنياً وليس تكليفاً وزارياً، وأثناء مقابلتى للرئيس عندما كلفنى بهذه المهمة قلت لسيادته إن أنظار العام كله مشدوده إلى منطقة قناة السويس تتابع ما يجرى فيها، وحتى أنجح فإننى محتاج إلى صلاحيات واسعة تمكننى من تنفيذ المهمة، متخطياً كل حواجز الروتين العتيق الذى تحفل به دواوين الحكومة فى كل مكان ولى مع السد العالى تجربة، حيث كان له قانون خاص به، وهيئة كانت لها كل الصلاحيات، ووزير كانت له صلاحيات رئيس الجمهورية فى موقع عمله!! ووافقنى الرئيس وطلب منى أن أعد قانوناً خاصاً للتعمير أتقدم به إلى مجلس الشعب، ليقره على وجه السرعة لكى يحقق هذا القانون قوة الدفع التى تدفع بعملية التعمير إلى نهاية الخط المرسوم لها .

وقمت بتنفيذ توجيهات الرئيس وكان للقانون الذى أصدره مجلس الشعب فى هذا الشأن أثر كبير فى تحقيق المرونة الكافية لتسيير دفة العمل فى الوزارة.

ويكمل «عثمان»: وقمت بتنفيذ المهمة التى كلفنى بها الرئيس السادات وخلال سنة واحدة أنجزنا من الأعمال مالم أصدقه أنا شخصيا، لقد عاد مليون مواطن إلى ديارهم .. والحمد لله.

■■

وينتقل «عثمان أحمد عثمان» إلى قصة تحويل مدينة بورسعيد إلى مدينة حرة فيقول :

عندما أصدر الرئيس السادات قرار تعييني وزيراً ناقش معي رغبته في أن يجعل من بورسعيد منطقة حرة لكي يعيد اليها حيويتها التي افتقدتها ، لذلك وضعت هذا الموضوع في مقدمة المسائل التي كانت تسيطر على تفكيري في ذلك الوقت.

وسافرت خصيصاً إلى فرنسا لهذا الغرض لكي أتعرف هناك وعلى الطبيعة على المدينة الساحلية التي تحولت هناك إلى منطقة حرة وبهرتني كثيراً، وقمت بإرسال بعثات إلى بلاد أخرى لديها مدن شبيهة ببورسعيد حولتها إلى مناطق حرة ، ومن بين هذه المدن سنغافورة.

وفي الوقت الذي كانت تشغل بالي بورسعيد في كيفية تحويلها إلى منطقة حرة، كانت الدرسات على أشدها فيما بين أراء تطرح وأبحاث تجرى وأساتذة يبعثون بالنصيحة، وظل الحال على هذا المنوال منذ عام ١٩٧٤ إلى نهاية عام ١٩٧٥ ، وكان أن سألني الرئيس «السادات» عن الرأى الذى إنتهيت إليه في مسألة تحويل بورسعيد إلى منطقة حرة !

قلت للرئيس : بالطريقة التي يريدها الخبراء فلن تتحول بورسعيد إلى منطقة حرة قبل مائة عام من الآن !! أما إذا أردنا حلاً عملياً وسريعاً فليس هناك من سبيل سوى أن نغلق الطريق أمام كل هذه الاجتهادات !

سألني : كيف ؟!

قلت : بأن تعلن أن المدينة قد أصبحت منطقة حرة، ونقيم بوابات على مداخلها على كل بوابة نقطة جمارك، كل ما يخرج منها لابد أن يخضع لقانون الجمارك.. وكل مايدخلها فهو بعيد عن تطبيق هذه القوانين!! وبعبارة أخرى فإن جميع ما يدخل إلى بورسعيد من سلع ومنتجات من مختلف دول العالم لا يخضع للجمارك تحت أى سبب من الأسباب، ولكن كل ما يخرج من هذه السلع والمنتجات من المدينة إلى باقي مصر لابد أن يطبق عليه قانون الجمارك .

وفعلا تم تنفيذ هذا الرأى وأقيمت الجمارك على منافذ المدينة .

وما أكثر حكايات «عثمان» مع «السادات» وعنه!!

■■

كان «أحمد كامل» أول من فوجئ باختياره رئيسا للمخابرات العامة!

وظل اختدار السادات له فى هذا المنصب بمثابة علامة استفهام كبرى لم يعرف إجابتها إلى بعد القبض عليه فى قضية مراكز القوى الشهيرة فى مايو ١٩٧١. يقول « أحمد كامل»:

«رشحت فى البدايةً وزيراً للشباب فى أول تشكيل وزارى، فى أعقاب تولية - السادات - منصب رئيس الجمهورية، ووصلتنى معلومات الترشيح بالفعل، ووجدت أن المنصب الجديد يتفق مع خبرات عملى السابق كأمين لمنطمة الشباب، لكننى فوجئت بعد أربعة أيام بسامى شرف يطلبنى على التليفون وينقل لى رسالة محددة: «لقد صرف النظر عن تعيينك وزيراً للشباب، وسوف تعين رئيسا لجهاز المخابرات العامة».

استولت الدهشة على «أحمد كامل» فقد كان ذلك المنصب على وجه التحديد خارج دائرة تصوراته بالكامل أو حتى خبرة عمله الطويلة فى مختلف المناصب.

وهكذا وجد « أحمد كامل» نفسه يقول لسامى شرف عبر التليفون :

مخابرات، إنها أبعد الأمور عنى!!

لكن سامى شرف رد بيقين قائلا:

- «لقد انقضى الأمر وصدر القرار وسوف تتسلم المخابرات» !!

وفى ذلك اليوم لم يعرف «أحمد كامل» مغزى ذلك القرار وتفاصيل ما جرى بشأنه، لكنه عرفه بعد سنوات فى السجن فيقول :.

عرفت فقط فى السجن من الفريق أول «محمد فوزى» أن الرئيس السادات هو الذى أصر على اختيارى رئيسا للمخابرات ، وأنهم - أى شعراوى جمعة والمجموعة - عرضوا عليه ترشيحى وزير دولة للشباب، وفوجئوا جميعاً وهم يعرفون خصوصية علاقتى به ، وهو يقول بشكل قاطع: لا (!!) حتى أن أكثر من واحد منهم سأله بصوت واجد وبنبرة واحدة :

وهل هناك اعتراض عليه فى شئ يافندم ؟

ورد السادات دون أن يفصح : لا اعتراض.. لكن أريده فى موقع آخر!

وازدادوا دهشة فقد كانت جميع مقاعد الوزارة والاتحاد الاشتراكى قد انتهت ترشيحاتها وتم الاتفاق عليها.

وهكذا وجد «أحمد كامل» نفسه رئيسا للمخابرات العامة ثم يقول :

فى اليوم التالى مباشرة، اتصلت بفوزى عبد الحافظ سكرتير الرئيس وقلت له: انقل للرئيس أننى أريد مقابلتين معه، إحداهما قصيرة والاخرى طويلة ..

أما الأولى فهى للشكر، وأما الثانية فهى للمناقشة. فلا أريد أن أبدأ عملى فى الجهاز قبل أن أعرف ماذا يريد بالضبط منه فى هذه المرحلة ، ولا كيف يتصور وظيفته وعمله ومهمته، وماهو المستهدف بالدرجة الأولى خاصة أننى تابع لرئيس الجمهورية وليس لأحد غيره أو سواه !!

وقال فوزى عبد الحافظ : سوف أنقل نص الرسالة للرئيس !!

والمفارقة – كما يقول أحمد كامل – أنه تسلم عمله فى جهاز المخابرات ولم يتقابل مع السادات بخصوص هذه الأسئلة مرة واحدة، وبالتالى لم يتلق أية إجابات عليها « ولم أعرف خلفيتها ليس فقط حتى تركت منصبى وأودعت السجن، بل وحتى توفاه الله». (!!)

ويكمل « أحمد كامل» قائلا :

لقد قابلت الرئيس السادات بعد ذلك وحتى انتهاء عملى ثلاثة لقاءات عامة ولقاء أخيراً منفرد فى بيته قبل أيام معدودة من الزج بى فى السجن وهو لقاء على درجة عالية من الغرابة.

تمت اللقاءات الثلاثة العامة فى إطار مؤتمرات مجلس الدفاع الوطنى وقد اعتذر لى – السادات – برقة عندما اقتربت منه مصافحاً قبل الاجتماع الأول الذى تم فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة بأنه حريص على أن نلتقى لقاء موسعاً لمناقشة أسئلتى لولا انشغاله فى مسائل أخرى لا تحتمل التأجيل، وعندما لاحظ على ملامح وجهى بقايا علامات دهشة أضاف قائلا :

على كل سوف نكون لجنة عمل دائمة فى مجلس الدفاع الوطنى وسوف يتيح لنا ذلك أن نتقابل كل يوم !

وتكونت لجنة العمل الدائمة ولكنها لم تجتمع سوى اجتماعين ولم يحضر الرئيس أيا منهما، وهكذا - كما يقول أحمد كامل - لم نتقابل كل يوم كما قال. بل التقينا مرة فى اجتماع مشترك مع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى ثم مرة واحدة أخيرة من ذلك اللقاء المنفرد الأخير الذى كان أقرب إلى لحن وداع بين صديقين قديمين !!

وبين اللقاء الأخير واللقاء الأول، أو بين تسلمى لمهام عملى وانتهاء هذه المهمة لم تحدث مكالمة واحدة بينى وبينه ، فلم يتصل بى تليفونياً ولا مرة ، ولم يكن لدى ما يبرر اتصالاً تليفونياً مع الرئيس، فقد كنت أسجل له كل شئ يومياً على الورق!!

لقد سألت الرئيس - يعترف أحمد كامل - فى الفرصة الوحيدة التى أتيحت لى على هامش الاجتماع الأول :

هناك يافندم أعمال مخابرات يومية إلى من أرسلها ؟!

• قال بدون تفكير: ارسلها إلى سامى شرف!

قلت : يافندم لكنى أريد ردك المنتظم عليها !

• قال بحسم : ارسلها إلى «سامى» وما لكش دعوة !!

ويعلق «أحمد كامل» على ذلك الحوار القصير جداً بين رئيس جمهورية ورئيس مخابرات قائلا :

وهكذا كان كل شئ يذهب اليه يومياً - عن طريق سامى شرف - ابتداء من تقارير الأمن القومى؛ ولقد كانت جميع التقارير الخاصة بما أسمى بمؤامرة مراكز القوى أو انقلاب مايو ضمن هذه التقارير المرسلة بانتظام.

ولعل من أهم الملاحظات الذكية ذات الدلالة هى تعليق «أحمد كامل» الذى يقول فيه متسائلا ومندهشا :

ولعلنى تساءلت طويلا بينى وبين نفسى: هل يمكن أن يكون سامى شرف قد دارى عنه شيئا مما أرسلت ، فلم يكن من الممكن أن يحجب شيئا عن رئيس الدولة، بل لعلى أضيف بشكل قاطع: أن سامى شرف بحكم تركيبته كان يطلع رئيس الدولة على كل قصاصة أو ورقة أو تسجيل تصنت أو معلومات أمن قومى حتى لو كانت تعرض به شخصيا (!!)

■■

لكن الغريب ويدعو للدهشة هى ما سوف يرويه بعد ذلك «احمد كامل» قائلا:

تواصل عملى ، وكنت - حسب تعليمات الرئيس- أرفع تقاريرى باستمرار إلى مكتبه حيث يتم تسليمها إلى السيد «سامى شرف» ولكن بعض التقارير التى تحتاج إلى توجيه الرئيس كانت ترد إلى دون أن أجد رداً له عليها، واضطرت إلى أن أرفع المذكرة الواحدة أكثر من مرة حتى يأتى رد الرئيس عليها فى النهاية(!!)

وحين بحثت عن سبب ذلك لم يكن ثمة مدعاة للدهشة فقد أكد لى «محمد دكرورى» (مدير مكتب السادات وقتها) أن الرئيس لا يطلع على البريد جميعه، وقد أفهمنى أنه لذلك أثناء عمله مع الرئيس كان يقوم بفرز الموضوعات التى تحتاج إلى بت سريع ويقوم بعرضها عليه، وأنه كان يلح عليه كثيراًفى قراءتها، وفى اتخاذ قرار بشأنها كما كان يتحين الفرصة ليعرض عليه كثيراً من الموضوعات فى السيارة، سواء وهو فى الطريق إلى منزله بالهرم، أو أثناء قيامه برحلة طويلة، المهم أن «محمد دكرورى» كان يكيف نفسه مع ظروف الرئيس، ومع استعداده الشخصى لكى يحصل فى النهاية على قرار فى الموضوعات التى تحتاج إلى بت عاجل !!

■■

ثم ينتقل «أحمد كامل» فى شهادته المثيرة إلى ذروة الدراما حين ينتقل إلى تفاصيل اللقاء الأخير مع السادات فيقول :

لقد تم هذا اللقاء بين الرئيس وبينى مساء يوم الأربعاء ٩ مايو (١٩٧١) أى قبل أن تصعد الأحداث إلى ذروتها الدرامية بأربعة أيام، وكان موعدى مع الرئيس فى بيته بالجيزة، استقبلنى الرئيس بود واضح كعادته، وهو ود كنت أتصور أنه يستند إلى معرفة شخصية دقيقة ومستقرة، فقد كان كل منا يعرف الآخر جيداً، بل وأزعم أنه كان يأتمننى على أدق الأسرار التى يعرفها حول تصرفاتهم وأفعالهم (يقصد مجموعة ١٥ مايو) وكلما جاء إلى الإسكندرية - وأنا فى موقع المحافظ - كان يبدأ يومه بالاتصال بى، وكانت الجلسات بيننا طويلة ومفتوحة وبلا تحفظات أو غياهب أو أسرار.. كنت أشكو له كثيراً، وأعطيه ما

ينقله إلى الرئيس «عبد الناصر» وكنت أحياناً أبدى له دهشتى من أن الرئيس «عبد الناصر» لا يتصرف معهم بدرجة من الحسم ، ولكنه كان يدافع عن الرئيس فيقول :

- إنه يعرف كيف ومتى يتخذ قراره.. إنه أفضل من يختار الوقت المناسب»!!

إن ما حدث فى لقاء «السادات» و«أحمد كامل» فى ذلك اللقاء هو بمثابة نسيج كامل من المفاجأة والدهشة بالنسبة لأحمد كامل الذى يرويه كما يلى :

تحدثنا فى بداية اللقاء عما حدث فى اجتماع اللجنة المركزية ، وكان يشعر بمرارة شديدة، عند نقطة على مسار الحوار قلت له :

سيادة الرئيس إن أهم شئ فى البلد اليوم هو إتمام عملية تحرير الأرض. إن كل الخلافات الداخلية هى فقاعات سرعان ما تتطاير ، ولو بدأت عملية التحرير ستصبح البلد كلها يداً واحدة !

أذكر أنه - أى السادات - كان يضع قدماً فوق قدم، ووجدتنى فى لحظة انفعالى للم الموقف أضيف : الباقى كله فى حذائك!

امتص ما قلت فى هدوء ثم سألنى وهو يضغط على حروفه :

● وما رأى الناس ؟!

■ أجبته دون تردد : التحرير ياريس التحرير!

● غمغم وهو يهز رأسه : إن شاء الله.

مرت لحظة صمت مفعمة بأحاسيس مختلفة ثم سألنى بغتة :

● ماذا كنت تريد ؟

■ قلت : جئت استأذن للسفر إلى موسكو لمقابلة مع أندروبوف «رئيس المخابرات السوفيتية والرئيس السوفييتى بعد ذلك»

● قال: لقد سبق أن صدقت لك على السفر

■ قلت : جئت أستأذن لتحديد موعد السفر!!

لم يرد السادات، كان اللقاء قد انتهى وخرج معى من غرفته إلى الصالة ووقف على الباب الخارجى لبيته وهو يوصلنى بود واضح .. لم يبد عليه شئ لكننى كنت أحس أن أمراً ما يعتمل فى داخله وأنه يوشك أن يتخذ بشأنه قراراً.

على باب السيارة وأنا أضع يدى فى يده مصافحاً بود سألنى:

● متى تعتقد أنك ستسافر لموسكو لمقابلة «اندروبوف» ؟

■ قلت : سيادة الرئيس خلال أسبوعين !

● استطرد بصوت عميق دون تفكير : لا مش حتلحق تسافر !!

انفرجت أسارير «أحمد كامل» حسب كلامه فقد فهم أن قراراً الحرب سوف يتخذ قبل مرور هذين الأسبوعين، ولذلك قال للسادات وهو يحييه التحية الأخيرة :

■ والله يافندم طالما التحرير سيتم فى هذا التوقيت فلا أهمية للسفر !!

إن قمة الدهشة وذروة الدراما هى ما حدث بعد ذلك بالفعل !!

ركب «أحمد كامل» السيارة وبينما هى تتحرك التفت إلى الخلف ، ورفع يده بالتحية ، وبعد أمتار كان السادات - كما يقول - ما يزال واقفاً وكأنه تسمر فى مكانه على باب المنزل وأنظاره معلقة بنقطة بعيدة فى الفراغ !!

يؤكد «أحمد كامل» أنه شعر باطمئنان ويقين أن قرار تحرير الأرض يمكنه أن ينهى كل الخلافات بين السادات ومجموعة مايو، وقرر أن يساهم فى تخفيف حدة هذه الخلافات فذهب إلى «عبد المحسن أبو النور» وروى له ما حدث بالضبط وما قاله السادات وأن عليهم أن يلزموا الهدوء!

استمع عبد المحسن أبو النور جيداً ثم غمغم بصوت عميق : ياريت !

بعد ذلك ذهب «أحمد كامل» إلى«سامى شرف» لكى يوصل إليه نفس الرسالة، ثم جحظت عيون أحمد كامل - حسب كلامه - وهو يسمع تعليق سامى شرف على ما قاله السادات، فقد ضحك سامى وقال:

- إن ذلك يعنى أمراً واحداً إنه سوف يخلعك من رئاسة المخابرات قبل مرور أسبوعين .

ويعلق «أحمد كامل» على ذلك قائلا :

«زادت ضحكاته - سامى شرف - وزاد عبوسى ودهشتى ، فلم يكن على الجانب الشخصى بينى وبين «أنور السادات» ما يمكن أن ينبئ بذلك مطلقاً، ثم ثبت بعد ذلك بأيام قليلة أن تقديرى لم يكن صحيحاً، وأن تقدير «سامى شرف» لم يكن دقيقاً أيضاً.. فلم أخلع أو أذهب وحدى وإنما ذهبت بنا الذروة

الميلودرامية بعد ذلك جميعا، وفى مقدمتنا سامى شرف بنفسه إلى السجن بتهمة مكررة هى : محاولة قلب نظام الحكم بالقوة.

■■

مئات البشر الذين اقتربوا من السادات أثارت حكاياتهم عنه علامات الدهشة والحيرة.

لكن اسم «د. محمود جامع» الذى قفز فجأة من المجهول بكتابه «عرفت السادات» كان مفاجأة مذهلة بكل المقاييس !

هوجم الكتاب هجوماً شديداً، ودافع عنه البعض دفاعاً شديداً أيضاً!

وأصبح صاحبه فى يوم وليلة نجم القنوات الفضائية والحوارات الصحفية

صفحات الكتاب تقدم صورة نادرة ومحيرة عن «السادات» لم نعرفها أو نشاهدها ولم نسمع عنها طوال سنوات عديدة!!

سبق أن عرفنا السادات كما صوره الأستاذ «هيكل» فى كتابه «خريف الغضب» والذى أقام الدنيا وأقعدها عند صدوره عام ١٩٨٤.

وسبق أن عرفنا السادات كما صوره الأستاذ «موسى صبرى» فى كتابه «السادات الحقيقة والأسطورة».

وأيضاً عرفنا «السادات» كما صوره الأستاذ «أحمد بهاء الدين» فى كتابه «محاوراتى مع السادات»!

كان«سادات» هيكل شريراً، وكان سادات موسى«ملاكا» أما سادات«بهاء» فقد كان شيئاً وسطاً بين الاثنين .

أما كتاب «عرفت السادات» للدكتور «محمود جامع» فهو شئ لا شبيه له حتى الآن!!

فى كل موقف أو واقعة أو أزمة ستجد د. محمود جامع شاهداً عليها ومحللا لها حتى لو كان كل شهود وأبطال الواقعة قد غابوا عن الحياة، يسبقه لقب المرحوم فلان أو الراحل علان !!

ولن تجد فى الكتاب كله وثيقة واحدة يدلل بها الرجل على ما يقول، لكنه يكتفى بالقول «يشهد الله عز وجل أننى ما قصدت من كتابة هذه المذكرات إلا وجه الله،

و«الكلمة أمانة.. والتاريخ لا يكذب.. ولا يتجمل ويبقى دائما أن الحقيقة شامخة راسخة » وقد آثرت فى رواياتى للأحداث المصداقية الكاملة والموضوعية وتجنبت الخوض فى حقائق كثيرة وتجارب عشتها وأعرف منها ما هو خطير ومنها ما قد يسبب حساسيات أو جروحا أنأى بنفسى أن أخوض فيها أو أفشى سراً خاصاً بها، وصاحب المذكرات من مواليد عام ١٩٣٢ وأسرته تقيم فى قرية كفر السادات التى تبعد حوالى ثلاثة كيلومترات من قرية ميت أبو الكوم حيث تقيم عائلة السادات وأسرته، ولعل قرب المسافة بين القريتين وقصرها كان أدعى إلى توثيق العلاقة منذ بواكير الطفولة علاوة على قرابة جدة السادات لعائلة د. محمود جامع.

ويقول د. جامع: «كانت هناك علاقات وصداقة ومودة بين والد أنور السادات وبين والدى وجدى وأخوالى، وكان رجلاً شهماً طيباً ذا أخلاق رفيعة وكنت ألاحظ تواجده بكثرة هو وابنه «أنور» فى دوارالعمدة عندنا. حيث كانا يقضيان السهرات والليالى الطويلة، وكان ذلك هو الطريق إلى توثيق العلاقات بيننا، ثم توطدت العلاقة مع السادات أكثر، عندما التحق أحد أخوالى بمدارس القاهرة وسكن فى منزل أسرة السادات بحدائق القبة، وفى وقت لاحق التحقت أنا بطب القاهرة وعرفت الطريق إلى بيت السادات بالمنيل، واقتربت منه أكثر وراح يروى لى تفاصيل حياته.. وفى منزله – فيما بعد – تعرفت على قيادات الإخوان وكبار رجال الحكم على مدى سنوات علاقتنا حتى رحيله إلى الرفيق الأعلى».

ورغم هذه العلاقة وكما يقول د. جامع «لم أسع عنده لمنصب إطلاقاً وحددت طريقى منذ البداية أن أحترم مهنتى كطبيب وأتمسك بها ماحييت» وعندما جعلنى عضواً فى مجلس الشورى عند إنشائه، وفى دورته الأولى انتقدت أداء ودور المجلس وقلت إنه بلا لون ولا طعم ولا رائحة، فاستدعانى د. فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء فكنت حريصاً على أن أوضح له أننى أفهم العمل العام بمعنى العطاء لا الأخذ، وأننى بالتالى لا أحرص على عضويتى بالشورى ولابغيره، فأخرجونى فى أول تغييرات فى أعضاء المجلس».

ويحكى د. جامع أنه ذات ليلة في صيف ١٩٧٠، وكان السادات نائباً لرئيس الجمهورية وكانت زوجته وأولاده وسكرتيره الخاص « فوزى عبد الحافظ» فى رحلة إلى أوروبا.

ويقول د. جامع : «كنت مقيما معه بصفة شبه دائمة أشرف على علاجه من أزمة صحية ألمت به، وأتابع علاجه الذى وصفه الدكتور «محمد عطية» أستاذ القلب الشهير، وفى تلك الليلة وبينما كنت فى غرفته بميت أبو الكوم دق جرس التليفون فرددت لأجد المتحدث على الطرف الآخر صوتا نسائيا، ولما سألت عن صاحب الصوت قالت : أنا «ناهد رشاد» فأجبتها بأن السادات نائم، وطلبت منى أن أبلغه بعد استيقاظه بأنها قد طلبته! ولما عرف السادات غضب وتأثر جداً لأنى لم أجعلها تحادثه فى الحال ثم قام وطلبها على الفور، وأخبرنى.. يومها أنها كانت تريد السفر للخارج للعلاج، وتريد أيضاً التجديد لزوجها د. يوسف رشاد الذى كان يعمل بتوصية من السادات فى مؤسسة الثروة السمكية بالإسكندرية !!

وفجأة سكت «السادات» ونظر فى عينى وكأنه يريد أن يخبرنى بشئ خطير ثم قال : اسمع يا محمود سوف أخصك بشئ لا يعرفه غيرى لقد اتهمونى بإقامة علاقة مع ناهد رشاد وصيفة الملكة واتهمونى أيضاً بالانضمام للحرس الحديدى الخاص بالملك فاروق، والذى يناظر الجهاز السرى للإخوان، والحقيقة أننى عندما تخرجت فى الكلية الحربية ذهبت أخدم فى الجراولة بجوار مرسى مطروح، وهناك تعرفت على يوسف رشاد، كان ضابطاً بالبحرية وكنا نلتقى يومياً، ونشأت بينى وبين يوسف وزوجته علاقة ود كبيرة، وبعد ذلك تم انضمام يوسف للعمل مع الملك وعينت زوجته ناهد رشاد وصيفة للملكة !

وبعد فصلى من الخدمة بالجيش حاولت العودة فلم أستطع وذهبت إلى «ناهد رشاد» أطلب منها أن تساعدنى بحكم موقعها وموقع زوجها من الملك، وبينما كنت أحدثها رفعت سماعة التليفون وطلبت حيدر باشا قائد الجيش وأخبرته بأن الملك أمر بإعادتى إلى الجيش فاستجاب حيدر باشا على الفور وطلب منها أن أمر أنا عليه فى اليوم التالى !!

ولما تخوفت – أى السادات – من غضب الملك إذا علم بما فعلته هى قالت إن الملك لن يعلم لأنه لايدرى بكثير من الأمور حوله وأن أموراً عديدة تمر وتمشى هكذا.

وفى اليوم التالى ذهب السادات إلى حيدر باشا الذى طلب كاتم الأسرار وأمره بإعادة السادات إلى الجيش ثم نظر حيدر للسادات وقال: ياولد بطل شقاوة، سأضعك تحت المراقبة ولابد أن تمشى مضبوطاً وتبطل شغل الصياعة والبلطجة!!

لكن أغرب ما يرويه د. محمود جامع هو ما جرى بعد ذلك حيث يقول:

روى لى السادات: كان حيدر باشا خال المشير« عامر» وكان يعرف كل شئ عن الضباط الأحرار، ولكنه لم يفش بشئ من أمرنا للملك، وبعد أن أمر بإعادتى أخبرنى بأنى سوف أخضع لامتحان وضعه «ثروت عكاشة» الأستاذ بالكلية الحربية فى ذلك الوقت، وكنت قد نسيت كل شئ يتصل بالامتحانات، فجاء «جمال عبد الناصر» وأجاب ورقة أسئلتى بنفسه وبخط يده ونجحت !!

■■

ويرسم د. جامع صورة مثيرة بالكلمات عن السادات فيقول :

«كان السادات يتصنع الضعف ويبدو أمام عبد الناصر وإلى جواره كالحمل الوديع، وكان يعرف أنه لو اعترض على قرار واحد أو حتى أبدى رأيا فى أى شئ سوف يكون مصيره هو مصير كل أو أغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة»

وكان اختياره رئيسا بعد رحيل عبد الناصر راجعا إلى أنه وديع فى نظر مجموعة عبد الناصر، وأنه مطيع وليس لأنه يستحق الرئاسة، وأن خلعه بعد شهر أو شهرين مسألة سهلة !!

لكن ما يدعو للدهشة هو اعتراف د. جامع وقوله :

«فى وقت من الأوقات أحس السادات أن صحة «جمال عبد الناصر» بدأت تتدهور وأنه لابد أن يكون جاهزاً لتولى شئون الحكم فبدأ يرتب لاجتماعات مع رموز وممثلى مختلف القوى السياسية الغاضبة، وكان السادات قد حاول مبكراً تحقيق مصالحة تاريخية مع الإخوان الذين كانوا فى خصام وقطيعة كاملة مع الدولة، ولكن هذه المصالحة لم تكتمل لأن أمرها قد اكتشف فى وقت مبكر، وقد

كلفنى السادات بإجراء اتصالات مع ممثلى تلك القوى ومع رموزها وأبلغنى أنه أخبر عبد الناصر بما سوف يقوم به من اتصالات !!

وعن مرض عبد الناصر قال السادات لمحمود جامع: إن عبد الناصر كان إذا مرض لا يحب أن يعرف أحد حقيقة مرضه خصوصاً من جانب الصحافة الأمريكية أو الغربية، وكان يحرص على أن يكون أطباؤه من السوفييت الذين كانوا ينصحونه بشرب الفودكا لتوسيع الشرايين ويعطونه أدوية ليست ذات فائدة كبيرة ومجهولة الهوية، وأن السادات علم ذات مرة أن فى القاهرة طبيباً نمساوياً ماهراً فأخذه وذهب إلى عبد الناصر الذى ثار ثورة عارمة أمام الطبيب واتهمنى وكل من حوله بأننا نريد أن نرثه، وظل يقسم أنه بصحة جيدة وأنه ليس فى حاجة إلى طب أو طبيب

واعترف لى السادات أنه قد خرج من عند عبد الناصر يومها وهو فى قمة الخجل لأنه لم يفكر أبداً فيما فكر فيه عبد الناصر، وأنه رآها فرصة مناسبة لعرضه على طبيب عالمى ماهر ومشهور !!

ولا أملك تفسيراً لهذا التناقض المحير سوى أن هناك «ساداتان» فى وقت واحد، «سادات» أحس بتدهور صحة عبد الناصر فبدأ يستعد لتولى الحكم، و«سادات» آخر «زاهد» فى الحكم والشاهد الوحيد على ذلك هو د جامع نفسه!!

وينفرد د. جامع برواية قصص وحواديت غريبة مثيرة فيقول :

«كانت أم كلثوم فى صداقة وطيدة مع عبد الناصر وأسرته، وكانت كثيراً ما تذهب إلى منزله فى المساء وتتناول العشاء من الجبن مع عبد الناصر وأسرته ، بخلاف السادات وجيهان اللذين كانا يكرهان أم كلثوم وكان شعوراً متبادلاً، وفى إحدى المرات قالت «أم كلثوم» للسادات أمام جيهان «ياأبو الأناور» فنهرتها جيهان وقالت لها: لاحظى أنك تكلمين رئيس جمهورية، وحدث ما حدث».

وعن السيدة جيهان السادات يؤكد د. جامع أنها كانت تحب أن تكون على علم بما يجرى فى البلد وبمن سوف يستقبلهم الرئيس، وكان «فوزى عبد الحافظ» يرضى غرورها ويشبع رغبتها فى هذه النقطة، فكان يقدم لها تقريراً وافياً عن كل شئ يومياً

كان الوزراء والمسئولون يتقربون إليها ويتطوعون بفعل أى شئ يرضيها ظنا منهم أنها سوف تزكيهم عند الرئيس، ولكن تخمينهم كان خاطئا لأن قرار السادات كان من دماغه دائما، والذين يضخمون من أمر جيهان ويصورونها على أنها كانت تتدخل وتعزل الوزراء وتعينهم يظلمونها ويصورون الأمور على غير حقيقتها!!هذا ما يرويه د جامع بالحرف ، لكنه يعود فى ص ٢٣٩ ليروى العكس تماما فيقول:

لم تكن جيهان تستريح إلى(الشيخ) الشعراوى كثيراً خاصة بعد الموقف الشهير الذى دعته فيه إلى إلقاء محاضرة لسيدات مصر الجديدة ولما دخل وجدهن جميعا سافرات بغير حجاب فغادر القاعة فوراً وأحرج جيهان السادات، وظلت غاضبة منه وقالت لى بالحرف الواحد: أنا حاأشيله من الوزارة وأبلغه ذلك على لسانى!!

ولما أبلغته قال: ومن قال إننى حريص على الوزارة أو حتى أريدها، إننى طلبت تركها أكثر من مرة ولكنهم رفضوا!!

■■

«السادات» الذى عرفه «جامع» كان إذا جلست إليه ، وجدت المتعة والراحة والكلام الحلو والقصص الممتعة والنكتة الظريفة ولاتشبع من جلسته أو حديثه الجميل، وكان يحضر دائما إلى «ميت أبو الكوم» التى فيها الراحة النفسية والبدنية والروحية، ويلبس جلبابه البلدى المحبب إليه، ويزيد عليه العباءة شتاء، وكانت جيهان هى الأخرى إذا ذهبت معه هناك ارتدت الجلباب الريفى للسيدات !

وكان السادات يفتح بيته وقلبه لكل أهله وأحبابه وأهل قريته، ويحل لهم مشاكلهم ويسهر معهم، ويصلى معهم الجمعة فى المسجد الوحيد ببلدته، وكان يقف على باب المسجد بعد الصلاة ويسلم على جميع المصلين أثناء خروجهم، ويعرف أسماءهم واحداً واحداً، وينادى كل واحد منهم باسمه ويسأله عن زوجته وأبنائه، ويتلقى منهم طلباتهم بكل ود وحنان، ونحن جميعاً واقفون من حوله

وأذكر فى إحدى المرات أنه جلس فى منزله ليصلح بين سيدة وحماتها لخلافهما على نصف جاموسة (!!)

ولما طلبت منه أن يتركنى لحل المشكلة حرصاً على وقته قال لى : يامحمود إننى أريد أن أسعد أسرة !!

وكان يتمشى على قدميه ويسير فى شوارع القرية بنفسه، وقد يدخل أحد المنازل ويشرب الشاى مع أهل المنزل بكل بساطة، وفى إحدى المرات طلب أن يركب حماراً ويجوب به فى شوارع ميت أبو الكوم، وكان فى قمة سعادته !!

وكثيرا ما كان. السادات – يزور السيد البدوى سراً وأنا فى صحبته ودون حراس، ودون أن يشعر أحد!!

وكان السادات يتفاءل كثيراً برؤية الشيخ «محمد خليل الخطيب» إمام مسجد السيد البدوى، ويطلب منه الدعاء والبركة، وكان الشيخ الخطيب يرى أشياء فى منامه ويبلغنى بأن أوصلها للسادات، وكنت أفعل، وكانت رؤياه تصدق دائماً لأنه من رجال الله المخلصين، وكان السادات يعلق صورة الشيخ وهو بصحبته فى منزله تبركاً وحباً واحتراماً.

وكان – السادات – قبل إقدامه على أى قرار مصيرى خطير يزور سيدى السيد البدوى تبركاً، وقد فعل ذلك قبل ثورة التصحيح وقبل العبور وقبل زيارة القدس وقبل مباحثات كامب ديفيد(!!)

والسادات الذى عرفه «د. جامع» كان يعرف حكايات ومعلومات، لكنه كان يحجبها عن «عبد الناصر» ويروى المؤلف قصة زواج المشير عامر من الفنانة برلنتى عبد الحميد، ويقول بالحرف: «صلاح نصر قائد المخابرات العامة هو الذى عرف برلنتى عبد الحميد بعبد الحكيم عامر، وهو الذى قام بعملية زواجهما من وراء ظهر عبد الناصر ودون علمه» ولكن عبد الناصر علم بالأمر عن طريق منشور وصل إلى «على صبرى» وذهل «عبد الناصر» وطلب شعراوى جمعة وزير الداخلية، وكلفه بعمل تحريات سرية ودقيقة وسريعة عن طريق اللواء حسن طلعت مدير مباحث أمن الدولة – وبعيداً عن مخابرات صلاح نصر صديق المشير – وتأكد الخبر وكتمها عبد الناصر فى نفسه حتى وفاة المشير، وأخبر السادات بذلك فى حينها ، ولكن السادات الذى كان يعلم لم يخبر عبد الناصر أنه يعرف(!!)

ومن أغرب ما يرويه د. جامع نقلاً عن الرئيس السادات هذه القصة المثيرة التى لا يصدقها عقل. « أخبرنى السادات بأن عبد الحكيم عامر عندما كان نائبا أول لرئيس الجمهورية سافر فى رحلة رسمية إلى فرنسا صحبه فيها«شمس بدران» و«على شفيق» وأثناء مراسم توديعه فى المطار ذهب أهالى بلدته من محافظته المنيا لتوديعه بجلاليبهم التقليدية، وفرحوا بمنظر الطائرة وطلبوا من شمس بدران أن يتفرجوا عليها من الداخل قبل حضور المشير، وسمح لهم بالصعود للطائرة.. وكانت المفاجأة أنهم رفضوا النزول من الطائرة وصمموا على السفر مع المشير إلى فرنسا، وتأزمت الأمور حتى وصل المشير وصعد إلى الطائرة ، وأخبروه بأمر هؤلاء الصعايدة، فما كان من المشير إلا أن تصرف بشهامة معروفة عنه وأمر بأن يصاحبوه فى الرحلة(!!) ولم تكن معهم جوزات سفر أو ملابس أو نقود!! ووصلت الطائرة إلى باريس، وتم استقبال المشير رسمياً فى المطار، وفوجئت سلطات السفارة المصرية فى فرنسا، وكذلك سلطات البروتوكول الفرنسى بهؤلاء الصعايدة الذين لم يعمل لهم أى حساب فى الاستقبال أو الإقامة أو خلافه.. وعملت لهم إجراءات استثنائية وسريعة وفتح «على شفيق» سكرتير المشير حقائب النقود والعملات الصعبة بدون حساب لشراء كل طلباتهم كأمر المشير، واشتروا جميع الدراجات من محل بأكمله (!!) وملابس ومفروشات، وكانت طائرة المشير تنقل المشتريات إلى القاهرة حتى انتهت الرحلة على حساب الدولة دون رقيب أو حسيب.

انتهت الرواية الغريبة ولا يوجد دليل واحد على حدوثها أو دليل على عدم حدوثها إلا إذا تطوع أحد المعاصرين لها - شقيق المشير عامر مثلاً - بشهادته. حول هذه القصة!!

فى موضوع آخر من المذكرات يعترف د. جامع بأن السادات قال له :« إن شمس بدران وزير حربية مصر كان يكرهه من أعماق قلبه، وكان يكره أن يراه فى وئام وصداقة مع رفيقه عبد الحكيم عامر الرجل الطيب القلب إلى حد بعيد»

ومع ذلك. وعندما حكم على شمس بدران بالسجن المؤبد أيام عبد الناصر - فإن السادات بعد توليه الحكم - كما يقول «د. جامع» أمر بالإفراج عنه وأعطاه

جواز سفر دبلوماسيا، وأمر ممدوح سالم بتوصيله حتى الطائرة وودعه وسافر إلى لندن، وأراد السادات ان يتخلص منه لأنه - حسب تفكيره - فقد كل شئ وسجن ومن الممكن ان يتكلم أو ينبش الماضى فى أى وقت ، وبأية وسيلة، وقد يكون ذلك مصدر قلق دائم للسادات الذى كان يريد أن يتفرغ لمشاكل الحكم دون عكننة. خاصة وشمس بدران يعلم الكثير من الأسرار، وعن أنور السادات بالذات!!

ومن أغرب الأسرار التى يكشفها د. جامع بعيداً عن السياسة هى أن «عمر المحيشى» عضو مجلس قيادة الثورة الليبى تقدم لخطبة «لبنى» كريمة السادات الذى رفض رفضاً باتاً، وأن الرئيس الجزائرى أحمد بن بيللا تقدم للزواج من إحدى كريمات الرئيس عبد الناصر ولكنه رفض (!!)

ومن حكايات الزواج الغريبة أيضا يروى د. جامع قصة إفساد زواج الشاب أحمد المسيرى من لبنى ابنة السادات بواسطة «أشرف مروان وفوزى عبد الحافظ وجيهان السادات» ويعترف د. جامع بأن السيدة جيهان أرسلت رسالة إلى المسيرى عن طريقى تقول له فيها: ابعد عن البنت فهى لاتحبك !! كان المسيرى شاباً ذكياً واسع الأفق طموحاً كفؤاً ، وقد خاف منه أشرف وخشى أن يحتل مكانه فى الرئاسة فأطاح به وجعل مكتبه فى مقر عابدين ، وأرسله فى مهمة إلى اليمن عاد منها بنجاح، وانتهى الأمر بإبعادة نهائيا من الرئاسة إلى وزارة الخارجية!!

لكن الغريب فى الامر - لو صدقت رواية د. جامع - أن السادات فى الوقت نفسه كان عاجزاً عن فعل شئ من أجله تحت ضغط هذا الثلاثى الخطير (!!) ولانهاية لمثل هذه الحكايات فى كتاب د. جامع، ومنها مثلا مايتعلق بالاستاذ «هيكل» وكما يقول د. جامع: «كان السادات إذا سمع اسم هيكل قال بسرعة: هيكل نعم، ولكن هيكلية لا.. وقد فهمت من السادات أن هذا التعبير للدكتور «على السمان وأذكر أنى سألت السادات يوماً وقلت ساخراً : أنا مبسوط جداً أنك تستشير «هيكل» فى كل شئ وهنا انفجر «السادات» غاضباً وقال:

هيكل ده مين؟ فاكرنى عبد الناصر.. هو صحفى زى كل الصحفيين !!

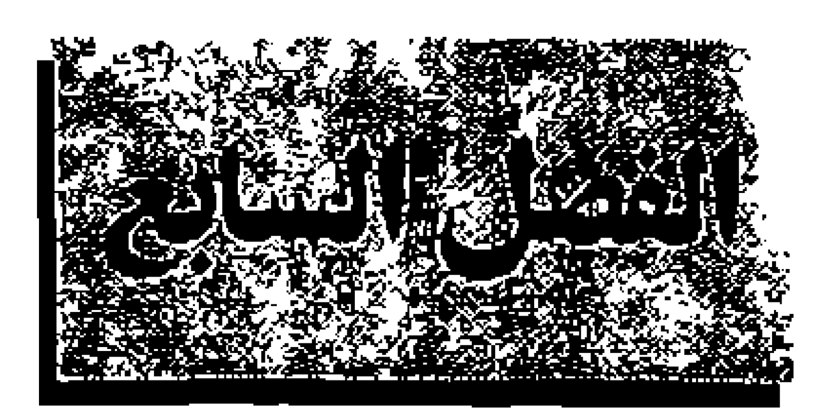
■■

وفى أغلب صفحات الكتاب سوف تطالع وترى عشرات الصور للدكتور محمود جامع مع كبار الأسماء، وفى مقدمتها السادات بالطبع، واختيار ونشر هذه الصور تأكيداً مباشراً أو غير مباشر- من د. جامع لكى يؤكد لك فى كل لحظة: لقد كنت موجوداً بجوار السادات.. وقلت له وقال لى !!

وطوال ٢٨٥ صفحة ستطالعك عشرات الأسماء المهمة والبارزة منها: سيد مرعى وعثمان أحمد عثمان، د. فؤاد محيى الدين ، د. عزيز صدقى، المشير الجمسى، د. أشرف مروان، القذافى، الملك فيصل، كمال الشاذلى، منصور حسن، د.فتحى سرور، المشير عامر، شمس بدران، سامى شرف، على صبرى، شعراوى جمعة، هيكل، الشيخ الشعراوى، د. عبد الحليم محمود، أبو غزالة، د. على السمان، موسى صبرى.. الخ.

■■

مشكلة هذه المذكرات وغيرها أن الموتى لن يكذبون وقائعها والأحياء لايستطيعون تصديقها !! تلك هى المشكلة !!



السادات بعيون يسارية !

لم يكره السادات فى حياته كلمة مثل كلمة «اليسار»، ولم يهاجم مصطلحاً بضراوة قدر مهاجمته الدائمة لمصطلح «الشيوعية»!

ولم تخل مناسبة أو خطاب للسادات إلا وتضمن هجوماً كاسحاً وساحقاً على اليسار واليساريين عامة والشيوعية والشيوعيين خاصة!!

كان الهجوم يتزايد بكثافة أو يقل بصورة ملحوظة حسب المناسبة والمناخ الذى يتحدث فيه السادات!!

فإذا كانت المناسبة «دينية» كان الهجوم على اليسار لأنه ملحد وكافر!!

وإذا كانت المناسبة «وطنية» فلأن اليسار فصيل مغامر ينتمى للشيوعية العالمية وعملاء لموسكو!

ورغم كل ذلك الهجوم، كان «السادات» هو أول وآخر رئيس مصرى يستعين باليساريين فى الحكم، بل يصل الأمر به فى مفاجأة سياسية مدوية كان لها دلالات خطيرة أن يعين اثنين من الماركسيين فى منصب الوزراء وهما د. فؤاد مرسى وزيراً للتموين، ود. إسماعيل صبرى عبد الله وزيراً للتخطيط!

بل وصل الأمر بالسادات أنه كان صاحب الفضل فى ظهور وميلاد منبر ثم حزب التجمع اليسارى ضمن إطار التعددية السياسية التى أعلنها السادات عام ١٩٧٦

وإذا كان السادات قد حير خصومه من «اليمين» مرة، فقد حير خصومه من «اليسار» مرات ومرات.

وهذه رؤية يسارية للسادات بعيون بعض ألمع اليساريين!!

■■

الكاتب الكبير «لطفى الخولى» أيضاً أحد الذين اقتربوا من الرئيس السادات، وهو أيضاً أول من كتب دراسة مهمة أطلق عليها اسم «مدرسة السادات السياسية واليسار المصرى» عام ١٩٧٥.

هذه الدراسة - وحسب ما يقول لطفى الخولى - أثارت عليه عاصفتين عنيفتين، الأولى من مواقع السلطة فى النظام الساداتي تصف الحلقة الأولى بأنها «عمل عدائى موجه للنظام عامة والرئيس السادات شخصياً، مصاغ في أسلوب يتخذ قالب البحث العلمي الموضوعي المحايد من كاتب معروف باتجاهاته الأيديولوجية التي تتنافى مع أيديولوجية ثورة مايو ودولة العلم الإيمان».

أما العاصفة الثانية فقد صدرت عن بعض عناصر يسارية في مصر والعالم العربي اتهمت لطفى الخولى بأنه «يجمل» و«يبيض» وجه السادات، وتؤصل أفكار السادات وسياساته من كاتب محسوب على اليسار.

وما لم يكن معروفاً في تلك الأيام أن دراسة السادات وأسلوبه السياسي - كما يقول لطفي الخولي بعد ذلك - «الفكرة نبتت أوائل عام ١٩٧٤ بناء على طلب مفاجئ من السادات، وكان ذلك في بيته بالجيزة على ضفاف النيل».

«فى هذا اللقاء حرص الرئيس السادات على أن يبدو في صورة القائد العسكري والسياسي الذي فاجأ الجميع - على حد تعبيره - بالحرب والنصر وفتح الطريق إلى السلام في منطقة كالجحيم بصراعاتها وأزماتها المعقدة والتي لا يقدر على إطفاء نيرانها إلا بشر تمتزج في عروقهم حكمة غاندى ودهاء معاوية وعبقرية روميل وذكاء تشرشل».

ويضيف الخولي معلقاً: كان واضحاً أنه - السادات - يعنى نفسه أول مايعني بهذه الكلمات وهو يستقبلني بزيه العسكري الخاص الذي وضع بنفسه تصميمه كما أخبرنى مزهواً ببدلته وانتصاره معاً

بعد ذلك دار الحديث بين السادات والخولي حول دور «هنري كيسنجر» وزير خارجية أمريكا وقال عنه السادات للخولى: «هنري.. هنري كيسنجر يشاركني ذات الصفات، ولهذا فإن تفكيره مثل تفكيري، استراتيجي لا يغرق في التفصيلات الهامشية التافهة.. بعد ربع ساعة فقط من أول لقاء معه اكتشف هذه الحقيقة واعترف لى بها علانية ولهذا بدأنا نتفاهم في العمق!

وعندما قال الخولي: إن كيسنجر لا يرى ولا ينفذ إلا استراتيجية أمريكا التى ترى أن إسرائيل حليف والعرب أعداء، وهنا - وكما يقول الخولي - أوقفني السادات عن الاسترسال في الحديث بحركة من يده وقال بحدة:

- اصحوا وافهموا ياجماعة يابتوع الكلام الكبير المجعلص إياه، قبل حرب أكتوبر حاجة وبعد حرب أكتوبر حاجة تانية في كل شيء، عندنا، عند العرب، عند السوفييت وكذلك عند أميركا. لا تنسى أبداً أننا انتصرنا لأول مرة على إسرائيل، زلزلناها. ده كلامهم مش كلامي، رغم أنكم بتتفلسفوا وتقولوا إنه نصر تكتيكى وأنها حرب للتحريك لا للتحرير.. إلى آخر هذا الكلام الفارغ، المهم في كل هذه العملية هو أمريكا، أمريكا هى شريان الحياة لإسرائيل. وأمريكا هي القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية الأولى فى العالم، والمشكلة أننا عاديناها بسبب إسرائيل وإسرائيل غذت هذا العداء في أمريكا!

أنا جيت وأثبت قدرتى على مناطحة إسرائيل وفى نفس الوقت أوقفت العداء لأمريكا فى مصر، وبالضرورة في المنطقة كلها. أمريكا اليوم ترحب جداً بي، وبكده نوضع إسرائيل فى مأزق، أمريكا اليوم مستعدة لعمل توازن بينى وبين إسرائيل، وأنا مقدرش أطلب أكثر من كده، أمريكا تغيرت تحت قيادة نيكسون وكيسنجر وبالذات كيسنجر!.

وتوقف الرئيس السادات - كما يقول لطفى الخولى - فجأة عن الحديث وراح يملأ غليونه قبل أن يستأنف حديثه قائلاً:

- أنا أعرف أنك تقابل «محمد».. هيكل يعني اسأله «شوان لاي» (رئيس وزراء الصين وقتها) قال إيه عن كيسنجر، هيكل قال لي إن «شوان لاى» وضعه خلال استعراضه لليهود العظام فى تاريخ الإنسانية بجانب ماركس واينشتاين..

«كيسنجر وأنا تفاهمنا على دور مصر الجديد بعد حرب أكتوبر.. حرب أكتوبر هى الخط الفاصل بين مصر وهزيمة ٦٧ وبين مصر انتصار أكتوبر، ومن هنا مشوارى يختلف بالضرورة عن مشوار عبد الناصر الله يرحمه».

■■

يقول الأستاذ «لطفى الخولى» إنه خرج من هذا اللقاء مع الرئيس «السادات» وقد بات مؤكداً له أن السادات قد أدار ظهره إلى الحركة الوطنية مع الولايات المتحدة.

وقام لطفي الخولي بعقد اجتماع مع أسرة تحرير مجلة «الطليعة» التي كان يرأس تحريرها، وأطلعهم على تفاصيل الحديث الذي دار بينه وبين السادات، ثم يقول:

«انتهينا إلى ضرورة العمل على تنبيه الرأي العام في مصر والوطن العربى إلى خطورة ما يحدث تحت السطح على مستقبل الوطن العربى كله بين السادات وكيسنجر وانعكاساته الداخلية والعربية والدولية!!

وكونا فريق عمل يقوم بإعداد مسح شامل لأحاديث وخطابات وتحركات السادات السياسية، واكتشفنا أنه ليس من السهل الإقدام على كشف تفكير وحركة السادات في مشواره الجديد بالوسائل التقليدية للنشر، ومن هنا نبعت فكرة الدراسة المعملية لهذا المشوار، واتفقنا على أن أول السعى إلى كشف المزيد عن «أسرار مشوار السادات» من خلال اللقاءات معه!

وتبين للطفى الخولى – حسب اعترافه – أن السادات يستدعى – أيضاً – عدداً من الكتاب والسياسيين من مختلف الاتجاهات إلى اللقاء معه حيث يطرح «اختيارات مشواره» على أنها أفكار للمناقشة وذلك بقصد معرفة ردود الفعل المتوقعة تجاهها.

وجاءت مقابلة أخرى بين السادات ولطفي الخولي، في صيف عام ١٩٧٤ ببرج العرب غرب الاسكندرية، وعن هذه المقابلة يقول «الخولى»:

«بدا لى – السادات – أنه أكثر تبلوراً فى أفكاره واختياراته، حيث راح بشىء من التجسيد يعزف بكلمات محددة على ثلاث نغمات.

قال فى النغمة الأولى، وأنا أنقل هنا عن المذكرات الخاصة التي حرصت على تدوينها فى أعقاب المقابلة مباشرة. إذ يمكن القول أننى استخدم كلماته وتعبيراته «قال السادات» عندكم فى الفكر الاشتراكي حاجة بتسموها إيه؟ الجدل مش كده؟! أليس معنى ذلك أن الصراع الرئيسي زى ما بتقولوا يأكل بقية الصراعات الفرعية أو الأقل أهمية! عظيم! ما هو صراعنا الرئيسي اليوم بعد انتصارنا على إسرائيل في حرب أكتوبر؟! هل هو برضه لسه إسرائيل التي ضربناها وانتقمنا لهزيمتنا فى ١٩٦٧؟! أم أن الصراع الرئيسي انتقل بهذا الانتصار إلى موضوع آخر؟! أنا يعني بأفكر قدامك بصوت عالي.. الموضوع الرئيسي الجديد هو إعادة بناء مصر الجديدة التي تفرض الاستقرار والانضباط على كل من حولها إسرائيل والعرب كمان».

ويكمل لطفي الخولى: وفي النغمة الثانية شدد - السادات - على قضية راح يمزج فيها ذاته بالموضوع وقال:

ثم جـــاءت مقابلة أخرى تمت في صيف ١٩٧٤ ببرج العرب، وفيها قال السادات: «أنا حاربت إسرائيل ومفروض ورائى الاتحاد السوفييتى، وحاربتنى إسرائيل ووراها أمريكا، وعندما كدت أكسر رقبة إسرائيل وجيشها الذي لا يقهر طلعت لي أمريكا بدباباتها وطياراتها وصواريخها من تحت الأرض في مواجهتى، التفت ورائى مالقيتش الاتحاد السوفييتي، فص ملح وداب، هرب، وبعت يقول لى وقف الحرب وخليني أتكلم مع الأمريكان علشان أصلحك على إسرائيل، سبحان الله. إسرائيل عند الزنقة لقيت أمريكا واقفة معاها زى السبع تزغطها طيارات ودبابات عبر جسر جوى مهول، وبصيت لقيت نفسى فجأة وحدى أحارب أمريكا مش إسرائيل، أنادى ياموسكو.. ياكرملين.. مفيش خبر، ودن من طين وودن من عجين..

أخرج من التجربة المريرة دى بإيه؟! جماعة معايا بيفكروا، قالوا لى ياريس بصراحة وما تزعلش؟! قلت؟ الصراحة ما بتزعلني أبداً! قالوا الأمريكان في مسألة دعم الأصدقاء والحلفاء رجالة بصحيح! فرق كبير بينهم وبين الروس! لماذا لا نجرب صداقتهم، صداقة الند للند، السادات رأسه برأس نيكسون، والظروف

اختلفت بعد حرب أكتوبر وأصبحت في صالحنا، وقالوا كمان بصراحة وما تزعلش: ياريس الحرب مع إسرائيل مش حتجيب نتيجة ولو استمرت مائة سنة!! وبعد ما انتقمنا من هزيمتنا لازم من طريقة أخرى غير الحرب؟! إيه هي؟! قالوا نعلن عليها السلام زى ما أعلنا الحرب ضدها.. الكلام مش بسيط، فيه عقل وحكمة وعمال يدور فى دماغى!!

وراح السادات يقول للطفى الخولى: انتم ياأولاد يااشتراكيين مش كنتم بتنادوا في أول الصدام خالص فى ١٩٤٨، باقتسام فلسطين بين العرب وبين اليهود والسلام مع إسرائيل. لأن الاستعمار والإمبريالية اللى مش عارف إيه من كلامكم اللي يكعبل ده.. همه اللى بيستفيدوا من الحرب بين العرب واليهود!! والله زمان كنتم عاقلين وبتفهمو»!

■■

وانتقل السادات في مناقشته مع لطفي الخولي.. إلى النغمة الثالثة، وجاء تركيزه فيها على العرب حيث قال السادات له: أنا أكره شيء يغمنى لما أقرأ جرنال أو كتاب وتقع عينى على جملة حركة التحرر العربى.. كلام همايونى بلا معنى.. تحرر إيه؟! وعرب إيه؟! نازلين تتكلموا عن القومية العربية والوحدة العربية.. وحدة من مع من؟! ده أمة محمد عليه الصلاة والسلام نفسها غير موحدة.. ده سراب، أنا رجل واقعي.. ثوري لكن واقعي.. عبد الناصر كان ثوري حالم.. العرب بدو تحرر فيهم إيه؟! وتوحد من مع من؟ دول قبائل متناحرة متهافتة.. لا حول لهم ولا قوة!! هم الذين ضيعوا فلسطين، وشبكوا فينا وقالوا يا مصر أنت أم العرب.. تعالى بدمك حتى آخر قطرة.. وفلوسك حتى آخر مليم وحاربي.. حاربنا.. انهزمنا مخلصناش.. انتصرنا مخلصناش.. ظلوا يحلبونا كالبقرة. وحتى بعدما اغتنوا غناءً فاحشاً بالبترول اللى مش عارفين قيمته وبسبب الحرب التي شنتها أنا ضد إسرائيل وسجلت فيها النصر.. قالوا مش كافية. لا سلام حتى نطهر فلسطين من كل يهودى.. طيب ومن الذي سيقوم بالتطهير؟ مفيش إلا مصر.. ومصر فقط حتى بقينا لحم على عضم.. آدى القومية العربية.. هل هذا شيء يمكن أن يقبله عقل أو منطق؟

أنا عندى توليفة ثانية غير حكاية القومية العربية اللى سحروا بها عبد الناصر المسكين، الله يرحمه واللى ضيعته فى الآخر، وغير حكاية الأمة الواحدة الخالدة بتاعة البعث وميشيل عفلق. توليفة بين ثلاث قوى لها وزن وقيادات رشيدة. مصر العظيمة والسعودية الإسلامية البترولية، وأهى محسوبة عربية وإيران الإسلامية البترولية.. والحقيقة الشاه بقى متجاوب معى إلى آخر الحدود. وقف معى فى الحرب بتاعتى.. وكفاية بقى كلام عن رجعية وتقدمية.. والتاريخ العربى والمصير المشترك.. و... و... كل ده على رأى اللبنانيين «طق حنك». وبصراحة أنتم التقدميين أكبر معلمين فى طق الحنك»!

■■

وعند هذه النقطة يعترف لطفى الخولى قائلاً: وهكذا لم يعد هناك مزيد من أسرار «مشوار السادات» يحتاج إلى بذل الجهد للكشف عنه وباتت القضية تنحصر فى ربط هذه الأسرار بعضها ببعض ربطاً جدلياً فى إطار الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية على كل من المستويات المحلية والعربية والدولية.. وإطلاق سراحها من داخل الجدران المغلقة إلى الشارع السياسي بكل قواه وجماهيره. وشرعت فى كتابة الدراسة فى نفس الوقت الذى كنت أمارس فيه حواراً نقدياً فى اللقاءات التي تتابعت مع الرئيس السادات. وكانت النغمات التي يعزف عليها قد أخذت تتحول إلى مقولات سياسية أكثر دقة في بنيتها الفكرية والاجتماعية. وتدخل دائرة تجريب السبل والوسائل لترجمتها في الواقع على خطوات. وبدا لى مؤكداً والمقولات تتمنطق وتغير أرديتها أكثر من مرة وهى تتعامل مع الواقع حتى تستقر على شكل معين، أن كيسنجر يساهم منذ البداية بقسط ملحوظ في صياغتها ولو بصورة إيحائية وغير مباشرة.

كان السادات شديد الإعجاب بل الافتتان بكيسنجر، يردد عباراته التى حفظها عن ظهر قلب، وأحياناً يخطئ وينسبها إلى نفسه. وإذا ما تنبه أو اعتراه الشك سارع إلى القول: «والله، لم أعد أعرف من الذي قال هذا، أنا أو كيسنجر. لقد أصبحنا نتكلم لغة واحدة تماماً. أنطق بعبارة ما تصف حدثاً أو شخصاً فيبادرنى كيسنجر بأنها كانت على طرف لسانه. ويحدث لى نفس الشيء»، وكان

يصف كيسنجر بأنه «صديق عزيز وعاشق حقيقى لمصر رغم يهوديته. ذلك أن أمريكيته تغلب يهوديته التي كثيراً ما يسخر منها ويقول: لو أن موسى كان ذكياً بما فيه الكفاية لبقي هانئاً فى ظل الحضارة المصرية العظيمة وأراحنا من هذا الصراع الذي لا معنى له بين العرب واليهود».

وكان السادات يرى أن «كيسنجر كشف جهل وغباء وعجز العرب، ولهذا لم يتعب نفسه معهم واكتفى بأن باعهم أوهاماً. لكنه احترم مصر جداً لأنه وجد أمامه في القاهرة - وهو الرجل ذو العقل الاستراتيجي - عقلاً استراتيجياً يقبله ويناقشه في جوهر الأمور بنظرة مفتوحة ومستقبلية. نحن معاً نشتغل فى تغيير هذا العالم. أقول لك هذا بوعى وبتواضع».

وحينما كنت انطلق فى محاجة الرئيس السادات من أن «قضية تغيير الأوضاع» سواء في مصر أو فى العالم، هى قضية حية ومطروحة باستمرار. وأن المهم فى هذه القضية هو اتجاه التغيير وطبيعته ولفائدة من يصب في النهاية و... و....

وكان السادات يحتد بغضب شديد إزاء هذا النوع من المحاجة ويتهمنى و«أمثالى» بعقدة النقص أمام أمريكا وبالجمود والجهل. ويؤكد على «أن أمريكا تعاملني اليوم بعد أن عرفتنى جيداً ورأسى مرفوع إلى السماء. تماماً كما تعامل فرنسا وبريطانيا وألمانيا. فهل هذه البلاد فقدت استقلالها لمجرد أن زعماءها يشاركون واشنطن فى الرأي والمشورة والسعى إلى تغيير العالم الراهن إلى عالم أفضل. هذا سخف، ودليل على أنكم ما تزالون تعيشون بعقدة الخوف من الخواجة.. لا.. أنا بقى رأسي برأس الخواجة»!

ويختتم لطفي الخولى الصورة التي يرسمها للسادات عن قرب شديد فيقول:

«في اللقاء الأخير الذي أتيح لي مع السادات، كانت حلقات القسم الأول من الدراسة «مدرسة السادات السياسية» قد نشرت وردود فعلها متأججة وتم اللقاء في يناير ١٩٧٦ وحين هممت بالدخول عليه أشار إلى كومة من الأوراق ومعها صفحات من حلقات الدراسة المنشورة وقد خطط باللون الأحمر تحت عدد من فقراتها وقال: «هذه هي التقارير المقدمة عن مقالاتك من المكتب الصحفي برئاسة

الجمهورية والمباحث العامة والأمن القومى وأمانة الاتحاد الاشتراكي، لو أخذت بما فيها لأمرت فوراً بقطع رأسك».

وتوقف – السادات – عند عبارة وصفته فيها بأنه «برجوازى ريفى صغير». وقال: «طبعاً استغليت جهل الأفندية بتوعي اللى مسلمهم الصحافة وكتبت هذه العبارة. ولم يعرفوا طبعاً كما أعرف أنا، أن هذا سب وقذف فى حقى بأسلوب الاشتراكيين»!

وفشل «لطفي الخولي» فى إقناع السادات بأن هذا تعبير علمي بات شائع الاستخدام، لا فرق في ذلك بين كُتّاب اشتراكيين أو غير اشتراكيين وأنه لا يحمل أى معنى من معانى السب والقذف.

وأكد السادات له أنه لن يعاقبه على تلك «العملة» كما كان يفعل عبد الناصر عندما انتقد «الخولى» انتهاك أجهزة الأمن لحريات وحقوق المواطنين فقام بإيداعه السجن، وإنما اكتفى السادات – كما يقول لطفي الخولي – بأن أصدر أمره بوقف نشر حلقات القسم الثانى من الدراسة والمتعلقة باليسار المصري بعد أن كان قد تم نشر حلقة واحدة مبتورة!

■■

ومن الشهادات اليسارية عن السادات شهادة خالد محيي الدين، وكما جاءت في مذكراته.. «والآن أتكلم» حيث يقول عن السادات:

«ولابد أن أقرر ابتداء أنه كان أكثرنا خبرة بالعمل السياسي، فهو أقدمنا جميعاً في هذا المجال، وكان يمتلك خبرة سياسية واسعة، ويعرف كيف يكوّن لنفسه وضعاً خاصاً وعلاقات خاصة، فعندما أعد البيان الأول للثورة، وفشل أحد الضباط في تلاوته في الإذاعة، تقدم السادات في اللحظة المناسبة ليقوم هو بتلاوته، ليكتسب بذلك مزية أنه هو الذى أعلن قيام الثورة، وبعد فترة وجيزة اكتشف السادات أن عبد الناصر هو مركز الثقل الحقيقي في مجلس الثورة، فألقى بكامل ثقله في اتجاه عبد الناصر، ووقف معه دائماً، ولم يختلف معه أبداً، ولم يتصادم أبداً مع أى مركز للقوة، فما أن أحس أن عامر قد أصبح ذا نفوذ حتى هادنه هو الآخر، وهو شخص يمتلك مقدرة هامة، وهي التوجه للجماهير،

وفهم نوازعها ومخاطبتها بما تريد.. وكان في كل تعاملاته حريصاً على مخاطبة الناس أو حتى مواجهتهم على أساس إدراكه لحقيقة نوازعهم الشخصية، ولهذا صمد طويلاً مع عبد الناصر، وبقي حتى صار خليفته - رغم أنه لم يكن أبداً لا الأقرب، ولا الأهم».

■■

منذ حوالى عشرين عاماً كان «د. رفعت السعيد» هو ذلك البعبع الشيوعى أو الماركسى الذي تطارده أجهزة الأمن!

ظل «د. رفعت السعيد» سواء في عصر الملكية «الملك فاروق» أو عصر الجمهورية «جمال عبد الناصر وأنور السادات» يدفع فاتورة إيمانه بالفكر الماركسي بالمطاردة والملاحقة الأمنية، لكنه في نهاية الأمر يدفع أغلى سنوات شبابه - معتقلاً ومسجوناً - قبل عشرين عاماً كان «د. رفعت السعيد» في نظر الحكومة وأجهزة الأمن «في العصرين الملكى والثورى» هو ذلك الشيوعى الذى يهدد بأفكاره الحمراء أمن الوطن السياسي وسلامه الاجتماعى.

وتغيرت الدنيا.. هنا وهناك.. وسبحان مغير الأحوال أصبح «د. رفعت السعيد» أحد الوجوه الفكرية والسياسية اللامعة، ويصبح لاجتهاداته السياسية صدى! ولكتاباته ردود فعل عاقلة ولكتبه رواج وصيت، بل يصدر بعضها في مكتبة الأسرة، بل يصبح عضواً فى مجلس الشورى!

لا يحتاج د. رفعت السعيد إلى مقدمة، فتاريخ الرجل السياسي والفكري وسنوات اعتقاله، ومؤلفاته في التأريخ للحركة الشيوعية هى بمثابة المقدمة إليه!

لكن المقدمة الأقصر والأسرع هي صدور الجزء الثالث من مذكراته الممتعة والمثيرة للجدل والقراءة «مجرد ذكريات» والتي سبق أن حققت - الجزءين الأول والثانى - رواجاً وانتشاراً لا مثيل له. الجزء الثالث جاء ساخناً ومثيراً، فالبطل كان «السادات.. واليسار» وعنهما وحولهما تبدأ زيارتنا للذكريات!!

كان السادات أيامها «نائب رئيس الجمهورية»!!

وكان د. رفعت السعيد أيامها فى المجلس المصرى للسلام الذى يرأسه خالد محيى الدين.

وكانت مصر تعيش أجواء هزيمة ٦٧ بكل مرارتها، وبمبادرة من «المجلس المصرى للسلام» تشكلت اللجنة الدولية لنصرة الشعوب العربية برئاسة السياسى الهندى المخضرم «كريشنا مينون».

واقترحت هذه اللجنة الدعوة لعقد مؤتمر عالمى واسع لنصرة الشعوب العربية واقتنع «الرئيس جمال عبد الناصر» بالفكرة، وتم تكليف المجلس المصري للسلام بالتنفيذ، واستغرق العمل أسابيع وشهوراً و«كانت وزارة الخارجية ومكتب الرئيس يتابعان أولاً بأول فيض الموافقات ويبديان اهتماماً مندهشاً».

وحسب ما جاء فى شهادة «د. رفعت السعيد» بعد ذلك قوله:

«حضر إلى القاهرة لمعاونتي «فاروج سلاطيان» - سورى أرمنى - عاش خبرة العمل فى المؤتمرات العالمية للمجلس العالمى للسلام سنوات عديدة، اقترب يناير لنوشك أن نكون جاهزين.. جداول استقبال الوفود بالمطار أعدت، تقرر فتح صالة كبار الزوار بشكل دائم لتسقبل الجميع، و... و...

اقتربت ساعة الصفر ونحن مستعدون، ومن فرط استعدادنا كنا نزداد خوفاً وتوتراً.. ومن بين شعيرات التفاصيل كان إعداد بطاقة الدعوة التي ستوجه إلى كبار المسئولين والسفراء ورجال الإعلام لحضور حفل الافتتاح الذى سيلقى فيه «عبد الناصر» خطاباً.

وهنا بالضبط بدأت أول مشاكل د. رفعت السعيد مع نائب رئيس الجمهورية وقتها «أنور السادات» والحكاية يرويها د. رفعت السعيد على النحو التالى:

«ببساطة من يحاول أن يبدو متمرساً أمسكت بورقة وكتبت صيغة بسيطة جداً.. مختصرة جداً.. «يتشرف خالد محيي الدين سكرتير اللجنة الدولية لنصرة الشعوبة العربية بدعوة السيد «............» لحضور «..........»!

وكان البعض يتربص بهذه الصيغة، فما أن أرسلتها إلى المسئولين في الاتحاد الاشتراكي لطباعتها وتوزيعها على قائمة أرسلتها إليهم، حتى سرت شحنات كهرباء متوترة، أكثر توتراً من أية لحظة مرت بنا طوال مرحلة الإعداد للمؤتمر.

رنين حازم للتليفون. المتحدث هادئ، بطئ الكلمات، الاستاذ «عبد السلام الزيات» مدير مكتب السيد «أنور السادات» (نائب رئيس الجمهورية وكان قد كلف

من قبل الرئيس برئاسة جلسات المؤتمر) تراخت الكلمات الواحدة إلى جوار الأخرى في هدوء محاذر وماكر:

● أظن أنه من الأفضل أن توجه الدعوة باسم السيد النائب!!

وببساطة من لا يعرف ما خلف هدوء الكلمات قلت:

■ إن المؤتمر شعبى غير حكومي، وإن كثيراً من الوفود ألح بل واشترط شعبية المؤتمر، وابتعاده ولو شكلياً عن الصيغة الحكومية، ومن ثم فإن توجيه الدعوة باسم نائب رئيس الجمهورية قد يغضب البعض ويشعرهم أننا استدرجناهم إلى فخ حكومي و....

لم يتركني - الزيات - كى أكمل حججي، كلماته ازدادات حسماً وتحول الهدوء إلى أمر هادئ:

● سيبك من هذه الشكليات، السيد النائب يرى ضرورة أن توجه الدعوة باسمه فهو رئيس المؤتمر..!

ورفض السعيد، وسأل الزيات عن خالد محيي الدين الذي كان خارج البلاد في جولة نهائية لدعوة الشخصيات الأوروبية الأكثر أهمية، ويكمل د. السعيد ما جرى فيقول:

«وبعد دقيقة من إنهاء المكالمة وجدته - أى الزيات - في غرفتى ومعه «أحمد الخواجة» وكان أحد أبرز قيادات مجلس السلام، وربما لأن صداقة حميمة تجمعنا، كان الزيات حصيفاً ورقيقاً، والخواجة يحاول أن يضفى ضحكات على مناخ النقاش، لكننا لم نتفق، وعندما جف رحيق الكلمات بادرنى الزيات وبذات الهدوء.

● خلاص، هناك قرار نهائي بأن توجه الدعوة باسم السيد النائب، وتصرف على هذا الأساس!!

كنت مشفقاً من أن يكتسى المؤتمر بهذه الدعوة طابعاً حكومياً، فى البدء لم يكن في الأمر أى عناد ولكن استدعى عنادهم عنادى وانتفضت قائلاً:

■ حسناً نفذوا أنتم القرار!

قاطعني قبل أن أكمل: حسناً سنطبع نحن بطاقة الدعوة، اترك لنا هذا الأمر!

ووجدتني أقول: أنا سأترك لكم المؤتمر كله وتصرفوا أنتم!

والقى د. رفعت السعيد بمفاتيح الدواليب والملفات والدعوات وأوراق المؤتمر وخرج مسرعاً، وخلفه قفز «أحمد الخواجة» وكما يقول د. السعيد «كانت همساته مشفقة وصديقة وصادقة:

– لا تضع نفسك في موقف العداء الشخصي للنائب، وهو مصمم، وزاد غضبه عندما قالو له «رفعت» مش راضي، ثار قائلاً: مين رفعت ده؟! أنا قررت ولازم قراري يتنفذ!

يعترف د. السعيد: وقبل أن أجد الكلمات قال: انتظر قليلاً في مكتبك، سأحاول إقناعه وأعود إليك!

جلست. هدأت. فكرت ووجدت حلاً وسطاً، لكنني قررت الإبقاء عليه كمحاولة أخيرة، رنين التليفون أكثر حزماً:

– أنا فوزى عبد الحافظ.. اتفضل السيد النائب عايزك!

كان مكتبه في ذات المبنى، أدخلنى «فوزي عبد الحافظ» فوراً إلى «السادات» كان وحده ولعله تعمد ذلك، ما أن دخلت حتى صاح فى غضب ممتزج بمودة علنية:

– إيه يابنى عامل مشكلة ليه؟ إنت ناسي إن «خالد» أخويا وحبيبي وهو لو كان هنا كان لا يمكن يرفض طلبى، ثم إن دى رغبة سيادة الرئيس!

حاولت أن أشرح وجهة نظرى، تململ في مودة أيضاً وقال:

– «ياواد اسمع الكلام عشان خاطرى، وعلشان خاطر صداقتى بأبو الخلد».

لحظ – السادات – أن ملامحي لم ترتح إلى «ياواد» فقال كفلاح عريق:

– بلاش ياسيدي.. يادكتور (بفتح الدال).

وابتسم وابتسمت ولمحت عيناه في ذكاء لم أكن أتوقعه أنني أمتلك حلاً فزادت جرعة المودة الحازمة وهو يقول:

– اشرب ليمون وأهدأ وفكر!!

تلفت باحثاً عن ورقة وقلم، ناولنى قلماً من جيبه وورقة، كنت قد تشاورت مع «فاروج» حول مخرج لا يحرج أحداً، ولا يضفى على المؤتمر صبغة حكومية، أمسكت بالقلم الذهبى وكتبت بسرعة متعمدة لأوحى أن الحل جاهز: «برئاسة

السيد «محمد أنور السادات» نائب رئيس الجمهورية، تنعقد جلسات المؤتمر العالمى لنصرة الشعوب العربية، وذلك فى تمام الساعة ..... نتشرف بدعوة سيادتكم للحضور»، وفى أسفل البطاقة توقيع «خالد محيي الدين» سكرتير اللجنة الدولية لنصرة الشعوب العربية.

وأضفت إلى الاقتراح مسحة ماكرة لقنني إياها «فاروج سلاطيان» ونحن نعد المشروع أن أكتب اسم السادات بحروف كبيرة جداً(!!) واسم «خالد محيي الدين) بحروف صغيرة.

كان البايب قد استقر مشتعلاً بين أسنانه، أمسك بالورقة، القى نظرة متعجلة، استرخت ملامحه مرتاحة، وقع على الورقة تحت كلمة تطبع وتوزع وقال:

– تمام كده، أمال يادكتور (بفتح الدال أيضاً) دوختنا ليه؟!

حاولت أن أشرح الفارق بين ما كان مطلوباً وما كتبت، لم يكن مستعداً لأن يخوض فى تفاصيل مرهقة، لقد حقق هدفه أو خيل إليه ذلك واكتفى.

قال بمودة مبتسمة: اشرب الليمون!

وفيما أشرب قال: أنا معاكم فى المؤتمر على طول، وكن على اتصال بى دوماً لأبلغك أولاً بأول تعليمات سيادة الرئيس!

وأضاف: سيادة الرئيس مهتم جداً بالمؤتمر!

وأعطى تعليماته: يافوزى الدكتور (بفتح الدال كذلك) يدخل فى أى وقت!!

شد على يدى فى مودة وانصرفت!

■■

وتوالى وصول الوفود التي كان من بينها أحد الوفود العربية برئاسة وزير الخارجية، الذي أكد أنه سيعارض وبشدة قرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذي كانت مصر قد قبلته، وقال مساعد الوزير لرفعت السعيد: سننسحب إذا كان الهدف تمرير القرار ٢٤٢، ويعلق د. السعيد على ذلك بقوله:

كانت مصر تؤيد القرار على مضض، لكنها على أية حال ترفض أي رفض له، فرفضه يعنى استبعاد كامل الدعم الغربى لموقفنا، وهو بالنسبة لنا يعني فشل المؤتمر. فكل الوفود الأجنبية سوف تتمسك بهذا القرار الذي كان فى ذلك الحين الحد الفاصل بين الاتجاه نحو السلام أو الحرب!!

الوزير كان أكثر هدوءاً، وطلب في وقار أن يلتقي السيد النائب - السادات - اصطحبته وأنا أتوقع تصادماً، فالسادات كان قد عقد اجتماعاً صباح ذات اليوم مع الوفد المصري مؤكداً إصرار الرئيس عبد الناصر على ضرورة التمسك بالقرار ٢٤٢ كحل!!

يضيف د. السعيد. حاولت أن أترك النائب والوزير لمباحثات خاصة. لكن السادات «صمم: اقعد يادكتور (هذه المرة نطقها صحيحة)» وجلست، الوزير كان واضحاً، سياسة بلده ترفض بحسم ٢٤٢ وهم يؤملون ألا يكون المؤتمر في الاتجاه المعاكس حتى لا يسبب هذا حرجاً لوفدها!

السادات أدهشنى، أنزل البايب من بين أسنانه وقال بجدية مصطنعة لكنها غمرتنى بالاندهاش: قال:

- نحن لا نتمسك بالقرار ٢٤٢ ولن نتمسك به!!

ثم قال: فقط الشيوعيون هم الذين يتمسكون به، والتعليمات واضحة عند وفدنا!!

كانت عيناه مسلطتان عليّ ولم أفهم ماذا كانتا تقولان، فقد فوجئت بهذا الموقف المتقلب، حتى ولو كانت عيناه تقولان نفذ ما قلناه فى الصباح لما قبلت!

وانعقدت لجنة صياغة البيان الختامي: أوربيون، أمريكيون، أفارقة.. هنود، والوزير العربى ثم مصر ويمثلها اثنان الأنبا صموئيل (الذي قتل مع السادات فى حادث المنصة) ود. رفعت السعيد الذى يروى قائلاً:

- «في البداية طرح أحدهم نصاً يوافق على القرار ٢٤٢ فرد الوزير بحسم: لقد تفاهمت مع نائب الرئيس المصري على تجنب هذا الموضوع!! ولم أستطع الاعتراض، حدث الأمر كله أمامى واكتفيت بالصمت، الآخرون سادهم حرج شديد!! وصمتوا أيضاً فإذا كان البلد المضيف قد تراجع عن موقفه فما قيمة الإلحاح؟!

همس الأنبا صموئيل فى أذنى يذكرنى بتحذيرات السادات في جلسة الصباح. لم أجب وكأننى لم أسمع، ومر مشروع البيان متشدداً وخالياً من أية إشارة للقرار ٢٤٢، تركت نسخة من مشروع البيان لدى «فوزي عبد الحافظ» وتوجهت إلى الفندق لأواصل حملة الاتصالات بالوفود، وقبل أن أندفع نحو الأسانسير كان هناك من يندفع نحوي فالسيد النائب يريدنى!

كان - السادات - كما يقول د. رفعت السعيد «هائجاً صاخباً وخائفاً، فهذا الأمر حساس جداً بالنسبة للسيد الرئيس وكانت تعليماته بشأنه واضحة صرخ:

- يابني مش احنا اتفقنا في الصباح، وأبلغتكم بأوامر الرئيس عن القرار ٢٤٢؟

قلت: أنا سمعت سيادتك وأنت تؤكد للوزير موقفاً معاكساً؟!

فقال بابتسامة يائسة: ياعبيط، لازم تتعلم تفهمني علشان نعرف نشتغل مع بعض!! ده اسمه فك مجالس.. انت تضرب وأنا ألاقي.. فهمت؟! روح إجمع لجنة الصياغة واتصرف!

أما باقي ما جرى والذي كان مثيراً ومدهشاً تماماً فقد رواه د. رفعت السعيد على النحو التالي:

«دعوت لجنة الصياغة إلى اجتماع عاجل، جلسوا فى دهشة، فاجأت الجميع بعبارة غريبة ومباغتة أربكتهم جميعاً: آسف إذ أعلن لكم أن الوفد المصرى سوف ينسحب من المؤتمر.. خذوا ما شئتم من قرارات لكن وفدنا لن يحضر»!!

تجمدت الدهشة على الملامح توقفت العيون حتى عن التعبير. فلم يحدث أن انسحب الوفد المضيف عن أى مؤتمر.

سأل البروفيسور «مكسيم رودنسون» عن السبب قلت في هدوء: الوفد المصري لن يستطيع الاستمرار، إذا استمر رفض القرار ٢٤٢ في مشروع البيان الختامي. فهذا ضد جوهر السياسة الرسمية!

أصيب الوزير (العربي) بغضب صامت حاول المقاومة أو الاعتراض أو التمسك بالنص. لكن الموقف المصري سمح للجميع أن يتدافعوا للتمسك بالقرار ٢٤٢، ومر المشروع الجديد، كما أردنا، لكن الوزير لم يكف طوال المؤتمر عن النظر نحوى شذراً!

أما «السادات» فقد ضحك طويلاً عندما حكيت له الموضوع!

■■

ولم تتوقف المشاكل عند هذا الحد، وفي الجلسة العامة أفرغ الوزير العربي كل غضبه ورفضه المتشدد في خطاب حماسى وكأنه يلقي به أمام جيش ينطلق

نحو الحرب وليس أمام مؤتمر ينعقد بأمل البحث عن سلام عادل بعد هزيمة مفعمة بالمرارة كما يقول د. رفعت السعيد - بل جاءت كلمات الخطاب حادة وصلت إلى حد اتهام كل من يقبلون ٢٤٢ بالخيانة والعمالة و....

والأغرب من ذلك كله أن الكلمة طبعت وسوف يتم توزيعها حالاً واستغرب رفعت السعيد فقد قرر من قبل وبشكل واضح ألا تطبع أية ورقة ما لم يوقع عليها بنفسه!

ويكمل د. رفعت السعيد باقي الرواية المثيرة فيقول:

اندفعت نحو مركز الطباعة كان العمال منهمكون في تدبيس كلمة الوزير، انتزعت نسخة واتجهت ملتهباً نحو «فوزى حمزة» (مسئول مركز الترجمة والطباعة) وكان يتحادث في مودة مع شخص لم أنتبه من فرط انفعالى إلى ملامحه، سألت صارخاً: مين أمر بطبع الورقة دى؟! قال بهدوء من لا يدرك خطورة الأمر ومن لم يقرأ الورقة: «السيد الوزير طلب..» وفيما يحاول تبرير موافقته على الطبع صحت: الله يخرب بيتك لبيت الوزير!

صاح الواقف معه: لا تسب وزيرنا!

كان الموقف يزداد اشتعالاً صحت: من سمح للراجل ده أن يدخل هنا؟!

سمع أحد الحراس صيحتى قبض على عنق الرجل لكنه أفلت وهو يصرخ غاضباً واشرع خارجاً، تعرفت عليه. إنه سفير هذه الدولة فى مصر آنذاك وكان شخصية مرموقة ومحبوبة، وكان واحداً من أجمل وألمع السفراء في مصر، وفوق هذا كان صديقاً لعبد الناصر.. لكن ما كان يشغلني هو ماذا سأفعل في عدة آلاف من نسخ خطاب ملئ بالسباب ضد الموقف المصري وضد الاتجاه العام للمؤتمر؟!

ووسط هذا الجو المشحون أتى من يستدعى د. السعيد ويخبره بأن النائب أى السادات عايزك! وفي الحال ذهب إلى مكتب السادات ويكمل قائلاً:

«دخلت كان الوزير والسفير هناك، لست أعرف كيف نجح السادات في امتصاص غضبهما، ما أن دخلت حتى صاح:

- إزاي يادكتور تشتم سيادة الوزير وسيادة السفير؟!

وقبل أن أفتح فمي أنقذني من الورطة بطريقته المميزة:

– خلاص.. خلاص.. الموضوع انتهى.. نفذ طلبات الإخوان!!

خرج الوزير مزهواً وقبل أن أبلغ عتبة الباب ناداني السادات، ألتفت وقبل أن أعود إليه، كانت سبابته الشهيرة تستوقفني وتحذرني:

– أنت غلطت، الورقة طبعت من تحت ذقنك، وأنت مسئول إنك تمنع توزيع أية نسخة منها، بس من غير مشاكل!!

أشاح بيده في غضب غير غاضب فعلاً وقال: اتصرف!!

وبحيلة خبيثة وطريفة نجح د. رفعت السعيد في جمع كل النسخ ثم اتصل بالسادات تليفونياً قائلاً له: الموضوع اتحل يافندم!! وأصر السادات أن يعرف كيف وحكى د. السعيد له الحكاية وكيف أنه استدعى إحدى المترجمات العاملات معه وطلب منها أن تبلغ الوزير العربي بأن له مكالمة دولية، وعندما ذهب الوزير لعمل المكالمة قيل له إن الاتصال قطع وعندما عاد اكتشف اختفاء الأوراق واتصل غاضباً بالدكتور السعيد الذي قال له متهكماً: لعل الجماهير تخاطفتها!!

ويقول د. السعيد إن «السادات» بعد أن استمع للحكاية ضحك طويلاً وتواصلت ضحكاته وهو يهدد بشتائم بذيئة بحق الوزير!

■■

واقترب المؤتمر من نهايته وأعلنت القرارات، والوفود تستعد لمغادرة القاهرة وفجأة حدثت هذه القصة المثيرة حيث يقول «د. رفعت السعيد»:

أتت مكالمة آمرة من السادات: «اسمع «كريشنا مينون» مسافر بكرة وعايز يعمل مؤتمر صحفي قبل ما يسافر»!!

ألقيت نظرة على جدول المغادرة لأكتشف أنه سيغادر القاهرة في السادسة صباحاً قلت: يعمل المؤتمر الصحفى في المساء!

فقال: سوف يتعشى مع السيد الرئيس!

قلت: مستحيل أى صحفي يحضر مؤتمر صحفى الساعة خمسة الفجر!

قال: ياأخى اتصرف، ده صديق حميم للرئيس ومش عايزين نزعله!

ولم أفهم كيف أتصرف، لكن السادات كان يمتلك حلولاً بسيطة لمثل هذه الموقف وقال:

– يابني اجمع أى شبان من المرافقين والحرس وموظفي الفندق، وهو يعني حيراجع بطاقاتهم؟! بس أنت جهز لهم شوية اسئلة وكاميرا.

وبالفعل دخل «كريشنا مينون» إلى القاعة ليجد عشرات الجالسين كل منهم يمسك قلماً وأوراقاً، بدأ هو بالكلام، كنت خائفاً أن يفلت سؤال خائب أو غير صائب من واحد من الجالسين، لكن الرجل لم يتح مجالاً لأسئلة، تكلم، وتكلم، وتكلم، حتى حان موعد الرحيل. كانت إنجليزيته الهندية اللكنة تنهمر فوق رؤوس متعبة لعل أغلبها لا يعرف حرفاً من الإنجليزية، لكن الجميع كانوا يحركون الأقلام فوق الورق بحماس منفعل!

همست في أذنه.. يجب أن نرحل، أكمل جملة أو جملتين، طوى الشبان أوراقهم بعد أن تظاهروا بالكتابة، فأغلبهم لم يفهم حرفاً مما قيل!

وفي المطار ألح عليّ أن أرسل له القصاصات عندما تنشر عن طريق سفارة الهند!

أسقط في أيدى، لكن السادات طمأنني:

– ولا يهمك، هو سينسى الموضوع أول ما يركب الطائرة(!!)

■■

ومرت شهور ثم رحل «جمال عبد الناصر» ليصبح أنور السادات رئيساً للجمهورية.

وعلى نحو آخر كان لرؤية د. رفعت السعيد بقية أكثر إثارة ودهشة.

فالسادات نائباً شيء، والسادات رئيساً شئ مختلف تماماً وهنا تبدأ الحكاية.

في الموعد المتفق عليه. وكان ذات صباح من شهر يناير كان «د. رفعت السعيد» قد وصل إلى الكازينو بجوار الميريديان من خلف قصر العيني» ثم وصل الشاعر والسياسي اليساري «محمود توفيق»، والذي كان صديقاً حميماً للرئيس السادات!!

قال المناضل محمود توفيق له: السادات قابل «عبد الرحمن الشرقاوى» وأفضى إليه بقطعة هامة جداً من سر هام هو أيضاً. قريباً ستكون هناك تعددية حزبية، وسيكون «لنا» حزب علني!

ورغم الدهشة التى ملأت المكان، يعترف د. السعيد: «لم أكن متأكداً، رغم تأكده هو من صدق هذه النبوءة»!

أكد أن السر يجب ألا يباح به حتى لا يتلف الأمر كله!! ولكن وكما عودت نفسى أو عاهدتها أفضيت به «لخالد محيى الدين»، واتفقنا على أن نتكتمه فتكتمته حتى نسيته تماماً. حتى أننى لم أستعده عندما انهمك «لطفى الخولى» فى شرح فكرة طرحها السادات عليه حول إعداد ورقة لتطوير الاتحاد الاشتراكى باتجاه تعددى (تلك الورقة التى أسميت فيما بعد ورقة أكتوبر). انهمك لطفى الخولى بأسلوبه المميز فى شرح الفكرة، كان هناك «خالد محيى الدين» وإبراهيم سعد الدين وأنا!!

وكالمعتاد - يقول د. رفعت السعيد - تتالت الاجتماعات لمراجعة الورقة المقترحة والتى لا أدرى إن كان السادات قد أخذها كما هى أم أعاد صياغتها أم دمجها مع أخريات كلف بها آخرين (فقد كانت هذه هى عادته) وكان خالد محيى الدين أثناء مناقشة الورقة قد اقترح فكرة الأندية المتمايزة فى توجهها الفكرى داخل الاتحاد الاشتراكى!

لكن ما حدث بعدها كان مفاجأة سياسية من العيار الثقيل، وكما يروى د. السعيد: «صدرت ورقة أكتوبر خالية من فكرة الأندية، لكن «المنابر» ما لبثت أن أتت بصورة مفاجئة، وكأنها هبطت على الجميع من حيث لا ندرى.. هنا. وهنا فقط تذكرت نبوءة محمود توفيق!»،

وتتالت أسماء عديدة لمنابر عديدة وفيما أذكر ثلاثة وأربعين اسماً لمنابر مقترحة تراكمت بسرعة مثيرة للدهشة!

المهم بدأت الدهشة بأن استقبل «السادات» «خالد محيى الدين» وليس «عبد الرحمن الشرقاوى»، طالباً منه تأسيس منبر «اليسار»! وبذلك تلاشت ترتيبات مسبقة للشرقاوى ومن أحاطوا به ممن أسموا أنفسهم مجموعة روزاليوسف (أحمد حمروش، حسن فؤاد، صلاح حافظ. ومن تواجد معهم خارج إطار روزاليوسف مثل محمود توفيق، وسعد كامل وآخرين)، وفيما يبدو أنهم كانوا قد استعدوا قبل غيرهم لأنهم علموا قبل غيرهم (!!) ثم ولسبب لا يعرفه إلا السادات

انقلبت الخطة وانتقل الاختيار من الشرقاوى إلى محيى الدين لماذا؟! حتى الآن لا أعرف وربما لا أحد يعرف!

هل كان السادات يستخدم الشرقاوى كإيماءة يتحسس بها مسار الفكرة عند أهل اليسار، بينما هو يرتب فى ذهنه مساراً آخر؟! (إنه الاسلوب الساداتى المتكرر ولكن أكثرنا لم يتعلم).

وعلى هذا النحو بدأت رحلة المنابر الثلاثة فى مصر يمين، يسار، وسط.

ويكمل رفعت السعيد: لكن السادات كعادته تبدى ماكراً بأكثر مما توقعنا، فالمنابر لم تكن سوى نصف خطوة تستدرج الجميع نحو تعددية حزبية، فتتحول المنابر سريعاً وبأسرع مما توقعنا نحن أو توقع غيرنا من الأكثر قرباً من صاحب القرار إلى أحزاب، فنتحول من «منبر» اليسار إلى حزب «التجمع»!!

لكن قبل تحول المنابر إلى أحزاب وقعت عدة حوادث لافتة للانتباه وذات دلالة سياسية وإنسانية. ويقول د. السعيد:

عاجلنا «موسى صبرى» بمقال افتتاحى فى مجلة آخر ساعة يتحدث فيه عن سيطرة الماركسيين على منبر اليسار، ووضع صورتى واسمى على رأس المسيطرين، هذا الماكر وضع الملح فى الجرح مرتين. دس الملح فى جرح الرؤية التجمعية التى يتوجس أطرافها من سيطرة الماركسيين، ثم دسه أيضاً فى جرح الانتماءات الماركسية وخلافاتها التاريخية!!

افزعنى المقال - يعترف د. رفعت ويواصل - وأفزع آخرين، ضحك موسى على طرف الحديث التليفونى، وقال: هذه قواعد اللعبة ولابد من تسخين الحياة السياسية كى تنضج على نار الهجوم والهجوم المضاد!!

قلت: أى هجوم مضاد؟! أنت تقول فكيف نرد عليك؟!

ضحك موسى - مرة أخرى - وقال: استحمل!!

لكن موسى صبرى اعتبرها معركته، ربما لسبب فكرى قابع فى أعماقه وإن كان قد أكد لى فى ساعة صفاء أنه فعلها بإيعاز من السادات(!!).

■■

لقد كانت علاقة المعارضة و«السادات».. علاقة معقدة وفريدة ويحتاج فهمها إلى محاولات من الفهم العميق البعيد عن الرؤية المسبقة مع أو ضد!!

وسرعان ما انتهى شهر العسل السياسى بين «السادات» وحزب التجمع!!

كانت البداية مع مظاهرات ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، ثم زيارة «السادات» للقدس فى نوفمبر من نفس العام.

وتحفل ذكريات «د. رفعت السعيد» بالوقائع والحكايات المبكية لحد الضحك أو الضاحكة لحد البكاء!!

وعندما يتحدث عن مظاهرات يناير الغاضبة يقول: «التهبت مصر، والتهب معها كل شيء وفى المقدمة الناس البسطاء وكنا مع الناس.. وحاول البعض من الشبان الماركسيين والناصريين فى حزبنا أن يقتادنا إلي قيادة العنف واقترحوا مزيداً من الحرائق وشعارات تتلاءم مع حرائقهم!

أما شعارات الحرائق فقد رفضناها، فما كان التدمير يوماً فعلاً ثورياً».

وما أكثر الحكايات والطرائف التى يحكيها د. رفعت عندما وجد أنه السجين الوحيد فى سجن القلعة بعد مظاهرات يناير!!

وإذا كان البعض يدفع ثمن معارضته سجناً، فإن البعض الآخر مع بتوع نضال آخر زمن، نضال الشعارات والحنجورى قد حصلوا على الأموال والحياة الرغدة خارج مصر تحت شعار معارضة السادات!!

وللدلالة على ذلك يقول د. رفعت السعيد:

«كاتب معروف كان يتنقل بين دمشق وطرابلس وباريس أقنع إخوة عرباً بأن يدفعوا له ليؤسس داراً للنشر فينشر كتباً للمناضلين المصريين ضد كامب دافيد والذين تحاصر سلطة السادات كتاباتهم. اسمى ورد ضمن قائمة من سيبدأ النشر لهم، الكاتب اختار اسماً جميلاً لدار نشر وأصدر كتاباً واحداً لنفسه ثم توقف، وسألنى من دفع: لماذا لم ترسل كتبك للنشر؟ ولم أجد إجابة فأحد لم يطلب منى كتباً!!

وقصة أخرى يرويها د. رفعت السعيد كالتالى:

«أذكر أننى التقيت عبد الفتاح إسماعيل» (عندما كان رئيساً لليمن الجنوبى) كان يتحدث بثبات وثقة عن أشياء لم تحدث فى مصر، ولا يمكن لها أن تحدث!! ويؤكد أنها حدثت!! وأنا واثق أنها غير ممكنة الحدوث!!

جادلته.. احتدت المناقشة عندما قلت عبارة تبدت غير لائقة، وإن كان ما بيننا يسمح بذلك قلت:

– إنك تقع ضحية لمن يوهمونك بأوهام غير حقيقية فادفع لهم ما شئت ولكن لا تردد أوهاماً تثير السخرية!

تحمس (الرئيس اليمنى) وأتاه السكرتير بقائمة أسماء منهم، وقائمة ما يقولون أنهم فعلوه أو سيفعلونه وتبدت الأسماء مثيرة للسخرية والأفعال التى افتعلوا القول بفعلها أكثر إثارة للسخرية. تأملت الورقة ثم سلمتها له دون تعليق والتزمت الصمت وأخيراً قلت له:

– أنا لا أعترض على أن تدفع لهم، فقط لا تصدقهم حتى لا تثير سخرية عليك، وحتى لا تقلب الدنيا على رؤوسنا: أموالك أنت حر فيها أما أحوالنا فدعها لنا!!

وفهم واستمر يدفع لهم، ربما لأنهم كانوا الأقرب إلى طموحات تتأجج فى نفوس من يتعجلون تحركاً حماسياً، لكنها على أية حال لا تتحقق فى الواقع.

ثم خذ عندك هذه الحكاية ذات الدلالة السياسية البالغة يقول د. رفعت:

«أذكر أننى خلال زيارة لبلد عربى كان يتضامن معنا بصوت عال لاحظت أنهم يمتنعون عن توزيع «الأهالى» (الجريدة) التى كانت تتعثر فى الصدور بسبب ملاحقات المصادرة، سألت وزير الإعلام وكان صديقاً ابتسم ولم يجب ثم وفى جلسة صافية قال: نتضامن معكم نعم.. أما أن نوزع جريدتكم.. فلا!! ببساطة ناسنا سيسألون: لم لا يسمح لنا بصحف معارضة كهذه!!

وما لم يقله د. رفعت السعيد تعليقاً على هذه الواقعة بالذات وأجده على طرف لسانى أنه «نار السادات» ولا جنة هذه الأنظمة العربية التى تقود المعارضة فيها إلى العالم الآخر مباشرة.!!

وحتى الاتحاد السوفيتى القوة العظمى الثانية أيامها وجدت من يضحك عليها من بعض تجار النضال، فقد كان السوفييت أيامها يريدون الإطاحة بكامب ديفيد بأى ثمن ثم يروى د. رفعت السعيد هذه الواقعة الغريبة:

الحقيقة أن السوفييت لم يتحدثوا أبداً – وربما لم يتجاسروا – عن عمل مسلح (!!) لكنهم كانوا مستعجلين وفى كثير من الأحيان كانوا يتحسسون العلاقة فيما بيننا ثم يرشقون سؤالاً مدبباً عن علاقة التجمع بقوى ما فى الجيش؟!

وكنت أحكى وأحكى عن الشرعية وعن حرصنا على المشروعية وعن موقفنا بعدم التلامس مع الجيش، لكن النظرة الماكرة كانت توحى بأنهم لا يصدقون وربما كانت خبرتهم مع بلاد أخرى أو أحزاب أخرى أو حتى أقاويل أخرى تحفزهم إلى ذلك.

وذات يوم ضاق أحدهم ذرعاً بإنكارى أو استنكارى فقال وكأنه يفجر قنبلة موقوتة توقيتاً دقيقاً:

– فلان... (وكان واحداً من قادة التنظيم الطليعى.. وكان مقيماً خارج مصر فى زمن كان فيه قادة الناصريين فى السجن يقضون أحكام قضية ١٥ مايو) فلان هذا اتصل بنا باسم مجموعة تضم ١١ جنرالاً (هكذا نطقها) فى الجيش وهم يستعدون لفعل شىء هام فأين انتم من ذلك كله؟

دون تردد قلت: فلان.. يضحك عليكم.. وأحذركم من تصديقه.

لكنهم وفق ما تناثر لدى من معلومات لاحقة صدقوه.. ومولوه ثم اكتشفوا أن لا شىء معه.. لا جنرالات.. ولا أحد على الإطلاق!!

وفى كلمات بالغة الدقة والحسم لا تخلو من دلالة يقول د. رفعت السعيد:

«يصدر السادات قانون حماية القيم من العيب، وإذ نتأمل نصوص هذا القانون نكتشف أنها تقيد أيدينا وأرجلنا وأنفاسنا.. وحتى أفكارنا التى لم ننطق بها، وأذكر أننى قابلت أحد الذين صاغوا هذا القانون سألته: كيف فعلتها؟! قال بأسى وقرف: للأسف لقد جعلوا منا مجرد ترزية نفصل القوانين على مقاسهم وعلى ذوقهم.. وذوقهم للأسف «......».

وكتب د. رفعت السعيد كلمة صعب علىّ كتابتها أو إعادة نشرها، ثم يقول: إن حزب الوفد اختار أن يحل نفسه ثم يضيف محللاً ومفسراً:

«ولعل الباشا كان ماكراً إذ اتخذ قرار الحل من هيئة لا تخولها لائحة الحزب الحق فى اتخاذه، كى يترك لنفسه الحق فى الرجوع بعد ذلك، البعض فسرها مكراً، والبعض فسرها سهواً، ولكن سواء كان الأمر مكراً أو سهواً فقد أتاح ذلك لهم منفذاً كى يعودوا» المهم أنه بحل حزب الوفد بقينا وحدنا فى المعارضة.. وحدنا تماماً، ألم أقل إن الأحرار والعمل كانا مجرد كومبارس فى جوقة السادات وجوقة كامب ديفيد»!!

أما قرار التجمع – وكما يعلم الجميع – فقد كان تجميد النشاط الحزبى ويكمل د. رفعت السعيد قائلاً:

استدعانى وزير الداخلية، سألنى: ما معنى التجميد؟! قلت: التجميد هو التجميد.. أن تضع شيئاً فى الفريزر كى تحتفظ به دون تلف، وإن أردته استعدته!!

قال: وما الفارق بين التجميد والحل؟

قلت: الحل أن تلقى بالطعام، والتجميد أن تحتفظ به فى الفريزر!!

قال: وماذا ستفعلون؟!

قلت: سنتواجد.. ثم سنفكر ونخبرك بخطواتنا المقبلة!

وبعد مراوغات لامعنى لها، انتفض الكرش من جديد واقفاً هذه المرة وخرجت.

وعلى هذا النحو المثير تمضى ذكريات «د. رفعت السعيد» فيروى قصة إيقاف جريدة «الأهالى»، ثم تجربة إصدار نشرة «التقدم»، ثم تقترب النهاية بحملة اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة والتى يصفها بقوله:

«كانت النهاية التى أنهت العصر الساداتى وليس طلقات السادس من أكتوبر».. و«ما أن أطلقت الرصاصات ورحل «الرئيس» عن دنيانا حتى تنصل الجميع من قرارات سبتمبر.. ونسبوا أبوتها للسادات وحده دون غيره، بل لقد جادلت وزير داخليته عن هذه الفترة، بعد أن أصبح وزيراً سابقاً حول مسئوليته عن القرارات، هو أو غيره من الأجهزة الأمنية فتنصل وبشدة من أى مسئولية، وأكد وألح فى التأكيد على أن السادات كان صاحب القرارات سواء الاعتقال أو الإبعاد عن مهنة الصحافة».

■■

رغم أن ذكريات «د. رفعت السعيد» حافلة بالأسرار السياسية المذهلة والألغاز التى تنتظر حلولاً لها، إلا أن أكبر هذه الأسرار أو الألغاز هو ما رواه حول اغتيال السادات فيقول:

«منذ تأسيس التجمع تكاثرت عمليات «البص» عبره وحوله وداخله وشغل رجال الأمن أنفسهم بنا، ربما أكثر من اللازم وتنوعت أساليب البص»!!

ولكنك ومهما شحذت قرون الاستشعار لن تكتشف الجميع، وتظل هواجسك معلقة باحتمال أن يكون محدثك «بصاصاً».. دفعوم نحوك لأمر ما، وآه من هذه الهواجس المحيرة والموجعة معاً. فكيف تتصرف مع شخص لا تعرفه، وإن أحاطت به هواجس وشكوك!!

لكن الشيء الذى لم يزل يحيرنى حتى الآن.. أن شاباً (كان طالباً فى طب قصر العينى) لا علاقة له بالسياسة ولا علاقة له بأى منا، فقط أتى، انتحى بى ليبلغنى أنه صديق لسيدة متزوجة، وأن هذه السيدة أبلغته أن السادات سيتم اغتياله يوم السادس من أكتوبر كأقصى مدى (!!!)

وقبلها ستتم محاولات فى المنصورة وسيناء، فإن لم تنجح ستتم فى ٦ أكتوبر، وقال إنه خاف على نفسه، وأتى ليبلغنى لأنه يخشى أن يبلغ الأمن فتنكشف علاقته بهذه السيدة، سألته:

ما هو المطلوب منى؟! قال:

هذه مسئوليتكم، وأرجوكم أن تبلغوا السادات دون أن تذكروا اسمى (ولم أكن أعرف اسمه) وذهب الشاب!!

وقلبت الأمر مرات ومرات، وتشاورت مع الأستاذ «خالد» ثم استقر الرأى أن نبلغ الأمن فنبرئ ذمتنا من «علم ولم يبلغ» والتقيت «بماجد الجمال» (همزة الوصل الوحيدة مع الحكومة الغاضبة منا دوماً) وفيما نشرب الشاى حكيت له القصة، تبدى منذ اللحظة الأولى أنه لم يصدقها، والغريب أنه لم يركز على الموضوع، وإنما ركز على الشاب: اسمه، عنوانه، شكله، مهنته، ولم أكن أعرف أياً من ذلك، فقط قال لى إنه طالب فى كلية الطب!! وأنه يسكن فى حى الدقى!!

حكيت له القصة وأبعدتها عن دائرة اهتمامى حتى كانت واقعة ٦ أكتوبر واغتيال السادات! وذكرت «ماجد الجمال» بها، امتقع وجهه، ويبدو أنه لم يكن قد صدق الرواية، ومن ثم لم يبلغ رؤساءه، وعندما نطق قال شتيمة كبيرة ضد الشاب مضيفاً إليها أنه ولد مجنون ابن «.....» إن ما حدث لم يكن له علاقة بحكايته، فهل كان هذا الفتى مجنوناً حقاً؟!

ورغم مشروعية السؤال الذى طرحه د. رفعت السعيد فما أكثر الأسئلة التى تطرحها ذكرياته!!

وربما كان «السادات» أحد أهم وأكبر هذه الأسئلة.

وفي كل صفحات فصول الذكريات سوف تجد الرئيس «السادات» هنا وهناك غاضباً وثائراً ومنفعلاً وماكراً وحكيماً وبطلاً وزعيماً.

ومن الطبيعي - والحال هكذا - أن يخصص «د. رفعت السعيد» فصلاً كاملاً عنه اسماه «السادات ونحن» ويقصد بنحن بالطبع اليسار أو حزب التجمع، وفي هذا الفصل كتب ورصد ورسم د. السعيد «بورتريه» إنسانياً وسياسياً للسادات ويبدأ كلامه أو رسمه باعتراف مؤداه:

«لعل الجميع - ونحن في مقدمتهم - تتبدى حيرتهم عند محاولة الحديث موضوعياً عن «السادات» ربما من فرط تعقيد هذه الشخصية، وربما من فرط بساطتها وعفويتها، وربما - وهذا هو الأرجح - من فرط بساطتها المعقدة!!

فالسادات كما رآه الماركسي د. رفعت السعيد هو «شخصية ذات مفردات بسيطة لكنها مدمجة مع ادعاء عفوي وبدائي يمنحها تعقيداً تستعصي رموزه على الحل، فهو يهوى تحليل المسائل إلى عوامل أولية بحيث لا تستعصي على الفهم، وهو يتخطى التفاصيل، بينما يحاول - أي السادات - إغراق الآخرين فيها.

وببساطة شديدة أعتقد أنه تأثر أكثر ما تأثر بشخصية عمدة من عمد قرانا في الثلاثينيات، عمدة يعرف كيف يفهم الأمور على هواه، ويطوعها وفق هواه ويتبدى بسيطاً ومعقداً، هادئاً وعنيفاً، طيباً وشريراً، وفق مقتضيات الحال ويدير أموره وأمور قريته بقرارات قد تتبدى متسرعة لكنها ربما - أقول ربما - تأتي عبر تفكير طويل!

وهو - أي السادات - يحب نفسه ولا يحب أن يرهقها، يعمل بقدر، ويستمتع بما أتاحته له الحياة على المدى الأوسع من المتعة، لكن إدارة قرية غير إدارة مصر، ومع ذلك فعلها!

الكل يعرف كيف كانت علاقته بعبد الناصر، لم يكن الأقرب ولا الأقدر، لكنه كان الأكثر امتثالاً، ولعل عبد الناصر كان يعرف أنه إزاء من يمثل الامتثال، لكنه - وفي نهاية الأمر - لم يجد غيره، ربما لأن السادات كان الأكثر صبراً، والأطول بالاً، أو إن شئنا سوء التعبير: الأكثر خضوعاً.. أبقى نفسه، بنفس طويل، محاولاً

أن يبدو أمام كل المتصارعين وكأنه مع الجميع، وأنه غير راغب فى شىء، ونال كل شىء، وبهذه الشخصية المتسانجة والماكرة فى آن أفلت من كل مطبات الخلاف، ومغريات الاختلاف، وبقى فى ظل الزعيم وكظل له حتى أتى رئيساً.

وقد يجد البعض اختلافاً كبيراً جداً بين عبد الناصر والسادات ويحتارون، إذ يأتى الزعيم بالنقيض وارثاً له، لكن هل كان السادات نقيضاً؟ أم كان النيجاتيف بالنسبة للصورة تتبدى نقيضاً فى الظاهر؟!.. هذا السؤال المحير يحتاج إلى كتب ممتدة الإسهاب كي تفك طلاسمه.

ويكمل د. رفعت السعيد ملامح الصورة الساداتية فيقول:

والسادات بالنسبة للبعض مجرد صورة باهتة، وكأن مصر يمكن أن تدار بصورة باهتة، وهو بالنسبة للبعض مرتكب للمعاصى، لكنه بالنسبة للبعض رجل التعددية، وهذه لابد أن تحسب له، فهو ذلك الرجل الذى يتحدى السائد والمألوف ويخترق حصار الحزب الواحد.

هو الذى فعلها، ولا يمكن للتاريخ إذ يحاول أن يسطر صفحات هذه الفترة إلا أن يحكى أن الأحادية بكل سلبياتها كانت سمة لعصر، وأن من وضع نقطة الانتهاء فى نهاية سطر أحادية العمل السياسى.. كان السادات، ونتكلم بعد هذا الإقرار، ويتكلم من يريد عن سلبيات أو أخطاء وانفعالات وعدوانية وتشدد وتصلب وما شئنا من ألفاظ القاموس، دون أن نتجاسر على إنكار أنه هو الذى فعلها، وأنه كسب بذلك موقعاً فى سجل التاريخ.

وكذلك.. كان السادات هو صاحب حرب أكتوبر. يقولون إن عبد الناصر بدأ الاستعداد.. لكن السادات هو أيضاً الذى وضع نقطة الانتهاء فى آخر سطر الهزيمة المريرة المذاق، والكريهة الرائحة.

نعترف بذلك، ثم ننطلق لننتقد ما شئنا من انتقادات عن سياسة الانفتاح، والعلاقة مع أمريكا، وكامب ديفيد، وعشرات من الأخطاء الكبيرة، ألم يقل الجواهرى فى عبد الناصر:

لا يعصم المجد الرجال وإنما

كان العظيم المجد والأخطاء!

لعل البعض من خصوم عبد الناصر والكثيرين من أنصاره ينكرون هذا البيت من الشعر الممتلئ بالحكمة.. والموضوعية.. ينكر البعض المجد، وينكر الآخرون الأخطاء لأنهم اعتادوا النظر بعين واحدة، فماذا لو نظرنا إلى السادات بعينين. هل نقبل هذا التقييم بل هل يتقبله منا البعض أو بالدقة هل يستطيعون ابتلاعه؟!

وعند السطر الأخير أتوقف مع أوراق «د. رفعت السعيد» لكن يبقى السؤال: متى نتخلص من عادة النظر بعين واحدة؟ ومتى لا تحكمنا «المصالح» الزائلة عند تقييم فكرة ما أو موقف ما أو شخص ما؟!

أقول متى؟!

■■

والآن إلى رؤية الكاتب اليسارى الكبير الأستاذ «عبد الستار الطويلة»، وشهادة «عبد الستار الطويلة» استغرقت ٤٢٨ صفحة هى عدد صفحات كتابه المهم «السادات الذى عرفته» !

وتبدأ شهادته بهذه البداية الدرامية المثيرة حيث يقول :

التفت أنور السادات إلى عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام حينذاك قائلاً له فى غضب :

● لماذا جئت بعبد الستار الطويلة إلى الاجتماع ؟..

قال عبد المنعم الصاوى فى دهشة لم يستطع أن يكتمها..

■ يافندم ما هو بييجى دائماً فى كل الاجتماعات !.

ولكن أنور السادات التفت هذه المرة إلى فوزى عبد الحافظ سكرتيره الخاص وكان الى جواره حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى وقال وهو مازال غاضباً:

● أنا مش قلت مش عاوز شيوعيين هنا ؟..

رد عبد الحافظ بسرعة:

■ ماهو معاه كرنيه الرياسة بيجى وقت ماهو عاوز !

قال السادات فى حسم : اسحبوا منه الكارنيه.

هذا بالضبط ما حدث فى أحد أيام شهر يونيه عام ١٩٧٧ عندما كان المرحوم الرئيس أنور السادات قد دعا رؤساء تحرير الصحف ومجالس إدارتها وبعض

كبار الصحفيين كعادته للقائه فى المعمورة .. ليطرح عليهم طلبا محدداً هو فصل ٣٠٠ صحفى شيوعى من نقابة الصحفيين.

والحوار الذى ذكرته قاله لى عبد المنعم الصاوى يرحمه الله.. فى أحد أيام شهر يونيه ١٩٧٧.. وقبل ثلاثة أعوام من نفس الشهر من عام ١٩٧٤ بدأت علاقتى بالرئيس المرحوم أنور السادات وتطورت هذه العلاقة الى شبه صداقة سمحت بلقاءات عديدة جرت فيها مناقشات متنوعة فى إطار أحداث تاريخية ضخمة وحتى لما طردنى السادات من «رحمة الكنيسة» إذا جاز القول .. استمرت هذه العلاقة بأشكال أخرى أو عن طريق قنوات مختلفة أبرزها استمرار لقاءاتى بالسيدة چيهان السادات التى كانت شخصية سياسية من الدرجة الأولى وشريكاً له، أو محاوراً جيداً على الأقل فى معظم قراراته.

وقد أتيح لى أن أعرف الكثير عن السادات ووجهة نظره.. وأسلوبه فى الحكم وما وراء بعض قراراته المصيرية.. وبعضاً من طباعه الشخصية وأثرها على مواقفه الموضوعية فى حكم البلاد. وقد عرفت هذا عن عمد.. وبعد متابعة واستقراء.. فقبل أن ألتقى بأنور السادات شخصياً كنت بحكم أنى مناضل سياسى.. وصحفى أتابع نشاطه وأحاول تحليل سياسته وتفهم مواقفه.. كما كنت أفعل ذلك فى عهد الملك فاروق.. وفى عهد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر..

وأشهد أن أنور السادات كان مستمعاً جيداً.. ومجادلاً طيباً.. ولم يغضب قط من أى ملاحظة أو نقد لسياسته.. وكثيراً ما انتقدت مواقف له»..

■■

كانت الصدفة وحدها هى التى جمعت عبد الستار الطويلة وأنور السادات فى سجن واحد عام ١٩٤٦.

كان السادات أحد المتهمين فى قضية اغتيال أمين عثمان، وعبد الستار الطويلة متهماً فى قضية شيوعية.

وأترك لسطور عبد الستار الطويلة تروى قصة اللقاء الصدفة فيقول:

إذ كنت فى الأصل مسجوناً فى سجن بنى سويف متهماً فى قضية شيوعية.. وبفضل معاونة نادرة من رجل بوليس نادر هو اليوزباشى «إبراهيم محمد إبراهيم»، (اللواء الآن) وكيل سجن بنى سويف حينذاك، أمكن نقلى إلى سجن مصر لأداء الامتحان..

كانت إدارة السجن تضع المسجونين في قضية أمين عثمان في الدور رقم ٦.. أما سائر المسجونين السياسيين بما فيهم الشيوعيين فيوضعون في دور رقم ٢.

أخطأ الشاويش في توزيعي ووضعني في الدور ٦ مع قضية أمين عثمان.. وأؤكد الشعور بالتأفف الذي انتابني وأنا أرى هؤلاء المسجونين في الطابق الذي يعلوني وأنا ما زلت في الدور الأول متوجهاً إلى السلم لصعوده.. وسألت نفسي: هل سأقيم مع إرهابيين؟.

ولم أكن أعرف أني سأطرد من دور ٦ بعد دقائق قليلة.. ولكن كانت هذه هي المرة الأولى التي التقي فيها بأنور السادات..

استقبلنا على بداية الدور المرحوم سعيد توفيق شقيق حسين توفيق.. وقال له الشاويش هذا الأخ قادم من سجن ني سويف للامتحان..

كان أنور السادات واقفاً إلى جواره وعرفته من صوره التي كانت تنشرها الصحف. نظر سعيد إلى «تذكرتي» التي سلمها له الشاويش.. فقال بصوت عال وهو يلوح بيده للشاويش: «ده شيوعي ياعم مرسي.. ما يقعدش معانا..».

تنبه أنور السادات واقترب منا أكثر ونظر إلى «التذكرة» وقال ببساطة:

– ليه.. ما يقعد معانا.. نتشرف بيك يارفيق!

ومد يده وهو يبتسم ابتسامة عريضة أثارت دهشتي وخصوصاً كلمة رفيق.. التي كان يبدو أنه يقولها مازحاً..

ولوح سعيد توفيق بيده قائلاً: لا... لا.. (الشيوعيين لهم حتة تانية!)، ولم يعط الشاويش مرسي فرصة لاستمرار الجدل.. فقال بدوره وهو يربت على كتفي لأستدير: معاك حق.. لازم نروح دور ٢.. ده ممنوع ييجي هنا أصلاً.

قال أنور السادات: طيب لحظة يا شاويش مرسي!!

ودخل غرفة وخرج منها.. يحمل شقة خبز كبيرة محشوة بلحم وأرز وشقة بطيخ ولفهما في ورقة صحيفة.. ثم وضع يده في جيبه العلوي.. وأخرج علبة سجاير «بلايرز» أعطاني منها خمس سجاير وقال:

■ مادام جاي من بني سويف.. لازم جعان لم تتغدا!

كانت السجاير ممنوعة فى السجن أيامها.. والسيجارة الواحدة عملة نادرة.. ثم كان الغذاء الذى تقدمه إدارة السجون للمسجون الذى لا يحصل على طعام من الخارج.. كمية من الفول المسوس أو العدس مع رغيف خبز بايت.. ومن يأتى بعد الظهر مثلى ليست له وجبة عشاء.. إنما يأخذ رغيفاً يأكله حاف.. علاوة على شقة خبز يأخذها مع قليل من الملح ليفطر بها فى الصباح! هكذا كان طعام السجن للمحبوسين احتياطياً (أى الأبرياء) مادام المحبوس عاجزاً عن أن يطعم نفسه بنفسه..

لهذا يمكن تصوركم كم كانت قيمة رغيف الخبز المحشو بالأرز واللحم الذى قدمه لى أنور السادات.. وشكرته.. وشكرت سعيد توفيق الذى لانت ملامحه بعد أن رأى أننى سأرحل كما لابد أنه تأثر بسلوك أنور السادات الودى تجاهى..

وبارحت المكان.. وأنا أحمل انطباعاً طيباً عن أنور السادات هذا.. وهو أنه ابن بلد.. وليس متعصباً ضد أى سياسى يخالفه الرأى والعقيدة.

وراحت .. واختفت من ذاكرتى حكاية سجن مصر.. إلا بقدر ما كنت أطالع أخباراً عن قضية حسين توفيق وأنور السادات..

إلى أن قامت ثورة ١٩٥٢ وقرأت أنه أصبح عضواً فى مجلس الثورة.. وعرفت أنه من المنوفية.. ولكنه لم يثر اهتمامى.. لأنه رغم اهتمامى بالثورة المصرية منذ لحظة قيامها إلا أنى كنت من أشد معارضيها واعتبرتها انقلاباً عسكرياً أمريكياً.. وكنت أستحلب فى لذة شديدة وحنق أشد تعبير أنها عصابة الفاشية والحرب!

وسمعت مرة من بعض أهل المنوفية أن أنور السادات اقترض خمسة آلاف جنيه من بنك مصر واشترى فدانين أرض وبنى منزلاً نظيفاً ملحقاً به مضيفة.. وأنه يتردد على قريته ميت أبو الكوم باستمرار ومعه صديق له فى الطفولة اسمه فتحى سلمان.. ويجلسان تحت الشجرة يشربون الشاى الفلاحى المألوف.. وكان ذلك فى الأعوام بعد الثورة مباشرة..

وقد فوجئنا بأن عرفنا أن أنور السادات قدم خلال وجودنا فى المعتقل (حتى عام ١٩٥٦) مساهمة مادية للمرحوم الأستاذ حسن فؤاد الفنان اليسارى الشهير لإصدار مجلة الغد الفنية الأدبية اليسارية معاً!..

على أننى فى خلال معتقل الواحات (١٩٥٩ - ١٩٦٤) عرفت بعض الأشياء عن أنور السادات من خلال صديقى المرحوم إبراهيم عامر.. أذكر أنه قال لى إنه ليست له فاعلية تذكر بين قادة الثورة.. ولا يبدو عليه من سلوكه أنه يحاول أن يبرز على أحد منهم.. رغم أن له تاريخاً طويلاً ضد الإنجليز فى الشوارع.. والتعاون مع الألمان فى الحرب أيضاً! كما أن بعض رجال الثورة كانوا يستهينون بدوره ومواقفه.. ولكنه كان «يفوت» ويصبر دون اكتراث.

وحكى لى إبراهيم عامر أن أنور السادات لم يتصرف تصرفاً هاماً فى حياة الثورة إلا عندما حدثت أزمة فى مجلس الأمة أثناء رئاسة السيد عبد اللطيف البغدادى له عندما أراد البعض تحويل مشكلة مديرية التحرير إلى إحراج أصدقاء عبد الناصر (وكان هذا يعتبر إحراجاً لعبد الناصر نفسه أوتوماتيكياً. بحكم طبيعة النظام الشمولى) وغادر عبد اللطيف البغدادى منصة الرئاسة.. قائلاً إن للشعب أن يعرف كل شىء، فتولى أنور السادات (وكيل المجلس حينذاك) رئاسة الجلسة ولما بدأ عبد اللطيف البغدادى الحديث قال السادات: نعمل الجلسة سرية!

واعتبر عبد الناصر يومها أن هذا تصرف ذكى وحاسم من جانب أنور السادات لأنه يتستر على الثورة ولا يريد نشر فضائح منسوبة إليها.

والتقيت مرة بأنور السادات فى واحد من اجتماعاته بالمبعوثين.. ولما سأله أحدهم عن سبب خروج الدكتور حلمى مراد من الوزارة.. فقال أنور السادات: أنا لو كنت مطرح الرئيس جمال عبد الناصر لدبحت حلمى مراد.. ودهشت كما دهش أغلب أساتذة الجامعة والمبعوثين الذين كانوا حاضرين!

وعندما كان يخرج من الاجتماع صافحنى دون أن يعرفنى.. وهو يصافح الصحفيين الذين كان يعرف بعضهم.

وأذكر مرة أنى كنت فى تلا فى زيارة أخى الذى كان يعمل مديراً للطب البيطرى فى محافظة المنوفية.. فحكى لى أن فتحى سلمان صديق السادات الذى أصبح بمثابة مدير أعماله كان يستدعيه من حين لآخر لعلاج جاموسة يغرم أنور السادات بشرب لبنها بالذات.. وكان أخى كلما زار بيت الرئيس فى ميت أبو

الكوم يدهش من بساطته وتعامله العفوى والودود مع كل أهل القرية الذين كان يستدعي بعضهم من حين لآخر.. أو يلجأون إليه للشكوى من شيء ما..

وقد رأيت بنفسي عندما أعلن عن انتخاب أنور السادات لمنصب رئيس الجمهورية بعد وفاة الزعيم جمال عبد الناصر.. وكان السادات فى ميت أبو الكوم.. ووقف يستقبل أهل القرية جميعاً الذين انتظموا فى طابور طويل ليسلموا عليه فكان يقول لكل واحد منهم كلاماً يفهم منه أنه يعرف أحواله أو الكثير عنها: الجاموسة بتاعتك عملت إيه ياخضره.. ابنك خرج من المستشفى بعد العملية ولا لأ.. مبروك نجاح الواد حميده.. إلخ هذه العبارات..

وأحياناً ينطلق أنور السادات صائحاً فى صوت عال والله لا أخليك تحج يا عبد العال أو ياخضره أو يا سيد بعد أن يميل عليه واحد من أهل القرية ويسر له بأمنيته بعد أن فتح الله عليه بمنصب الرئاسة (الذى لم يكن يحلم به قط كما صرح عدة مرات) أن يبعث به إلى الحجاز لأداء فريضة الحج..

■■

ولا تنتهى الحكايات الإنسانية للسادات عند عبد الستار الطويلة ويحكى:

كانت هناك مباحثات فى القناطر مع شخصية هامة ربما جروميكو لا أذكرها الآن فتأجلت المقابلة فجأة. لماذا؟ لأن الريس وهو فى الاستراحة جاءه خبر أن الفقيه فى قريته ميت أبو الكوم توفى فتوجه إلى القرية كى يقدم العزاء بل وتلقى العزاء فيه عند القبر الذى دفن فيه.

لقد كان السادات مرتبطاً بالقرية وبالفقيه وبشيخ الخفراء وكل شخصية فيها ولذلك لم يكن غريباً تنازله عن قيمة جائزة نوبل لمشاريع لتطوير القرية.. وربما كان السادات واحداً من مثقفين مصريين قلائل ارتبطوا هذا الارتباط بقريتهم. وكان السادات شخصية ذات أريحية ورغبة فى إمتاع من يعرفهم خصوصاً من خدموه فى أوقات صعبة.. والحقيقة ما من غرزه أو مقهى صغيراً كان قد مر عليها أنور السادات بسيارة النقل فى شبابه. سواء كان سائقاً أو تباعاً أو مقاولاً إلا وأنصفه أنور السادات ومنحه مساعدة بأى شكل: فلوس أو حجة إلى بيت الله الحرام إذا استطاع أن يقابله أو يوصل له رسالة. ومن العناصر التى أكرمها ورد

جميلها.. مسجون اسمه مبارك مصطفى وكان محكوماً عليه بسبعة وستين عاماً
● لا يوجد مسجون سياسيى فى مصر إلا وعرفه.. وكان له وضع ممتاز لأن أمثاله
كانوا يعاملون معاملة خاصة باعتبار مدة الحكم الطويلة.. وكان مبارك يمد أنور
السادات بالصحف سراً وهو فى السجن.. بعد تولى السادات الحكم اتصل به.
فقدم له أنور السادات كل المساعدات الممكنة فأفرج عنه وأرسله للحج وألحقه
بعمل بمائة وعشرين جنيهاً فى الشهر عام ١٩٧٨ وطبعاً نحن نذكر حكاية الرجل
الذى كان فى قرية البحيرة الذى استضاف أنور السادات وهو مريض
بالدوسنتاريا وتحرى عنه الزميل إبراهيم سعده حتى عثر عليه. وأكرمه السادات
وزاره فى بيته وأصلح الطريق الموصل إليه من أجل خاطره!

وفى أسوان رأيته يسأل عن مواطن كان يقدم له الشاى شكك زمان وقيل له
إنه مات فطلب من المباحث التحرى عن عائلته حتى وجدت ابناً له فاستدعاه
وأكرمه هو وعائلته.

وكان للسادات فلسفة فى مثل تلك الأعمال.. قال لى مرة وهو يفسر سلوكه..
أنا دايماً أقول لنفسى ما دام الله قد أنعم علىَّ بأن وضعنى فى موقع يمكن منه
أن أساعد الناس فلماذا لا أرد جميل الذين ساعدونى فى أسوأ فترات حياتى؟

الصديق يعرف وقت الضيق.. وأنا عشت أيام ضيق كثير.. وأهلنا علمونا
الوفاء..

كان السادات لماحاً. فلما لاحظ أننى سكت ولم أعلق على كلامه.. قال لى
ضاحكاً:

طبعاً مش عاجبك الكلام ده وبتقول لازم مساعدة الشعب والبروليتاريا بتاعتكم
ولا يهم مساعدة أفراد.. المهم الملايين.

● قلت له.. يا سيادة الرئيس إنى سكت لأنى كنت أتأمل طبيعة الوفاء هذه فى
سيادتك لأن غيرك يتبرأ من أبوه لأنه ساعده وعاش فترة فقره الشديد.. هذه قيم
عظيمة التى تمارسها ياسيادة الرئيس.. ولا تناقض بين أن يكون الإنسان وفياً
معترفاً بالجميل لأفراد وبين أن يخدم ويضحى من أجل الملايين من أبناء الشعب!

وحكاية أخرى.. كان للسادات قدرة كبيرة على التحمل.. وأذكر أننا كنا على
مائدة دعاه إليها ملك السعودية.. وكانت مائدة حافلة كبيرة على الطريقة

الشرقية.. خراف ونحن جلوس على الشلت.. وكان عند السعوديين رقصة اسمها رقصة السيف وكان لابد أن يشارك أنور السادات فيها.

ورغم أنه كان متعباً وعمره متقدم إلا أنه نهض وأمسك بسيف.. يرقص معهم.. وبدا عليه أن يتماسك.. إذ استمر يشارك فى الرقص مجاملة للسعوديين.. ووقتها تأملته واحترمته كثيراً.. لأنى أحسست أنه يجهد نفسه كثيراً كى يجامل ضيوفه بالأسلوب الذى يعجبهم حتى يتوصل لنوع من الاتفاق العربى أو التعاون العربى..

■■

لكن ما هى قصة اللقاء بين الماركسى عبد الستار الطويلة والرئيس السادات على وجه الدقة؟!

وحسب ما رواه الاستاذ.. عبد الستار الطويلة.. فقد شاءت الصدفة - والصدفة وحدها عندما التقى بالرئيس السادات، وكان ذلك عقب صدور كتابه «حرب الساعات الست» حيث يقول:

فوجئت يوم أول يونية ١٩٧٤ بجرس التليفون يدق ويقول المتحدث إنه من رئاسة الجمهورية وأن سيادة الرئيس يدعوك إلى المشاركة فى احتفال ٥ يونية..

وقلت ضرورى أنه قد قرأ كتابى الذى أعطيته للسيدة چيهان منذ أكثر من شهر..

وكانت أول مرة التقى فيها مع أنور السادات مع كبار الصحفيين الذين كان قد دعاهم وأذكر أننا عبد الرحمن الشرقاوى وعلى أمين - يرحمهما الله - وأنا تلازمنا طول اليوم.. واكتشفت فى على أمين جوانب إنسانية لم أكن أعرفها وروحاً مرحة جداً..

وصافحنا أنور السادات جميعاً.. وقدم اسمى له عبد الرحمن الشرقاوى.. ولكن لم يبد عليه أنه يعرفنى.. وتناولنا معه الغداء.. وأنا أتأمل فى دقة كيف يأكل رئيس الجمهورية فوجدته إنساناً عادياً جداً.. يضحك مع الضباط من حوله ويداعب الصحفيين الذين يعرفهم ولو كانوا على بعد أمتار منه.. ولكنى لاحظت أنه يأكل قليلاً.. ولمست أنه سعيد بنفسه يبدو «شبعان» مبتهجاً بالحياة وبوضعه فيها!

بعد ٤٨ ساعة.. دق جرس التليفون وقال المتحدث مرة أخرى إنه من رئاسة الجمهورية.

قال: سيادة الريس عاوز يشوفك.. ممكن تشرفنا فى المعمورة الساعة ١٢ ظهر غد.. تحب نرسل لك عربية!

شكرته وتملكنى السرور طبعاً.. وجلست أفكر فى المسائل السياسية التى سأتحدث فيها مع رئيس الجمهورية الذى تتاح لى فرصة لقائه لأول مرة..

وبعد بضع دقائق اتصلت بدافع ذاتى من عندى بالشرقاوى وصلاح حافظ.. وذهبت للقائهما.. وأخبرتهما بموعدى مع الرئيس.. وطلبت منهما أن يقولا لى ماذا يريدان من موضوعات أثيرها معه.. أو طلبات خاصة بالمؤسسة.. وعرضت عليهما ما أفكر فى مناقشته مع الرئيس.

والحقيقة أن الاثنين لم يقترحا شيئاً جديداً غير ما عرضته عليهما.. إلا أن صلاح حافظ قال لى أرجو أن تستفسر من الرئيس عن هجومه على أحد الصحفيين إذ قال إنه أحد أفراد التنظيم الطليعى وأن ذلك الصحفى قد هاجم الرئيس وخرج عن حدود الأدب فى الحديث عنه أمام جمهور الصحفيين فى النقابة.

وقال صلاح إنه يعتقد أن الرئيس يقصده هو أى صلاح.. وطلب منى أن أنفى ذلك للرئيس وأنه لم يحدث شىء كهذا أبداً..

ذهبت إلى بيت الرئيس فى المعمورة.. واستقبلنى فوزى عبد الحافظ سكرتير الرئيس.. بجرارة شديدة. وأخذ يتحدث معى دقائق – قال لى فيها إن «الهانم» معجبة بك وتحترمك جداً.. لأنك كنت أميناً فى نشر حديثك معها.. وشكرته.. وأدخلنى أحد الصالونات.. حيث استقبلنى ضابط من ضباط الحراسة التى يسمونها «خاصة».. اسمه أحمد.. وكان شاباً مهذباً جداً.. ورقيقاً جداً..

وتذكرت وأنا جالس ما قرأته فى روايات الجيب أيام زمان عن لويس السادس عشر والرابع عشر.. وتقاليد القصور فيها من أن الزائر للملك لابد أن يجلس فى مكان ما.. ثم يهل الملك عليه فيهب هو واقفاً.. لأنه إذا ما دخل على الملك فى الصالون مثلاً.. لابد أن يهب الملك واقفاً لاستقباله.. وهذا لا يصح طبعاً..

وانتابتنى أفكار ومشاعر غريبة.. فشعرت كما لو كنت تحت الرقابة الدقيقة وأننى سأفتش حتى العظام!

لم أكن خائفاً من لقاء رئيس الجمهورية.. لأنى كنت ألقاه وفى أعماقى إيمان مستمد من اعتناقى للنظرية الماركسية والنضال الطويل الذى ناضلته تحت رايتها.. أن هؤلاء الرؤساء فى العالم الثالث.. لهم دور محدد فى التاريخ.. وهو دور القيادة الوطنية لتحرير الوطن.. ثم بعد ذلك يرفضون تطوير مسيرة التاريخ أكثر من ذلك.. بينما أنا وأمثالى نسعى إلى تقدم أكثر.. بالنضال من أجل الاشتراكية.

وانتزعنى من أفكارى المختلطة هذه نداء الأستاذ أحمد لى حيث خرجنا من الغرفة إلى ساحة واسعة من أرض مكسوة بالحشائش تطل على البحر.. وعلى بعد آمتار أمامى رأيت أنور السادات جالساً وهو يتلفع بعباءة خفيفة.

ونهض من مقعده.. باسماً ابتسامة عريضة مرحبة.. وسلم على فى ترحاب وحرارة.. قائلاً وهو يوسع المكان ويشير إلى مقعد وثير أمامه:

- تفضل..

وسكت لحظة.. ثم قال: أنت بلدياتى.. من الجمهورية المنوفية المتحدة كما تسمونها.. وضحك بصوت عال..

فقلت له: سيادة الرئيس أنا سمعت كثيراً عن غرامك بالمنوفية.. فلماذا هل هو تعصب؟!

- أبداً.. كل من يحب الوطن الكبير يحب وطنه الصغير.. حتى قريته وبيته!!

ومر على أحد العمال بالشاى.. بينما أنا أملأ عينى من رئيس الجمهورية.. ها هو رئيس جمهورية مصر.. الرجل الذى كان وطنياً إرهابياً.. ثم أحد صناع ثورة يوليو.. ثم صانع حرب ١٩٧٣.. ها هو بلحمه ودمه أمامك.. ماذا ستقول له أو بالأحرى هل ستستطيع أن تقول له ما تريد.. وماذا سيقول لك هو؟ وأنت تلقاه بدون واسطة.. ولا شفيع.. فماذا تريد؟!

ولكن السادات بعد رشف بعض رشفات الشاى.. قال لى وهو يثبت عينيه فى عينى:

– ياعبد الستار أنا قرأت وبأقرأ كل الكتب اللى طلعت عن حرب أكتوبر.. وقرأت كتابك فاندهشت كيف كتبت أحسن ما كتب عن تلك الحرب؟

وضحك وقال: يمكن علشان أنت منوفي.. صحيح أنت من بلد زكى مبارك سنتريس؟

– نعم ياسيادة الرئيس وأتشرف أنه قريب لأمي..

قال: أنت ابن مين فى سنتريس.. أنا كنت أعرف هناك أيام الشقا عبد العاطى أبو حسين صاحب قهوة هناك!

– قلت.. عبد العاطى هذا ابن عمتي.. وأنا من عائلة فلاحية فقيرة جداً.. ولكن جدى استطاع تعليم أبى فى الأزهر ودار العلوم.. وكان ناظر مدرسة.. وربانا حتى جعل منا أفندية..

أدهشنى أنور السادات عندما قال لى: لما تشوف عبد العاطى ده قول له ييجى لى.. يمكن يكون عاوز حاجة..

– ياسيادة الرئيس.. هذا كرم شديد من جانبك.. كيف تفتكر كل هؤلاء الناس من زمان بعيد؟!

قال فى بساطة: ولا كرم ولا حاجة.. إذا أعطاك الله أعط أنت للغير أيضاً.. والحسنة بعشر أمثالها.. وهؤلاء الناس كانوا ظراف جداً معى وأنا فى القاع.. لقد كنت فى يوم من الأيام تباع فى لورى.. وسائق.. ومقاول. مقاول يعنى غلبان مش زى عثمان أحمد عثمان.

وضحك.. ضحكة عالية صافية أيضاً..

وحدثته عن موضوع صلاح حافظ الذى أوصانى به.. فقال لى: لا.. لا.. صلاح حافظ فهم غلط.. هو لم يقل شيء ضدى.. أنا كنت أقصد فى خطبتى أحمد عبد المعطى حجازى!

• ورأيت أنور السادات يسرح ببصره بعيداً ويقول: والله أحمد عبد المعطى حجازى ده بلدياتى وأعرف أهله.. ناس غلابة لكن طيبين.. هو عاوز منى إيه بس.. مش عارف.. وأنا أحبه وأحترمه لأنه شاعر كويس.. مش عارف أعمل له إيه.. أنا مستعد أعمل له أى حاجة..

وشعرت فى هذه اللحظة أن أنور السادات لديه ميول شوفينية للمنوفية وأبناء

وعاد أنور السادات يقول: قول لصلاح حافظ أنه ليس المقصود..

ثم صفق أنور السادات بيديه.. قائلاً لى.. وكانت الساعة قد أصبحت الثانية بعد الظهر تقريباً..

- يابنى أنا ما باتغداش.. باكل الساعة السابعة..

ولما جاء العامل.. قال له: هات يابنى شوية سندوتشات علشان الراجل ده..

وأحسست أنى جالس على مصطبة العمدة.. وبدأت أكل السندوتشات وحدى وفى شهية عجيبة ربما خلقتها عندى مشاعرى بأن هذا رئيس جمهورية بسيط جداً فى تعامله مع الناس.

تحدثت مع الرئيس فى موضوع الإخوان المسلمين والتيارات الدينية.. واقتربت من الموضوع بحرص إذ كان موضوعاً حساساً.. فقد كان الجميع يعرفون أنه أى السادات قد استعان بالجماعات الإسلامية فى الجامعات لضرب اليساريين سواء كانوا ناصريين أو من اليسار الجديد.. وعهد بهذه المهمة لشاب حديث عهد بالسياسة ذى اتجاهات غاية فى الرجعية.. فسلحهم بالمطاوى والجنازير والقبضات الحديدية..

سألته.. هل لدى سيادتك أى تعاطف مع أفكار التيار الدينى؟

قال: يابنى.. أنا مسلم.. وأمارس العبادة طويلاً.. منذ كنت طفلاً..وقبل حرب أكتوبر ذهبت إلى الكعبة وركعت وأنا متعلق باستارها وأنا أبكى ضراعة لله أن ينصرنى فى معركتى ضد إسرائيل.. حتى أنهضنى الملك فيصل وطبطب على وهو يردد معى الدعوات..

قلت مرة للرئيس أنور السادات.. وقد امتد بنا الحديث وتشعب:

- ياريس.. أنا كلما أتيت إلى زيارتك أحس أنى فى جو روايات الجيب بتاع زمان عن باردليان وفوستا ولويس الرابع عشر.. دسائس القصور يعنى.. وكل واحد عاوز يأخذ أصبع من قدم السلطان!

قال أنور السادات ضاحكاً: نحن بشر.. أمال إيه..

قلت: كل واحد قريب من السلطان عاوز يبعد الثانى ويستأثر بالرضا ولو على حساب الآخرين.. وطبعاً السلطان مبسوط ويستفيد من كل هذه التناقضات.. ويضرب ده بده إذا لزم الأمر..

قال السادات بصراحة: الحكم له فن.. وضرورات لا يعرفها من هو خارج الحكم.. والأفندية اللى زيك!

قلت: على فكرة لماذا تسمى المثقفين بالأفندية؟

قال: لأنهم منعزلون عن الواقع.. المثقف مش حاجة عيب.. بالعكس يمكن يفيد بلده بثقافته.. ولا يمكن الحاكم ينجح إلا إذا كان مثقف.. ما أنا قرأت فى السجن قد شعر رأسى كتب.. لكن الواحد لا ينسى الطين اللى اتربى فيه.. لازم تعرفوا الحقيقة.. مش الشعارات والكلام الكبير بتعاكم ده.. ما أنا أقدر أقول كل يوم وكل ساعة الاستعمار والإمبريالية والتناقض فى صفوف الشعب.. الهلمه دى كلها.. ثم ماذا؟

● ولكن النظام لا يستفيد بالمثقفين.

■ عاوزين إيه أكثر مما أنتم فيه.. حرية صحافة.. نشر كتب.. منابر وانتخابات حرة.. عملتم إيه؟ أفندية برضه.. فاكر لما كنت أنا أتحدث عن عام الحسم.. وجمعتم نفسكم وجرجرتم راجل كبير زى نجيب محفوظ وكتبتم البيان إياه ضدى وصورتونى كأنى متخاذل.. وأنا نشفان ريقى فى الإعداد للمعركة.. عاوزينى أكشف ورقى علشان نخسر المعركة.. تدخل إسرائيل القاهرة.. علشان كده أنا بقول أفندية.»

انتهت شهادة اليسارى الأستاذ عبد الستار الطويلة..

■■

ولم تكن كل الصفحات السابقة سوى محاولة بسيطة أتخذت شكل «الزيارة الجديدة للسادات» بعيون الذين عرفوه عن قرب وعملوا بجواره، اتفقوا معه أو اختلفوا حوله!

لكنها فى كل الأحوال والحالات كانت زيارة إنسانية لرئيس وزعيم شغل الناس والدنيا حياً وشغلها أكثر بعد رحيله!!

«رشـاد كامـل»

• مصادر الكتاب •

المؤلف	الكتاب
■ الرئيس أنور السادات	صفحات مجهولة.
■	البحث عن الذات.
■	مقالات متفرقة بجريدة الجمهورية.
■ أحمد بهاء الدين	محاوراتى مع السادات
■ الملك الحسن الثانى	ذاكرة ملك.
■ أنيس منصور	«هناك أمل».
■	«عندى كلام».
■ اسماعيل فهمي	التفاوض من أجل السلام.
■ أحمد كامل	من أوراق رئيس المخابرات المصرية
■	بقلم أحمد عز الدين.
■ أمير الزهار	صور وأسرار من حياة الكبار
■	ذكريات المصور فاروق إبراهيم
■ د. بطرس غالى	طريق مصر إلى القدس
■ چيهان السادات	سيدة من مصر
■ حسن عزت	أسرار معركة الحرية
■ حمدى لطفى	ثوار يوليو الوجه الآخر
■ خالد محيى الدين	والآن أتكلم.
■ د. رفعت السعيد	مجرد ذكريات.
■ رشاد كامل	ثورة يوليو والصحافة
■	لغز السادات
■ سيد مرعى	«مع الرئيس السادات»
■ سامى السمكورى	(مذكرات صلاح الشاهد).
■ عثمان أحمد عثمان	تجربتى
■ عبد السلام الزيات	السادات الحقيقة والقناع.
■ عبد اللطيف البغدادى	مذكرات
■ عبد الستار الطويلة	«السادات الذى عرفته».
■ عبد الله أمام	هكذا حكم عبد الناصر مصر.
■	مذكرات سامى شرف
■ لطفى الخولى	مدرسة السادات السياسية واليسار المصرى
■ محمد حسنين هيكل	خريف الغضب
■	أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة
■ محمد إبراهيم كامل	السلام الضائع فى كامب ديفيد
■ محمود جامع	عرفت السادات
■ محمد نجيب	كنت رئيساً لمصر
■ محمود الجيار	الأسرار الشخصية لجمال عبد الناصر
■ موسى صبرى	السادات الحقيقة والأسطورة
■ محمود فوزى	الضباط الأحرار يتكلمون
■ محمد الطويل	(مذكرات فكرى مكرم عبيد)

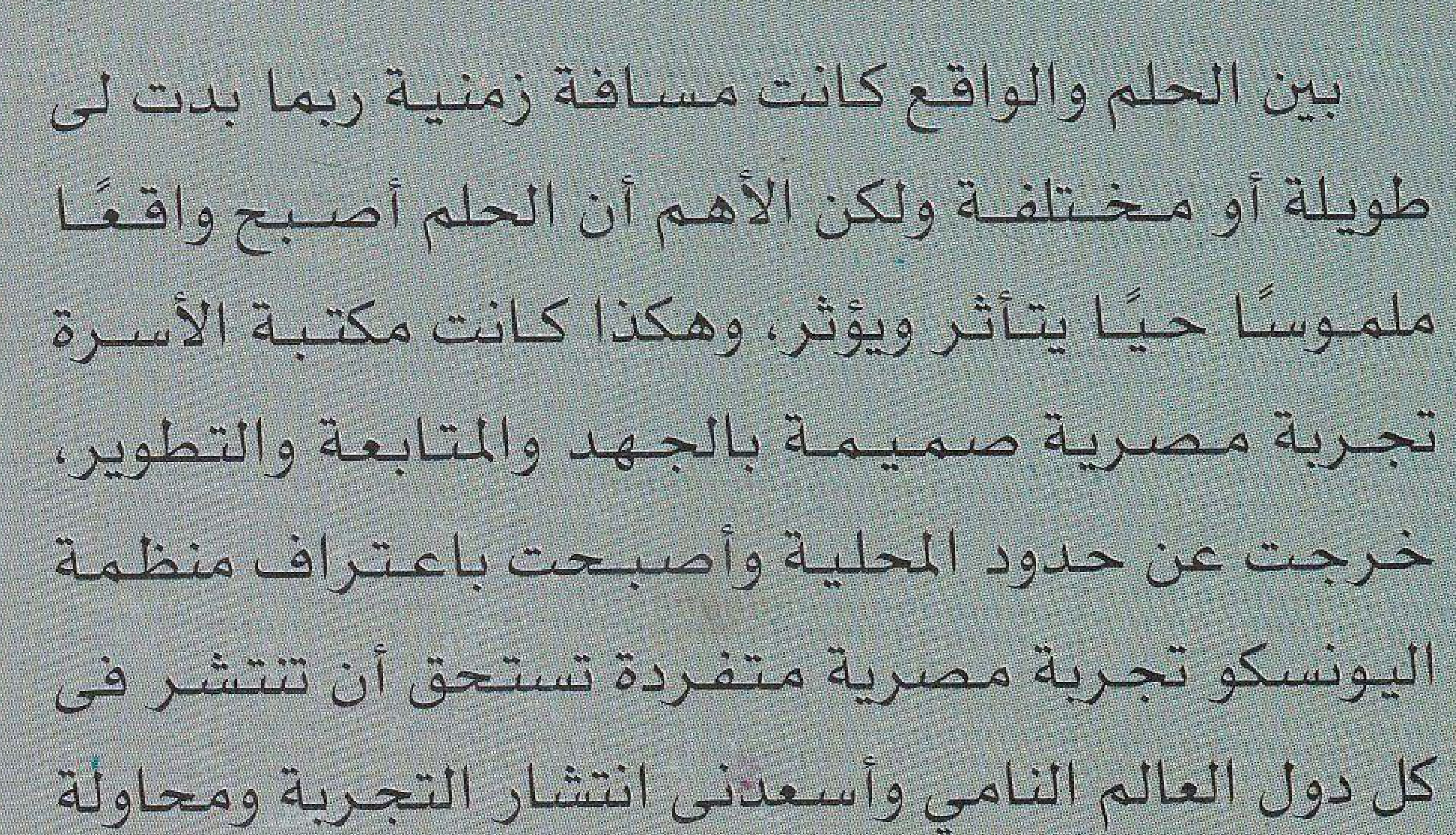
الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٠٣١٥/٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7258 - 8





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥٠ قرش

